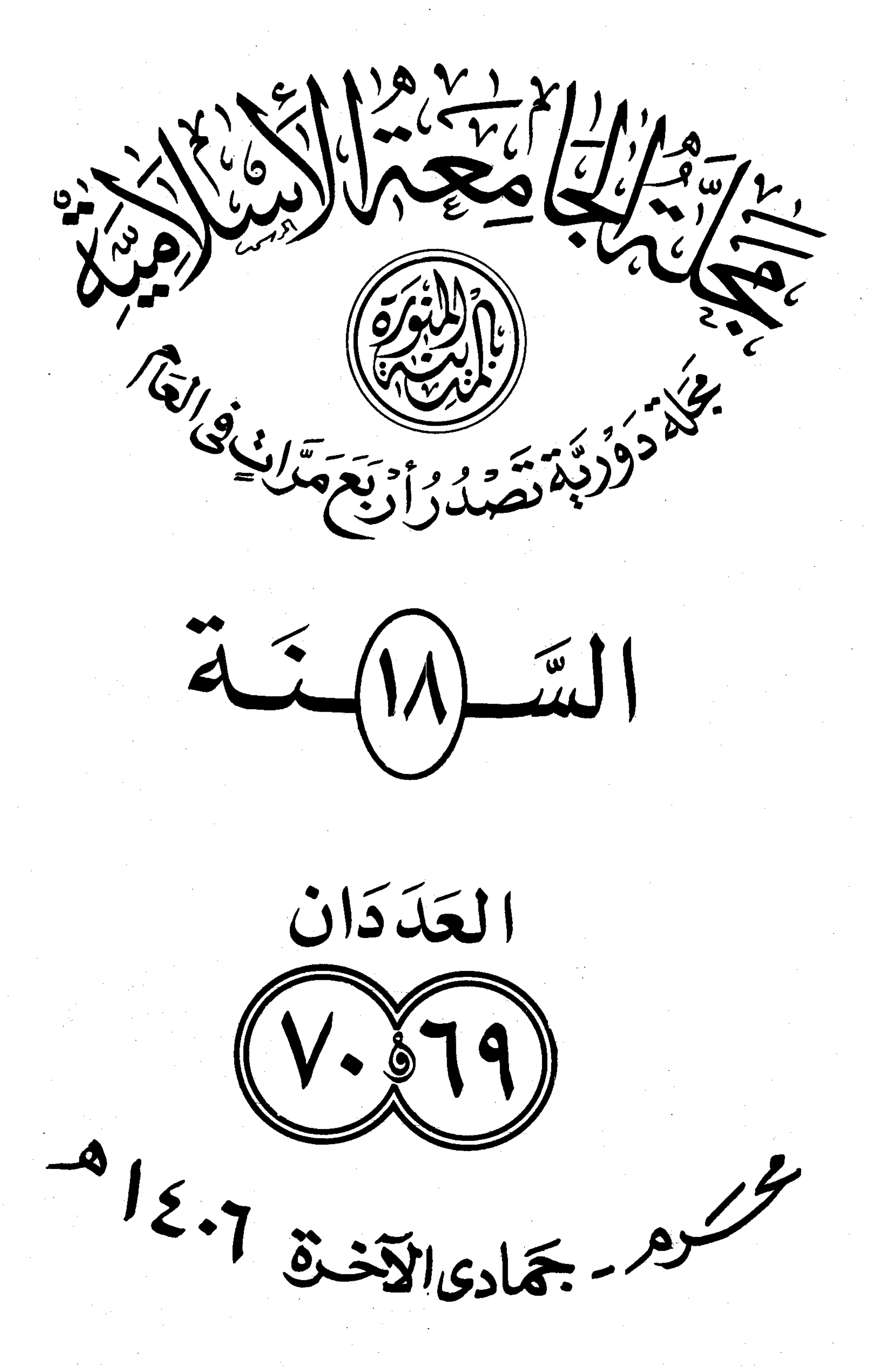

مجلة الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
مجلة دورية تصدر أربع مرات في العام
السنة ١٨
العددان
٦٩ و ٧٠
محرم - جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم





محتويات العدد

أطيبُ النشْر

في

تفسِير الوَصَايا العَشر

الدكتور مرزوق بن هياس آل مرزوق الزهراني
أستاذ مساعد بكلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية
الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة



المقدمـــــة

الحمـد لله أجـل الحمـد وأوفاه، والصلاة والسلام على أفضل رسل الله، سيدنا محمد ابن عبد الله، الذي بعثه ربه للعالمين رحمة، ولهداية البشر اصطفاه، وبه ختم الأنبياء، فلا نبـوة بعـده لأحـد من خلق الله، وأنزل الله عليه الكتاب معجزة خالدة، وتبيانا لما فيه سعادة الإنسـان فى أولاه وأخـراه، وصلى الله على آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، ومن اقتفى أثره وترسم خطاه.

أمـــا بعــــد :

فهذه نظرات علمية، وتأملات فكرية فى معاني آيات من كتاب الله عز وجل، ضمت الآيات أموراً هي قوام المجتمع الإسلامي وأسس مثالية الحياة لكل إنسان وفقه الله وبفضله ورحمتـه اجتبـاه، تلكم الأمور هي المسماة «الوصايا العشر» والآيات التي ضمت هذه الوصايا هي المبدوءة بقوله تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾[1].

وقد يخطر في ذهن القارىء الكريم أن يسأل عن سبب عنايتى بهذا الموضوع دون سواه من موضـوعـات الشـريعة التى تزخر بكثير من المسائل فى العديد من الأبواب. وجوابي عن هذه الخاطرة أن الحافز إلى هذا العمل أمران:

١ ــ حب المعـايشـة لكتـاب الله عز وجـل. ولأن هذه الـوصايا عليها مدار الإسلام، وهي أسس النجاة وقوارب الفوز لعبور أمواج بحار الحياة العاتية، فالمستمسك بها تحصل له السلامة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة.

٢ ــ إن كتـاب الله عز وجـل هو المصـدر الأول للشـريعـة الإسلامية، والسنة النبوية المصـدر الثـاني المبين والمفصل لما جاء فى المصدر الأول فالعناية بهما أوجب الواجبات والتعرف على شيء من كنوزهما جهد المقل، وما عداهما من العلوم ففرع عنهما أو خادم لهما، وقد كنت عايشت سنـة رسـول الله ﷺ بعض الشيء، وتـاقت نفسي إلى جلسـات مع كتـاب الله عز وجـل، فرأيت أن أبـدأ بدراسـة تلك الـوصايا المباركة رجاء أن تكون وصيتي لنفسي كما هي

---

(١) الآيات (١٥١ ــ ١٥٣) من سورة الأنعام.

وصيـة الله إلى عبـاده جميعـا، ووصيـة نبى الله إلى أمتـه، وممـا تجدر الإشـارة إليه هنا إعطاء القـارىء الكـريم نبـذة عن نظرتي إلى هذه الوصايا. فأقول سائلا المولى جل ثناؤه التوفيق لكل خير، والبعد عن المزالق والزلل: إن المتأمل لتلك الآيات التي وردت بعد الحديث عن تشريعات الأنعام والثمار يجد أن تلك الوصايا هي قواعد هذا الدين الذي جد في بناء المجتمع الإنسـانى بنـاء يليق بمقـامه واصطفائه، ففيها سعادة بنى الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا، فهي قوام حيـاتـه تذكي جذوة التـوحيـد في نفسـه لتحـرق تلك الجـذوة أوهام الجاهلية، وتبيد تصوراتها، وتكشف زيف مزاعمها، فتملأ قلب الإنسان بنور الإيمان الذي يضىء له الطريق عبر مشواره الطويل إلى أن يلقى ربه عز وجل على صراط مستقيم، ويجد المتأمـل أيضـا أن هذه الـوصـايا قوام حياة الأسرة الإنسانية التي يتكون منها المجتمع البشري عبر أجيـالهـا المتـلاحقة، فكل أسرة تستمد هدايتها من هذا المنهل العذب فإنها تؤتي ثمارها طيبـة مبـاركـة بإذن ربهـا محفـوفـة برعاية الله فى كل ما يحوط الحقوق الانسانية من ضمانات، وتسعد بكل ما يدفع إلى القيام بالواجبات، وتقدمت الإشارة إلى أن الدين الإسلامي عني ببناء المجتمع الإسلامي الذي بناؤه نابع من صلاح الأسرة، ومن هذه الوصايا ندرك القدر العظيم في بنـاء المجتمـع الـذي جعل الدين الإسلامي التكافل أحد لبناته، فالعفة والطهارة تحوط كل ما يجري فيه من معاملات، كل ذلك مرتبط بعهد الله عز وجل ولتحقيق هذه الغاية يرى المتأمل أن الوصايا بدأت بأعظم أسس إصلاح المجتمع وهي أسس عظيمة لكن توحيد الله عز وجل في المقام الأول، فالمجتمع السليم يقوم على المبدأ السليم ولا حياة لمجتمع يفقد العقيدة النقية الموافقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فإذا صحت العقيدة صح بناء المجتمع وإذا فسـدت العقيـدة فسـد المجتمـع، وبصحة العقيدة تصح العبادات، وإذا صحت العبادات أثمـرت الأعـمال وقـوي الـرجـاء في النجـاة بين يدي الله عز وجل مالم يتخلف القبول بسبب خارجى، ولهـذا فإن الـلازم قبـل الـدخول في الأوامر والنواهي، وقبل الشروع في التكاليف والواجبات أن تقوم في المجتمع قاعدة التوحيد قال تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾[(١)] وقال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا لا إله إلا الله . . .)[(٢)] الحـديث. وقـال لما بعث معـاذاً إلى اليمن: (. . . فليكن أول ما تدعوهم إليه شهـادة أن لا إلـه إلا الله . . .)[(٣)] وقـد عني الكتـاب والسنـة بالتوحيد وجعله قاعدة أساسية

---

(١) الآية (١٩) من سورة محمد .

(٢) أخرجه الإمام البخاري (الصحيح مع الفتح ١/ ٧٥).

(٣) أخرجه الإمام البخاري (المصدر السابق ٣/ ٢٦١).

لجميع الأعمال، منها تستمد الحقوق والواجبات، وقد رتب الإسلام على العقيدة مارتب من الـولاء والـبراء، ومـا وضـع من الشرائع والأحكام فيجب أن يعترف الإنسان في هذا العصر المليء بالمتنـاقضـات بربوبية الله له فى كل شأن من شئون حياته، كما يجب أن يعترف بالله عز وجـل إلهـاً واحـداً، لا شريك له في ألوهيته ولا فى أسمائه وصفاته، ولا ريب أن المتأمل يجد في هذه الـوصـايـا تحديـدا للمنهـج الـذي يجب أن يسير عليه كل مسلم إنه المنهج الإسلامي الرفيع الذي يقدم الأسلوب الوقائي على الأسلوب العلاجي، ولا يعرض الناس للفتنة ثم يكلفهم مشقـة فى المقـاومـة تتلف أعصـابهم وتهـدر طاقـاتهم، إن الإسلام دين وقاية قبل أن يرسم الحـدود ويـوقـع العقـوبـات فهو دين حماية للفرد والأسرة والمجتمع، يرعى الإنسان فى شئـون دنيـاه ويـرشـده في أمـور آخـرتـه، يحمى الضمير الإنساني فلا يهجس فيه إلا خير ولا ينطـوى إلا على صفـاء الاعتقـاد، ونـداء الحق، وهـاتف الخـير، ومـراقبـة الله فى السر والعلانية، إنه دين صيانة المشاعر، إذ يرشد إلى سمو الأخلاق، ويحذر من الإساءة أياً كان مصـدرهـا والبـاعث عليهـا، واعتنى بالحـواس فأرسى قواعـد تهذيبهـا، ووطد دعائم حماية الجـوارح، والحـمايـة منهـا أيضـا جعـل لكـل ذلـك قانونه وضوابطه في شتى مجالات الأعمال الدنيوية والأخروية. وربك أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير.

الباحث

المنهج فى البحث

لما كانت الآيات الكريمات تشمل عشر وصايا توضح جانباً عظيما أقامته الشريعة الإسلامية في مبادئها النظرية والتطبيقية، وفيه تحديد الأسس التي يقوم عليها اصلاح البشرية رأيت أن لا أخالف المنهج القرآني. في سرد الوصايا مرقمة حسب تسلسلها في كتاب الله عز وجل وقد جعلت كل وصية عنواناً مستقلاً وتابعت بحث ما تضمنته الوصية من مبادىء وأحكام تحت عناوين جانبية ورأيت أن من تمام البحث التعرض لكل ما يخدم البحث من حيث بيان الغريب. والنظر في الجانب اللغوي مما له علاقة في توضيح المعنى مع الإفادة التامة من أقوال أئمة التفسير واستخدام المصادر وتوثيق المعلومات. والله تعالى أسأل حسن القصد والتمام والبعد عن اللغو والآثام. وأن يوفقنا لحفظ شريعته وخدمة دينه.

بعض ما جاء في فضل هذه الآيات

ما من شك أن كل آية في كتاب الله عز وجل تزخر بالفضيلة، وهي معين يفيض بالخير، ويتدفق بالهداية، ومن ذلك الخير ما حوت هذه الآيات، ومن ذلك النور ما أضاءت به طريق الحائرين حتى تركت لهم جادة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وما فى هذه الآيات من نور يشع بالخير والهداية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو وصية الله إلى عباده، ووصية محمد ﷺ إلى أمته.

قال الترمذي رحمه الله:

حدثنا الفضل بن الصباح البغدادي[١]، حدثنا محمد بن فضيل [٢]، عن داود الأودي[٣] عن الشعبي[٤]، عن علقمة[٥]: عن عبد الله[٦] قال: (من سره أن ينظر إلى الصحيفة[٧] التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات:

---

(١) أصله من نهاوند، ثقة مات سنة خمس وأربعين ومائة.

(٢) ابن غزوان، صدوق، رمي بالتشيع.

(٣) ابن يزيد، الأودى، الزعافرى، ضعيف، مات سنة إحدى وخمسين ومائة.

(٤) عامر بن شراحيل، ثقة مشهور.

(٥) ابن قيس، النخعي، ثقة ثبت.

(٦) ابن مسعود رضي الله عنه.

(٧) لعل في هذه التسمية ما يشير إلى أنها من الصحف المنزلة قبل الإسلام ويأتى البيان إن شاء الله.

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ الآية إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾[1]. وقال عقبه: هذا حديث حسن غريب[2].

وقال الطبري رحمه الله: حدثنا ابن وكيع[3] قال: ثنا إسحاق الرازي[4]، عن أبي سفيان[5]، عن عمرو بن مرة[6] قال: قال الربيع[7]: ألا أقرأ عليكم صحيفة من رسول الله ﷺ لم يفل[8] خاتمها؟ فقرأ هذه الآيات ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾[9].

وقال رحمه الله: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا جرير[10]، عن الأعمش[11]، عن إبراهيم[12]، عن علقمة[13] قال: جاء إليه نفر فقالوا: قد جالست أصحاب محمد - ﷺ - فحدثنا عن الوحي، فقرأ عليهم هذه الآيات من الأنعام ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم

---

(١) الآيات من (١٥١ ـ ١٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) الجامع ٥/٢٦٤. قد أشكل هذا المسلك للإمام الترمذي رحمه الله على العلماء، ويذكر الدكتور نور الدين عنتر وهو صاحب بحث في جامع الترمذي أنه إذا قال: حسن غريب فهو يريد ما كان دون الصحة لكنه ليس بضعيف وهو الحسن لذاته، وقد يريد غرابة السند لا المتن (انظر تعليقه على مقدمة ابن الصلاح ص٣٦). ويؤيد أنه أراد غرابة السند أن الرواية أخرجها البيهقي في شعب الإيمان والطبراني وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردوية كلهم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (الدر المنثور ٣/٥٤) وهو شبيه بحديث عمر إنما الأعمال بالنيات. فلينظر.

وعلى هذا الفهم فالحديث حسن لذاته عند الترمذي رحمه الله. وإن كان في سنده داود بن يزيد الأودي مجمع على ضعفه (انظر التهذيب ٣/٢٠٥) لكنه ضعف محتمل، ولذلك قال ابن عدي رحمه الله: ولم أر في حديثه منكراً يجاوز الحد، وداود وإن كان ليس بالقوي في الحديث، فإنه يكتب حديثه ويقبل إذا روى عنه ثقة. (الكامل ٣/٩٤٨) وتلميذه محمد بن فضيل صدوق، وبقية رجال السند ثقات وتقدم البيان. ويقويه ما يأتي من إيضاح.

(٣) سفيان بن وكيع، صدوق، بلي بوراقة، ولم يقبل النصح، فسقط حديثه.

(٤) هو ابن سليمان، أبو يحي، ثقة فاضل، مات سنة مائتين.

(٥) سعيد بن سنان الشيباني، صدوق له أوهام أخرج له مسلم والأربعة.

(٦) الجملي، الأعمى، كان لايدلس، ثقة، عابد، رمي بارجاء أثنى عليه الأئمة، وله صفات جميلة (انظر التهذيب ٨/١٠٢).

(٧) ابن خثيم بن عائذ الثوري، ثقة عابد، قال له ابن مسعود رضي الله عنه: لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك. لكن عمرو بن مرة في غالب ظني أنه لم يسمع منه فإني لم أجده في تلاميذ الربيع، ولا الربيع في شيوخه، ثم إن بين وفاتيهما خمساً وأربعين سنة، والربيع من الثانية، وعمرو من الخامسة وأخرجه الطبري من طريق أخرى عن الربيع غير أنه قال: عن رجل عن الربيع (الطبري ٨/٦٤).

(٨) أي لم يكسر خاتمها، ومعنى الفل: الكسر. (انظر اللسان ١١/٥٣٠ والصحاح ٢/٢٦٠).

(٩) الطبري ٨/٦٤.

(١٠) ابن عبد الحميد بن قرط، ثقة، صحيح الكتاب.

(١١) سليمان بن مهران، ثقة، حافظ، لكنه يدلس.

(١٢) ابن يزيد النخعي، ثقة، يرسل كثيراً.

(١٣) ابن قيس ثقة ثبت تقدم. وهو يروى عن ابن مسعود فضل هذه الآيات، فيكون إبراهيم متابعاً لداود الأودي في أصل هذه الرواية.

عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ قالوا: ليس عن هذا نسألك[١] قال فما عندنا وهي غيره[٢].

سؤال رسول الله ﷺ أصحابه المبايعة عليها:

قال أبو عبد الله الحاكم رحمه الله:

حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار[٣]، حدثنا محمد بن مسلمة الواسطي[٤]، حدثنا يزيد بن هارون [٥]، أنبأنا سفيا بن حسين[٦]، عن الزهري[٧]، عن أبي ادريس[٨] عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: من يبايعنى على هؤلاء الآيات، ثم قرأ ـ **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾** حتى ختم الآيات الثلاث، فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص أدركه الله بها في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة، كان أمره إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له) [٩]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١٠]. وقد وافقه على هذا الحافظ الذهبي رحمه الله[١١].

---

(١) الذي يظهر لي أنهم أرادوا أن يقص عليهم خبر الوحي إلى رسول الله ﷺ على نحو ماروت عائشة رضي الله عنها لكنه صرفهم إلى هذا ليرشدهم إلى فضلها وأهميتها وقوله: (ليس عندنا وحي غيره) الضمير يعود على القرآن فلا يفهم أنه نفى ماعدا هذه الآيات.

(٢) الطبري ٨/٦٤.

(٣) نقل السبكي عن الحاكم أنه قال: هو محدث عصره، وكان مجاب الدعوة (طبقات الشافعية ٢/١٧٨) وهذه تزكية من أبي عبد الله الحاكم لشيخه ولها قيمتها لقوة الصلة ومزيد الخبرة رحم الله الجميع.

(٤) أبو جعفر، قال الخطيب رحمه الله: في حديثه مناكير بأسانيد واضحة، ونقل عن الحاكم أنه سمع الدارقطنى يقول: لا بأس به، ونقل الخطيب تضعيفه عن آخرين. (تاريخ بغداد ٣/٣٠٥). وأمر الحاكم واضح في هذا فقد أخذ بقول الدارقطني رحمه الله وإن كنت لم أجد هذا في سؤالاته للدارقطني ولا الضعفاء والمتروكون له. ولعله في كتاب آخر بل الذي في سؤالات البرقاني للدارقطني (متروك) انظر ص٢٨. لكن العجيب أن الحافظ الذهبي يوافق الحاكم على صحة الحديث مع أنه لا يرضى عن محمد بن مسلمة حسبما نفهم من ترجمته له (في الميزان ٤/٤١) فهل تبع الحاكم في الأخذ بقول الدارقطني أو أنها كبوة، ولكل جواد كبوة.

(٥) أبو خالد، الواسطي، ثقة، متقن.

(٦) أبو محمد، الواسطي، ثقة في غير الزهري باتفاقهم.

(٧) محمد بن مسلم، الفقيه الحافظ، المتفق على جلالته وإتقانه.

(٨) الخولاني، عائذ بن عبد الله، سمع من كبار الصحابة، وكان عالم الشام بعد أبي الدرداء.

(٩) لاشك أن من المعلوم للمسلم أن الشرك لايدخل تحت هذا القول فهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك﴾ الآية ٤٨ من النساء، وإذا علم فإن قوله هذا أصل مذهب أهل السنة والجماعة لأنه فيما عدا الشرك، وقتل النفس على خلاف في الأخير من الكبائر التي يدخل أصحابها تحت المشيئة خلافاً للخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة مخلد في النار. وهو مذهب واضح البطلان.

(١٠) (المستدرك ٢/٣١٨) وتقدم كلام عن هذا في تعليق (٤) والحديث في سنده محمد بن مسلمة الواسطي أقل أحواله الضعف، وسفيان ضعيف في الزهري. لكن الحديث أصله في الصحيحين من رواية الزهري، عن أبي إدريس، عن عبادة رضى الله عنه، دون قوله: (من يبايعني على هؤلاء الآيات، ثم قرأ ـ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ـ حتى ختم الآيات الثلاث ـ). ولينظر (الصحيح مع الفتح ١/٦٤، وصحيح مسلم ٣/١٣٣٣) ولفظ الحاكم أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ابن مردوية عن عبادة بن الصامت (الدر المنثور ٣/٣٨١).

(١١) انظر (التلخيص مع المستدرك ٢/٣١٨).

صلة الآيات بالكتب السماوية :

قال الطبري رحمه الله :

حدثنا محمد بن المثنى[1]، ومحمد بن بشار[2] قالا : ثنا وهب بن جرير[3] قال : ثنا أبي[4] قال : سمعت يحي بن أيوب[5] يحدث عن يزيد بن أبي حبيب[6]، عن مرثد بن عبد الله[7]، عن عبيد الله بن عدي بن الخيار[8] قال : (سمع كعب الأحبار[9] رجلاً يقرأ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) فقال : والذي نفس كعب بيده، إن هذا لأول شيء في التوراه، - بسم الله الرحمن الرحيم، قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم -)[10].

---

(١) الزَّمن، ثقة، ثبت، وهو قرين محمد بن بشار بندار، وماتا في سنة واحدة.

(٢) بندار قرين سابقه ، ثقة.

(٣) ابن حازم ، ثقة.

(٤) جرير بن حازم أبو النضر وهو والد وهب، ثقة، يضعف إذا حدث عن قتادة، وله أوهام إذا حدث من حفظه ولم يحدث في حال اختلاطه.

(٥) أبو العباس، الغافقى، صدوق ربما أخطأ روى له الجماعة.

(٦) أبو رجاء، المصري، ثقة، فقيه، وكان يرسل.

(٧) أبو الخير، المصري، ثقة، فقيه.

(٨) كان مميزا يوم الفتح فعد في الصحابة. وعده آخرون في ثقات التابعين. انظر (أسد الغابة ٥/٣٤١ والثقات للعجلي ص٣١٨).

(٩) كعب بن ماتع الحميرى، من أهل اليمن وسكن الشام، ثقة، مخضرم.

(١٠) الطبري ٨/٦٤ والإسناد لا يقل عن درجة الحسن فرجاله أئمة كبار وكون يحي بن أيوب في مرتبة صدوق ربما أخطأ لا ينزل بدرجته عن الحسن فإن الجماعة أخرجوا حديثه ومنهم الإمامان البخاري ومسلم ومن كان هذا حاله فقد جاز القنطرة إن شاء الله وثبتت عدالته. ثم إن ابن أبي شيبة وابن الضريس، وابن المنذر أخرجوا عن كعب أنه قال : (أول ما نزل من التوراة عشر أيات، هى العشر التي أنزلت من سورة الأنعام (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم - إلى آخرها) انظر (الدر المنثور ٣/٣٨١). قال الشوكاني رحمه الله : هي الوصايا العشر التي في التوراه.

أولها أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، من بيت العبودية، لايكن لك إله غيرى.

ومنها : أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض، التي يغطيك الرب إلهك.

لا تقتل - لا تزن . لا تسرق.

لا تشهد على قريبك شهادة زور.

ولا تشته بنت قريبك.

ولا تشته إمرأة قريبك.

ولا عبده. ولا أمته. ولا حماره، ولا شيئاً لقريبك.

قال رحمه الله : فلعل مراد كعب الأحبار هذا ولليهود بهذه الوصايا عناية عظيمة، وقد كتبها أهل الزبور في آخر زبورهم، =

الآيــات من محكم القرآن :

قال الطبري رحمه الله :

حدثنا محمد بن الحسين[1] قال: ثنا أحمد بن المفضل[2] قال: ثنا أسباط[3]، عن السدي[4] قال: (هؤلاء الآيات التى أوصى بها من محكم[*] القرآن)[5].

وقال أبو عبد الله الحاكم رحمه الله :

حدثنـا بكـر بن محمـد الصير في[6] بمرو، ثنا عبد الصمد بن الفضل[7]، ثنا مالك بن إسماعيـل النهـدي[8]، ثنـا إسـرائيل[9]، عن أبي إسحاق[10]، عن عبد الله بن خليفة[11] قال: سمعت ابن عبــاس رضي الله عنهـما يقـول: (إن في الأنعـام آيـات محكـمات، هن أم

= وأهل الإنجيل في أول إنجيلهم، وهى مكتوبة في لوحين، وقد تركنا منها ما يتعلق بالسبت. (فتح القدير ٢/١٧٩). قلت: معلوم تحريف اليهود للتوراة، ولا يبعد أن يكون اللفظ محرفاً في البعض وعلامته بادية سيما قوله: لا تشهد على قريبك... الخ، فإن مفهومه جواز ذلك فيما عدا القريب وهذه عقيدتهم المحرفة إستحلال دماء وأموال وأعراض الآخرين وحاشا شرع الله أن يسمح بذلك. بل إن كعبا تلا الآيات والله أعلم.

(١) ابن موسى ابن أبى حنين، الكوفي صدوق. انظر (الجرح والتعديل ٧/٢٣٠).

(٢) أبو علي، الحضَرِيْ، شيعي، صدوق، في حفظه شيء روى له مسلم.

(٣) ابن نصر الهمداني، صدوق، كثير الخطأ.

(٤) إسماعيل بن عبد الرحمن، صدوق يهم، رمي بالتشيع، روى له مسلم.

* تقول: أحكمت الشيء فاستحكم، صار محكماً، واحتكم الأمر، واستحكم وثق. وإحكام القول إتقانه، بتمييز الصدق من الكذب، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، ولذلك وصف الله كتابه العزيز فقال: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ الآيـة (١) من سورة هود أي أحكمت وفصلت بجميـع ما يحتـاج إليـه من الدلائل على توحيده عز وجل، وإثبات نبوة الأنبيـاء وختمهم بنبينـا محمـد ﷺ، وبيـان شرائع الإسلام. فالقرآن الكريم كله محكم متقن، فمعانيه متفقه وإن اختلفت ألفاظه وهو متشابه في الإحكام والإتقان، متماثل في الأوامر والنواهي يصدق بعضه بعضا ويفسر بعضه بعضا، وفيه إحكام خاص، وتشابه خاص قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات وأخر متشابهات﴾ الآية (٧) من سورة آل عمران. فالمحكم الناسخ، والحلال، والحرام، والحدود، والفرائض، والوعد، والوعيد، والمتشابه المنسوخ، والكيفية في الأسماء والصفات، وفواتح السور، وهذه الآيات محكمات لما تضمنت من الأوامر والنواهي. (انظر اللسان ١٢/١٤٣).

(٥) الطبري ٨/٦٤.

(٦) لم أقف على ترجمته.

(٧) لم أقف على ترجمته.

(٨) أبو غسان، ثقة، متقن، صحيح الكتاب.

(٩) ابن يونس، بن أبي إسحاق السبيعي، ثقة تكلم فيه، بلا حجة.

(١٠) عمرو بن عبد الله، السبيعي، مكثر، ثقة، اختلط بأخرة وقد وصفه النسائي وغيره بالتدليس (انظر إتحاف ذوي الرسوخ ص٤٠) لكنه من الطبقة التي توقف فيها جماعة ولم يحتجوا إلا بما صرح فيه بالسماع، وقبلهم آخرون مطلقاً. (المصدر السابق ص١١).

(١١) الهمداني، مقبول.

الكتـاب، ثم قرأ ـ قل تعـالـوا أتـل ما حرم ربكم عليكم ـ الآية) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه[1]، ووافقه على هذا الحافظ الذهبي[2] رحمه الله.

مناسبة الآيـات لما قبلها:

إلتمس علماء التفسير مناسبة للربط بين هذه الآيات وما سبقها، فتحصل من السياق أن الله عز وجل لما بين فساد رأي الكفار وضلالهم فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والثمار وأوضح سفههم في ذلك، وأبطل دعواهم بمطالبتهم بالبرهان ولا قدرة لهم عليه. فلله الحجـة البـالغـة. ناسب بعد ذلك أن يوجههم بالأسلوب الحكيم إلى ما يجب عليهم إتباعه من شرع الله عز وجل لا مما تمليه عليهم أهواؤهم، وتسوقهم إليه رغباتهم فيضعوا لأنفسهم قانـونـاً فيـما يحل ومـا يحرم. بل مرد ذلك إلى العليم الخبير الذي أوضح لهم بأقوى بيان كمال قدرتـه عز وجـل وشـدة عجـزهم عن تدبـير شئـونهم[3]. فقال تعالى موجهاً الأمر إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ:

﴿قـل تعـالـوا أتـل ماحـرم ربكم عليكم أن لا تشـركـوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إمـلاق نحن نرزقكم وإيـاهم ولاتقـربـوا الفـواحش ما ظهـر منهـا ومـا بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصـاكم به لعلكم تعقلون(١٥١) ولا تقـربـوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشـده وأوفـوا الكيـل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكـرون(١٥٢) وأن هذا صراطي مستقيـما فاتبعـوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون(١٥٣)﴾.

ســـؤال وجـــوابه

قال العلماء قد يسأل سائـل فيقـول: قال الله تعـالى: **﴿قـل تعـالـوا أتـل ما حرم ربكم...﴾** الآيـات. وعنـدمـا نتأمـل الآيـات نجـد عدداً من الأوامـر إنـدرج تحت قولـه «مـاحـرم» كالإحسـان إلى الـوالدين، والوفاء في الكيل والميزان، والعدل في القول، والوفاء

---

(١) المستدرك ٢/٣١٧.

(٢) التلخيص مع المستـدرك ٢/٣١٧. والغـريب أن الحـافـظ الـذهبي يقول عن عبد الله بن خليفة: لا يكاد يعرف. (الميزان ٢/٤١٤) وتقدمت الإشارة لمثل هذه الملاحظة ص٦.

(٣) التسهيل ٢/٢٥، الارشاد ٣/١٩٧، الفتوحات ٢/١٠٦، القاسمي ٦/٧٨٠، الظلال ٣/٤٢٠، التيسير ٢/١٨٥.

بالعهد، واتباع شرع الله وهذه الأشياء مأمور بها وليس منهياً عنها فبم يوجه هذا؟.

والقول في جواب هذا أن أهل العلم لم يغفلوا عن هذا الإشكال من حيث الظاهر وأجابوا بأجوبة عديدة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿**حرم ربكم**﴾ معناه وصاكم به ربكم فضمن حرَّم معنى وصّى، ويؤيد هذا الفهم ماجاء في آخر الآية قال تعالى: ﴿**ذلكم وصاكم به**﴾ فالتحريم هنا مضمن معنى الوصية، وإذا نظرت في المعنى تجد أن الوصية فيه أعم من التحريم. فكل تحريم وصية من الله عز وجل إلى عباده، وليس كل وصية تحريما، لأنها تكون بتحريم وبتحليل، وبوجوب وندب، وليس أمراً غريباً أن يراد بالتحريم الوصية، ومن الأساليب عند العرب ذكر اللفظ الخاص وإدارة العموم، أو العكس فتذكر اللفظ العام وتريدبه الخاص وبناء على ما تقرر فإن تقدير الكلام: قل تعالوا أتل ما وصاكم به ربكم، ثم حصل إبدال قوله تعالى ﴿**أن لا تشركوا به شيئا**﴾ منه. وذلك على وجه البيان والتفسير. أي وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً ووصاكم بالإحسان إلى الوالدين... الخ. فجمعت الوصية ترك المحرمات وفعل المأمورات. وهذا التوجيه في نظري حسن جداً[1].

٢ ـ أن تكون (أن) في قوله تعالى ﴿**أن لا تشركوا**﴾ تفسيرية لفعل النهي الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف، والتقدير: أتل ما حرم عليكم وماأمركم به، فحذف وما أمركم به لدلالة (ماحرم) عليه لأن معنى ما حرم ربكم، ما ينهاكم ربكم عنه، فالمعنى قل تعالوا أتل ما نهاكم ربكم عنه وماأمركم به، ولامانع من عطف الأمر على النهى والعكس ومن شواهده قول إمرىء القيس: يقولون لا تهلك أسأ وتجمل[2].

٣ ـ جاز ذلك لجواز عطف الأوامر على النواهي لكونها تفسيراً لها باعتبار لوازمها التي هي النواهي المتعلقة بأضداد ما تعلقت به، فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهى عن ضده، بل هو عينه عند البعض، كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها، فإن عطف الأوامر على النواهي الواقعة بعد (إن) المفسرة لتلاوة المحرمات، مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرما دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الأضداد، على الوجه المذكور[3].

---

(١) التسهيل ٢/٢٥.

(٢) البحر ٤/٢٤٩.

(٣) الارشاد ٣/١٩٨.

الوصيـــة الأولى

قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً﴾[1].

البحث اللغـــوي :

أ ـ المفردات :

قل: فعل أمر موجه إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ.

تعالوا: أي أقبلوا وهلموا. وهذا من الخاص الذي صار عاماً. فالأصل فيه أن يقوله من هو في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه، ثم كثر واتّسع فيه حتى عمَّ[2].

أتـل: من التلاوة والمراد بها القراءة.

حرم: من التحـريم وهـو المنـع، والحرام الشيء الممنوع منه، ويكون المنع بأمور. إما بتسخـير إلهي، وإمـا بمنـع قهـري، وإما بمنع من جهة العقل، أومن جهة الشرع، أومن جهـة من يرتسم أمـره، وهـو في هذه الآيـة من جهـة القهر بالمنع[3]، كقوله تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾[4].

ب ـ النحـــو :

أتل: جواب الأمر، أي إن تأتوني أتل.

مـا: في قوله تعالى ﴿ما حرم ربكم﴾: فيها ثلاثة أقوال.

١ ـ أنها موصولة بمعنى الذي، والعائد محذوف، والتقدير: الذي حرمه، والموصول في محل نصب مفعول به. وهذا هو الأظهر.

٢ ـ أنهـا مصـدرية، والتقدير: أتل تحريم ربكم، والتحريم نفسه لا يتلى، وإنما هو مصدر واقع موقع المفعول به، والتقدير: أتل محرم ربكم الذي حرمه هو عز وجل.

٣ ـ أنها استفهامية في محل نصب بحرم بعدها، وهي معلقة لأتل، والتقدير: أتل أي شيء حرم ربكم؟ وهذا ضعيف لأنه لا يعلق إلا أفعال القلوب وما حمل عليها[5].

---

(١) انظر الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) الكشاف ٢/٧٨، الإرشاد ٣/١٩٧.

(٣) المفردات ١١٤.

(٤) انظر الآية (٧٢) من سورة المائدة.

(٥) الفتوحات ٢/١٠٦، ١٠٧.

(عليكم) فيها وجهان :

١ ــ أن الجار والمجرور متعلق بحرم، وهو اختيار البصريين.

٢ ــ أنه متعلق بأتل، وهو اختيار الكوفيين. فالمسألة من باب الإعمال، وقد عرف أن اختيار البصريين إعمال الثاني، واختيار الكوفيين إعمال الأول[١]. ورجح بعض العلماء الأول قالوا: لأنه أنسب بمقام الإعتناء بإيجاب الإنتهاء عن المحرمات المذكورة، وهو السر في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم، فإن تذكيرهم بكونه تعالى رباً لهم، ومالكاً لأمرهم على الإطلاق من أقوى الدواعي إلى إنتهائهم عما نهاهم عنه أشد انتهاء، و(أن) في قوله تعالى ﴿أن لا تشركوا به﴾ مفسرة لفعل التلاوة المعلق بها حرم و(لا) ناهية كما ينبىء عنه عطف ما بعده من الأوامر والنواهي عليه[٢]. وقد أطال العلماء نفس البحث في قوله تعالى ﴿أن لا تشركوا به﴾ من الناحية النحوية وحرر كل ما ورد في ذلك سليمان بن عمر العجلي الشهير بالجمل رحمه الله[٣].

الإيضاح

قال تعالى: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم**﴾ أمر الله عز وجل نبيه ورسوله محمداً ﷺ أن يبين للناس من المحرمات ما يقتضى الحال بيانه، مستخدماً الأسلوب الحكيم في ذلك إيذاناً بأن حق العباد إجتناب ما حرم الله ورسوله واتباع شرع الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ إلى الأسود والأبيض فيقول لهم ﷺ: يامن حرموا ما أحل الله (تعالوا) وهو أمر من التعالى. ولا يمنع أن يحمل على الأصل تعريضاً لأولئك الذين شرعوا مالم يأذن به الله، بأنهم في حضيض الجهل والبعد عن المنهج السديد، ولو استجابوا لنداء الله ورسوله لتعالوا وترفعوا إلى ذروة العلم وقنة العزة.

قوله تعالى ﴿**ألا تشركوا به شيئاً**﴾. هذه أولى الوصايا العشر، وبدأ سبحانه وتعالى هذه الوصايا بتحريم الشرك لأمور ثلاثة كما ظهر لي.

١ ــ إن الشرك أكبر الكبائر وأعظم الذنوب قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما**﴾[٤] وقال تعالى: ﴿**إن الله**

---

(١) الفتوحات ٢/١٠٦، ١٠٧.

(٢) الإرشاد ٣/١٩٨، الروح ٨/٥٤.

(٣) انظر كتابه الفتوحات ٢/١٠٧،١٠٨.

(٤) الآية (٤٨) من سورة النساء.

لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدا﴾[1] وقال تعالى ﴿. . . **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾**[2] وقال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثاً ـ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ـ وجلس وكان متكئا ـ فقال : ألا وقول الزور[3] . . .) الحديث . ويلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ قدم الإشراك على غيره من الكبائر مما يشير إلى أنه أعظم الذنوب وأفدحها .

٢ ـ أن من حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولذلك خلقهم قال تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ الآية وقال تعالى : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[4] الآية . وقال رسول الله ﷺ : (يامعاذ أتدري ماحق الله على العباد؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، أتدرى ماحقهم عليه؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن لا يعذبهم)[5] .

إن الإنسان تتحقق إنسانيته بقلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بصلاحهما ، ولا صلاح لهما إلا بوحدانية الله عز وجل ، إله هذا المخلوق الذي أوجده من العدم ، وركب أجزاءه ورباه بنعمه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، قال تعالى : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾[6] وقال النبى الكريم : (. . . ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب)[7] . ولاريب في ارتباط الروح بالقلب ، كما أن بين القلب واللسان ارتباطاً إذ هو المعبر عما في القلب . يقول الشاعر:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاد ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم[8]

والبراءة من الشرك تتحقق بالعلم والعمل بمقتضى العلم ، فيعلم العبد أن هذه المخلوقات بجميع أنواعها بقوتها وضعفها ليس فيها ما تسكن النفس إليه ، وتنعم بالتوجه

---

(١) الآية (١١٦) من سورة النساء .
(٢) جزء من الآية (٧٢) من سورة المائدة .
(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٥/٢٦١ .
(٤) الآية (٣٦) من سورة النحل .
(٥) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/٣٤٧ .
(٦) الآية (١٦) من سورة ق .
(٧) صحيح البخاري مع الفتح ١/١٢٦ .
(٨) البيت لزهير بن أبي سلمي انظر ديوانه ص٨٩ .

والاعتماد عليه، إلا الله عز وجل قال تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾(١) الآية.

ويتبع العلم العمل بما شرع الله عز وجل قال تعالى: ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾(٢) الآية. فأعلم تعالى عباده على لسان رسوله ﷺ أنه حرم عليهم أن يشركوا به شيئاً، فشمل ذلك كل مُشرَك به، ومُشرَك فيه، من أنواع العبادة، فإن قوله: (شيئاً) من النكرات فيعم جميع الأشياء، ولم يبح عز وجل لعباده أن يشركوا به شيئاً، فإن الشرك أظلم الظلم وأقبح القبائح، قال تعالى حكاية عن لقمان عليه السلام: ﴿**وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم**﴾(٣). ولفظ الشرك يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله عز وجل ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام، فكانت الدعوة واقعة على ترك عبادة ماسوى الله عز وجل، وإفراد الله بالعبادة وحده لا شريك له، وكانت (لا إله إلا الله) متضمنة لهذا المعنى فدعا النبي ﷺ الأمة إلى الإقرار بها إعتقاداً ونطقاً وعملاً، قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة...)(٤) الحديث. وقال ﷺ: (أمرت أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه...)(٥) الحديث. وكان المشركون إذا سئلوا عما يقول لهم محمد ﷺ، قالوا: يقول (أعبد الله ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤ كم)(٦). وكانوا يعلمون دلالة لاإله إلا الله، ولذلك أنكروا التوحيد قال تعالى حكاية عنهم: ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾(٧) وحقيقة الشرك أن يعتقد الإنسان فى بعض المخلوقات إنها تجلب نفعاً أو تدفع ضررا بتأثير منها. وهذا البلاء عم البشرية جمعا ولم ينج منه إلا من رحم الله، ومن أنواع الشرك ما يقع فيه الكثير ون اليوم من الإعتقاد فيمن يعظمون من الأولياء، أن آثاراً عجيبة تصدر عنهم، يزعمون أن ذلك لم يصدر عن أحد منهم إلا لكونه متصفاً بصفة من صفاتالكمال، وفاتهم أن الكمال أمر لم يعهد في جنس الإنسان، بل محله النقص فهومن لوازم العبودية ولاشك، أما الكمال فهو حق لله مختص به دون سواه وأعني بذلك الكمال المطلق،

---

(١) الآية (٢٢) من سورة الأنبياء.

(٢) الآية (١٩) من سورة محمد.

(٣) الآية (١٣) من سورة لقمان.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٠.

(٥) المصدر السابق ١/ ٥١.

(٦) انظر جواب أبي سفيان لهرقل (الصحيح مع الفتح ١/ ٣٢).

(٧) الآية (٥) من سورة ص.

وهم يعنون ذلك فيمن يعظمون حين تصدر منهم أعمال غير عادية. بل زعم غلاتهم أن ذلك لا يحدث إلا لمن خلع الله عليه صفة الألوهية، أو من يفنيه في ذاته، تعالى عما يقولون علواً كبيراً، وهذه عقيدة أهل وحدة الوجود خسىء أصحابها. والأمثلة على شطحات أهل هذا الاعتقاد يطول بيانها؛ فأنواع خرافاتهم لا تكاد تحصر ولها مظانها، ومن ذلك ماكان يعبر عنه المشركون بقولهم في حجهم: (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك - إلا شريكاً هو لك تملكه وماملك -)[1] ويعنون شركاءهم الذين يعاملونهم معاملة العباد مع الله، ومن أصابهم هذا الداء العضال اليوم وإن لم يكن اللفظ الوارد عن مشركي العرب في تلبيتهم ظاهراً في تلبية هؤلاء غير أنه معنى يتجلى في أعمالهم وتصرفاتهم، والشرع لا يبحث إلا عن الأعمال والتصرفات، التي باشرها الناس بنية تعظيم مخلوق من المخلوقات، حتى صار ذلك العمل مظنة للشرك ولازما له في العادة، فالأعمال ترجمة عما في القلوب، ولازم الشيء يعطى حكمه، وقد أقام الشرع العلل الملازمة للمصالح والمفاسد مقامها ونظراً لخطورة هذا الأمر فلابد من التنبيه على أمور جعلها الله عز وجل في الشريعة المحمدية - على صاحبها أكمل الصلاة وأتم التسليم - مظنات للشرك فنهى عنها، منها:

١ - منها أن المشركين كانوا يسجدون للأصنام والنجوم وغيرها من الأوثان فجاء النهي عن السجود لغير الله عز وجل قال تعالى: ﴿**لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**﴾[2] ولم يكن الإشراك قاصراً على السجود بل يتعداه إلى التدبير لأن السجود ناشىء عن التعظيم والتعظيم ناشيء عن اعتقاد في المعظَّم أنه متصرف في الكون، ولديه القدرة على التدبير، وهذه الخطورة قد يكون منشؤها زعم بعض المتكلمين أن توحيد العبادة حكم من أحكام الله، وهو مما يقع الخلاف فيه باختلاف الأديان لا يطلب بدليل برهاني، وهذا ظاهر الفساد، فلو كان الأمر كذلك، لم يقع الإلزام من الله عز وجل بتفرده بالخلق والتدبير، قال تعالى: ﴿**قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون(٥٩) أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون(٦٠) أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون(٦١) أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم**

---

(١) صحيح مسلم ٨٤٣/٢ .
(٢) الآية (٣٧) من سورة فصلت.

خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ماتذكرون(٦٢) أمَّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون(٦٣) أمَّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين(٦٤)﴾[١] وإن من يمعن النظر في هذه الآيات يجد صواعق محرقة لأوهام الجاهلية في كل زمان ومكان، وحجة دامغة تدك تلك الأفكار الواهية والحق أنهم اعترفوا بتوحيد الخلق والتدبير ولكن في الأمور العظام قال تعالى: ﴿**فإذا ركبوا في الفلك دعو الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**﴾[٢] فالتوحيدان متلازمان ولا يجوز الفصل بينهما، ولكنهم لا يعقلون.

٢ ــ أنهم كانوا يستعينون بغير الله عز وجل في حوائجهم، من شفاء المريض، وإغناء الفقير، ويقدمون القرابين ويفعلون النذور، لأنهم يتوقعون إنجاح مقاصدهم بذلك، ويتلون أسماءهم رجاء بركتهم، فأوجب الله عليهم أن يقولوا (إياك نعبد وإياك نستعين) في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة، ونهاهم عن دعوة غيره فقال: ﴿**فلا تدعوا مع الله أحدا**﴾[٣] والمراد هنا عموم العبادة، ومنها الدعاء، ومن الدعاء الاستعانة لقوله تعالى: ﴿**بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون**﴾[٤].

٣ ــ ومنها أنهم كانوا يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عز وجل، وذلك بأنهم كان يعتقدون أن الحلال ماأحله الرهبان، وأن الحرام ما حرموا، فما أباحوه لهم أخذوه، وماحرموه عليهم إمتنعوا عنه ويتجلى هذا حين نزل قوله تعالى: ﴿**إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾[٥] فسأل عدي بن حاتم رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: (كانوا يحلون أشياء فيستحلونها، ويحرمون عليهم أشياء فيحرمونها)[٦]. والحكم بحلية الشيء أوبتحريمه لا يؤخذ إلا عن الله عزوجل قال تعالى: ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون**﴾[٧] فتحديد الأشياء التى يؤاخذ عليها العباد والتي لا يؤاخذون عليها

---

(١) الآيات من سورة النمل.

(٢) الآية (٦٥) من سورة العنكبوت.

(٣) جزء من الآية (١٨) من سورة الجن.

(٤) الآية (٤١) من سورة الأنعام.

(٥) الآية (٣١) من التوبة .

(٦) انظر كلام ابن كثير وما دون عن هذا ٣٤٨/٢.

(٧) الآية (١١٦) من النحل .

أمر خاص برب العباد، فتكوين أسباب المؤاخذة من عدمها له وحده، ورسم الحدود وتشريع الأوامر والنواهي في كل شأن من صفاته تعالى، قال عز وجل: **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾**(١). أما نسبة التحليل والتحريم إلى النبي ﷺ فبمعنى أن قوله ﷺ أمارة قطيعة تدل على تحليل الله وتحريمه، إذ هو المبلغ عن الله عز وجل قال تعالى: **﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾**(٢) وهو الصادق الأمين ﷺ قال تعالى: **﴿وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحي يوحى﴾**(٣) ونسبة التحليل والتحريم إلى العلماء المجتهدين من أمته ﷺ تكون بمعنى روايتهم ذلك عن الشرع، وأخذ الحكم من نص الشارع الحكيم، أو استنباطه من كلامه ﷺ. ومما يجب التنبيه إليه أن الله عز وجل إذا بعث رسولاً، وأيد صدقه بالمعجزات والآيات البينات، وأحل على لسانه بعض ما كان محرماً عند قوم. وحصل من بعض الناس تردد وإحجام عن قبول ما أحلّ، وأصبحت نفسه تميل إلى التحريم، لما كان عليه من الحرمة فلا يخلو هذا المتردد من أحد أمرين:

الأول: أن يكون ما حصل منه تردداً في ثبوت هذه الشريعة فهو كافر بالنبى ﷺ قال تعالى: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾**(٤).

الثاني: أن يكون صدور ذلك منه لاعتقاد وقوع التحريم الأول تحريماً لا يحتمل النسخ، لأنه يعتقد أن الذي حرم ذلك، قد خلع الله عليه خلعة الألوهية، أو صار فانيا فى الله عز وجل، أو غير ذلك من الاعتقادات الباطلة، فذلك مشرك بالله عز وجل. إذ أشرك مع الله غيره في هذا الأمر، وأثبت للغير غضباً ورضاً مقدسين، وتحليلاً وتحريماً مقدسين. وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٤ ــ أنهم كانوا يتقربون إلى الأصنام والنجوم، إما بإهلال بأسمائهم عند الذبح، وإما بالذبح على الأنصاب المخصوصة لهم، فحرم الله عز وجل ذلك قال تعالى: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما**

---

(١) الآية (٥٩) من يونس.
(٢) الآية (٧) من سورة الحشر.
(٣) الآيتان (٣، ٤) من سورة النجم.
(٤) الآية (٦٥) النساء.

أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾ [١] الآية وقال ﷺ: (لعن الله من ذبح لغير الله)[٢].

٥ ــ إنهم كانوا يسمُون السوائب[٣] والبحائر[٤] تقرباً إلى شركائهم فحرم الله عز وجل ذلك فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾[٥] الآية.

٦ ــ وكانوا يعتقدون في أناس أن أسماءهم مباركة ومعظمة، ويعتقدون أن الحلف بأسمائهم على الكذب يستوجب نقصاً في المال والأهل، فلا يقدمون على ذلك، ولذلك كانوا يستحلفون الخصوم بأسماء الشركاء بزعمهم، فحرم رسول الله ﷺ ذلك، أخرج الإمام النسائي رحمه الله بسنده من طريق مصعب بن سعد قال: (كنا نذكر بعض الأمر وأنا حديث عهد بالجاهلية فحلفت باللاتى والعزى، فقال لي أصحاب رسول الله ﷺ: بئس ما قلت، إئت رسول الله ﷺ فأخبره فإنا لا نراك إلا قد كفرت، فأتيته فأخبرته فقال لي: قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات، وتعوذ بالله من الشيطان ثلاث مرات، وأتفل عن يسارك ثلاث مرات، ولاتعد له)[٦] لما تعاطى الصحابي في قسمه صورة تعظيم الصنم حيث حلف به، أنكر عليه الأصحاب رضى الله عنهم ولما كان ذلك القول يتعلق بالإيمان ظنوه كفراً، ولاريب أنه رضي الله عنه لم يقصد التعظيم للصنم غير أن قوله ذلك يتعلق بالاعتقاد فكان الإصلاح من النوع الذي يتعلق بالاعتقاد أيضاً، فوجهه المصطفى ﷺ إلى قول لا إله إلا الله، فإنها إصلاح لما قد يخدش الإيمان، مما يجري على اللسان من غير قصد، كقول هذا الصحابي رضي الله عنه، وينقل الحافظ عن العلماء أنهم قالوا: يستحب أن يقول لا إله إلا الله[٧]. وفي نظري أن ما وجه إليه الرسول ﷺ من باب الوجوب لا الاستحباب إذ لا صارف يصرفه عن ذلك، فقول لا إله إلا الله هنا يقوم مقام الكفارة إلا أنها تجدد الوحدانية وتصلح سبق اللسان الذي قد يخدش الاعتقاد، ولذلك قال ﷺ: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٨] وقلنا إن الصحابي رضي الله عنه ما قصد ذلك لكونه حديث عهد بجاهلية، لكنه شرك في اللفظ دون الاعتقاد، أما من تعمد ذلك فلا يُشك في كفره.

---

(١) الآية (٣) من المائدة.
(٢) صحيح مسلم ١٥٦٧/٣.
(٣) جمع سائبة وهي الناقة كانت تسيب إذا ولدت عشر إناث تركت انظر (الصحاح ٦٣٤/١).
(٤) جمع بحيرة وهى بنت السائبة تشق أذنها وتترك (الصحاح ٧٢/١).
(٥) الآية (٣١) من التوبة.
(٦) سنن النسائي ٧/٧، ٨.
(٧) فتح الباري ٥٣٦/١١.
(٨) سنن الترمذي ١١٠/٤.

٧ ـ ومن ذلك قصد مواضع مختصة بشركائهم للتبرك بها، ويكون الحلول بها تقرباً منهم فحرم النبي ﷺ ذلك. قال ﷺ: (لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) فشد الرحال بقصد العبادة إلى غير هذه المساجد الثلاثة خروج عن الشرع، وإحياء لأمور الجاهلية التي حرمها الإسلام، وما يفعله كثير من المسلمين اليوم عند قبور الأولياء أمر منكر، ومصادم لما شرع رسول الله ﷺ.

٨ ـ كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى وعبد شمس وغير ذلك من الأسماء المشعرة بالعبودية لغير الله عز وجل فأنكر الله عز وجل ذلك وقال تعالى: ﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون**﴾[١] ولا يظن بآدم وحواء أنهما أشركا بالله عز وجل، لعصمة آدم عليه السلام ولاسيما بعد قصته مع إبليس لعنه الله، والأثر الوارد من طريق الحسن، عن سمرة بن جندب في ذلك، رده الحافظ ابن كثير رحمه من وجوه:

الأول: أنه من رواية عمر بن إبراهيم البصري[٢] وثقة ابن معين[٣] وقال فيه أبو حاتم الرازي: لا يحتج به[٤].

الثاني: أنه ورد من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً. أخرجه ابن جرير في تفسيره[٥].

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه[٦].

قال ابن جرير رحمه الله: حدثنا ابن وكيع[٧] قال: حدثنا سهل بن يوسف[٨]، عن عمرو[٩]، عن الحسن[١٠] (جعلا له شركاء فيما آتاهما)[١١] قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

---

(١) الآيتان (١٨٩، ١٩٠) من الأعراف.
(٢) انظر ترجمته (الجرح ٦/٩٨).
(٣) انظر (رواية الدارمي ص٥٠ رقم ٤١).
(٤) انظر (الجرح ٦/٩٨).
(٥) الطبري ٩/٩٩.
(٦) ابن كثير ٢/٢٧٤.
(٧) سفيان، أسقط حديثه، وتقدم الكلام فيه.
(٨) الأنماطي، ثقة، رمي بالقدر، مات سنة تسعين ومائة.
(٩) ابن عبيد بن باب، التميمي، معتزلي، كان داعية، مات سنة ثلاث وأربعين ومائة.
(١٠) ابن أبي الحسن، البصري، ثقة، معروف، مات سنة عشر ومائة.
(١١) انظر الآية (١٩٠) من الأعراف.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى[1] قال: حدثنا محمد بن ثور[2]، عن معمر[3] قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم من أشرك منهم بعده.

حدثنا بشر بن معاذ[4] قال: حدثنا يزيد[5] قال: حدثنا سعيد[6]، عن قتادة[7] قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا[8].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه، أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث[9] عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولاسيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي[10]، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل كعب[11]، أو وهب بن منبه[12] وغيرهما[13].

وقد علم مما سبق أن الأثر المروي في تفسير الآية لايصح الاحتجاج به[14] وقد ذكره صاحب تيسير العزيز الحميد[15] تفسيراً للآية فلا يصار إليه والحق في ذلك ما ثبت عن الحسن نفسه كما تقدم بيانه. والآية تدل على تحريم اتخاذ الشركاء. ولم يسلم من هذا بعض المسلمين اليوم. فما أكثر من سمى عبد الولي وعبد الرسول وغير ذلك. وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في أكثر من حديث أنه غير بعض أسماء أصحابه التي تشعر بالعبودية لغير الله عز وجل أو فيها قبح، وفيما تقدم ذكر صور وأشكال للشرك حرمها الشرع فيجب على المسلم أن يحذرها وأن يحذر منها وعند تدقيق النظر فيما سلف يتبين أن المشركين طوائف كثيرة وكثيرة

---

(١) الصنعاني، ثقة، مات سنة خمس وأربعين ومائتين.

(٢) الصنعاني، ثقة، مات سنة تسعين ومائة تقريبا.

(٣) ابن راشد، ثقة، ثبت، مات سنة أربع وخمسين ومائة.

(٤) أبو سهل، العقدي، صدوق، مات سنة بضع وأربعين ومائتين.

(٥) ابن زريع، البصري، ثقة، ثبت، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة.

(٦) ابن أبي عروبة، ثقة، حافظ، له تصانيف، من أثبت الناس في قتادة.

(٧) ابن دعامة، رأس الطبقة الرابعة، ثقة، ثبت، مات سنة بضع عشرة ومائة.

(٨) الطبري ٩/١٠٠ ـ ١٠١.

(٩) ما ذكر في تفسير الآية. أنه كان لا يعيش لآدم وامرأته ولد... الخ.

(١٠) سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(١١، ١٢) كعب الأحبار تقدم وهو والذي بعده كانوا من علماء اليهود فأسلموا.

(١٣) ابن كثير ٢/٢٧٥.

(١٤) للراغب في زيادة الإطلاع ينظر (تحفة الأحوذي ٨/ ٤٦٠ - ٤٦٦، ابن كثير ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(١٥) انظر ص٦٢٨ وما بعدها. وقد أخرج الأثر الترمذي وقال: حسن غريب. (الجامع ٥/٢٦٧).

جداً، تعددت بتعدد الأسباب والوسائل المؤدية إلى ذلك وقد ذكر الفخر الرازي رحمه الله أربع طوائف منهم:

١ ـ طائفة يجعلون الأصنام شركاء لله عز وجل، وإليهم الإشارة بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين**﴾[1].

٢ ـ طائفة يعبدون الكواكب وهم الذين حكى الله عنهم أن إبراهيم عليه السلام أبطل قولهم بقوله: (لا أحب الآفلين)[2].

٣ ـ طائفة حكى الله عنهم أنهم جعلوا لله شركاء الجن قال تعالى: ﴿**وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم**﴾[3].

٤ ـ طائفة جعلوا لله عز وجل بنين وبنات. وأقام عز وجل الدليل على فساد أقوال هؤلاء[4]. وإذا نظرنا إلى الشرك بالنسبة إلى أقسام التوحيد نجد أن الشرك ينقسم إلى ثلاثة أقسام، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقاً، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ماهو أصغر منه، وقد يكون أصغر بالنسبة إلى ماهو أكبر منه. وبيان ذلك فيما يلي:

القسم الأول الشرك في الربوبية وهو نوعان:

١ ـ شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك. وهو إنكار لوجود الله عز وجل، وممن يمارس هذا الذنب العظيم الدهريون، والطبائعيون، وإمامهم فيه فرعون هو سابقهم إلى هذا الالحاد إذ قال: ﴿**وما رب العالمين**﴾[5]. ومن هذا النوع شرك الفلاسفة، القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولايزال، والمخلوقات عندهم جميعا ترجع إلى أسباب ووسائط، إقتضت إيجادها، يسمونها العقول والنفوس[6]، ومنه أيضاً شرك طائفة وحدة الوجود، مثل ابن عربي[7]، وابن سبعين[8]. والعفيف

---

(١) الآية (٧٤) من الأنعام.

(٢) الآية (٧٦) من الأنعام.

(٣) الآية (١٠٠) من الأنعام.

(٤) الرازي ١٣/٢٢٢.

(٥) انظر الآية (٢٣) من الشعراء.

(٦) هذا مبني على مذهب الفلاسفة ان العقول والنفوس العلكية عالمة بجميع الأشياء (الذخيرة ص٢٠٧).

(٧) محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الطائي، الحاتمي، لقبه محي الدين، وكنيته أبوبكر، وشهرته إبن عربي، ويقال له الشيخ الأكبر، ولد في السابع عشر من رمضان سنة ستين وخمسمائة، (٥٦٠هـ) من غلاة الصوفية، وأحد القائلين بوحدة الوجود. انظر (النفاق والزندقة ص١١١).

(٨) عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين، ولد في سنة أربع عشرة وستمائة (٦١٤هـ) عرف السيمياء ولبس بها =

النعمان[1]، وابن الفارض[2]، وغيرهم من أهل الزيغ والإلحاد، الذين ألبسوه حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج سوقهم ونفقت بضاعتهم، واغتر بها جهلاؤهم وعوامهم، ومن ذلك أيضاً شرك من عطل أسماء الرب عز وجل، وهم غلاة الجهمية[3]، والقرامطة[4].

٢ ـ شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته، ومنه شرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة قال الله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم**﴾[5] ومنه شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومنه أيضاً شرك الذين يرون أن للكواكب والنجوم تدبيراً لأمر الكون أو زيادة الرزق أو نقصانه، والنجوم خلق من خلق الله لا يجوز أن يعتقد أحد أنها تنفع وتضر من دون الله، ولذلك أقسم الله بها لصرف الأنظار إلى تدبر عظمة خالقها عز وجل وتدبيره أمرها. قال تعالى: ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم**﴾[6] وقال تعالى: ﴿**والنجم والشجر يسجدان**﴾[7] فأخبر عز وجل بسجود جنس النجم له عز وجل، ولم تخلق النجوم لتُعبد وإنما خلقت لأمور ثلاثة:

الأول: زينة للسماء قال تعالى: ﴿**إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب**﴾[8] وقال عز

= على الأغبياء، صنف في الإلحاد، وله فيه وفي الزندقة كلام كثير، ومن سيء قوله، لقد كذب ابن أبي كبشة على نفسه حيث قال: لانبي بعدي - يعني رسول الله ﷺ - وقوله: لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقول: لانبي بعدي. انظر (النفاق والزنادقة ص١٢٠).

(١) أبو الربيع، سليمان بن على بن عبد الله بن على العابدي، الكوفي ثم التلمساني، أحد زنادقة الصوفية، ومن عظماء القائلين بالوحدة المطلقة، ومن سيء قوله: القرآن ليس فيه توحيد، بل كله شرك، ومن اتبع القرآن لم يصل إلى التوحيد، وكان يقول: نكاح الأم والبنت، والأجنبية واحد - بمعنى أنه لا فرق بين ذات المحرم وغيرها - وإنما هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام علينا. فقلنا: حرام عليكم. انظر (النفاق والزندقة ص١٣٢).

(٢) عمر بن علي، ولد سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦هـ) أحد القائلين بوحدة الوجود. قال عنه الذهبي رحمه الله: ينعق بالإلحاد الصريح. له إفتراءات وضلال ينوء بحملها، ويبوء بإثمها. انظر (النفاق والزندقة ص١٢٣).

(٣) أتباع الضال المبتدع أبي محرز جهم بن صفوان الراسبي، زرع شراً عظيماً، وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو، في آخر ملك بني أمية، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء. انظر (الفرق بين الفرق ص٢١١، والملل والنحل ١/١٠٩).

(٤) فرقة من غلاة الشيعة يستحلون أموال المسلمين ودماءهم وهم أتباع أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وظهرت هذه الفرقة في جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين ومائتين وتوالى شرها على المسلمين. انظر (البداية والنهاية ١١/٨١) ومابعدها.

(٥) الآية (٧٣) من المائدة.

(٦) الآية (٧٥) من الواقعة.

(٧) الآية (٦) من الرحمن.

(٨) الآية (٦) من الصافات.

وجل: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾[1] وقال عز وجل: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾[3].

الثاني: رجوماً للشياطين. قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾[4] وقال تعالى: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾[5] وقال تعالى: ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا﴾[6].

الثالث: علامات يُهتدى بها. قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾[7] الآية وقال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[8] وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه تعليقاً قال: وقال قتادة: . . . خلق هذه النجوم لثلاث، جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به[9]. فعجباً لمن يعتقد في النجوم أوينسب إليها شيئا من أسباب الخير، أو دوافع الشر، بعد هذا البيان المنزل في أشرف الكتب على أصدق الخلق وأكرم الرسل ﷺ، ومن هذا القسم أيضاً شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف في قضاء الحاجات بعد الموت، فيفرجون الكربات، ويجلبون الخير ويدفعون الشر، وينصرون من دعاهم ويحفظون من اعتصم بهم ولجأ إليهم وهؤلاء أشركوا في الفعل مع الله غيره، ولاريب أن هذه من خصائص الربوبية، وكم من هالك في هذا الباب من المسلمين اليوم إذا لم تدركهم هداية الله، ويتحصنوا بالتوبة الصادقة ويلجأوا إلى كتاب الله وسنة رسوله لاستقاء عقيدتهم وتنقية ماعلق بصدورهم.

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات وهو نوعان:

١ ـ تشبيه صفات الخالق بالمخلوق، كأن يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهذا يسمى شرك الشبه، وهذا النوع ينافي قول الله عز وجل

---

(١) الآية (١٢) من فصلت.
(٢) الآية (٥) من الملك.
(٣) الآية (١٦) من الحجر.
(٤) الآية (٥) من الملك.
(٥) الآية (٣٥) من الرحمن.
(٦) جزء من الآية (٩) من الجن.
(٧) الآية (٩٧) من الأنعام.
(٨) الآية (١٦) من النحل.
(٩) (الصحيح مع الفتح ٦/٢٩٥).

﴿**فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[2].

٢ ـ اشتقاق أسماء الآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق، كاشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز، وهذا ما نهى الله عنه في قوله عز وجل ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون**﴾[3]. وممن فسر الإلحاد في أسماء الله بالاشتقاق ابن عباس رضي الله عنه. وقال به قتادة رحمه الله[4].

القسم الثالث: الشرك في توحيد الألوهية والعبادة:

هذا القسم هو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية وهو نوعان:

١ ـ أن يجعل العبد لله نداً يدعوه كما يدعو الله عز وجل، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله تعالى، ويرجوه كما يرجو الله تعالى، ويحبه كما يحب الله تعالى، ويخشاه كما يخشى الله عز وجل، وجملة القول أنه جعل له إلهاً آخر يعبده كما يعبد الله، فهذا شرك أكبر وهو الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا**﴾[5]. وقال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾[6] وقال تعالى: ﴿**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾[7] الآية وقال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما**﴾[8] والآيات في هذا المقام كثيرة ولاريب أن الحجة قائمة على العباد ولو لم يحرم الله ذلك إلا بآية واحدة، فكيف وقد تعددت فيه أدلة التحريم كتاباً وسنة.

٢ ـ الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله عز وجل في العبادة، بل يعمل العبد لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، فله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب، والله عز وجل لايقبل من العمل إلا ماكان خالصاً، وذكر الإخلاص في كتابه أكثر من عشرين مرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه**

---

(١) الآية (٧٤) من النحل.
(٢) الآية (١١) من الشورى.
(٣) الآية (١٨٠) من الأعراف.
(٤) ابن كثير ٢/٢٦٩.
(٥) الآية (٣٦) من النساء.
(٦) الآية (٣٧) من النحل.
(٧) الآية (١٨) من يونس.
(٨) الآية (٤٨) من النساء.

مخلصين له الدين﴾[1] الآية وقوله تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[2] الآية.

ويتبع هذا النوع الشرك بالله عز وجل في الألفاظ كالحلف بغير الله عز وجل، وقول ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، وقد يفضى ذلك إلى الشرك الأكبر بحسب حال قائله ومقصده، والأحاديث الواردة في النهي عن الشرك وبيان أنه أعظم الذنوب كثيرة منها حديث الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق، قال: وإن زنى وإن سرق قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر)[3]. وفي بعض الروايات أن الذي قال ذلك لرسول الله ﷺ أبو ذر، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: (وإن رغم أنف أبي ذر) فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: (وإن رغم أنف أبي ذر)[4] وأخرج الإمام البخاري بسنده من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (من مات وهو يدعو لله نداً دخل النار)[5] وأخرج الإمام مسلم رحمه الله من حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من لقى الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار)[6]. قال عبد الله بن الإمام أحمد[7]: حدثنى أبى[8]، ثنا عفان[9]، ثنا همام[10]، ثنا عامر الأحول[11]، عن شهر بن حوشب[12] عن عمرو بن معد يكرب[13] عن أبى ذر، عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه

---

(١) الآية (٢٩) من الأعراف.

(٢) الآية (٥) من البينة.

(٣) انظر (صحيح مسلم ١/ ٩٤).

(٤) انظر (صحيح البخاري مع الفتح ١١/ ٣٦٠-٣٦١) وقد اختصره في أكثر من موضع.

(٥) انظر (المصدر السابق ٨/١٧٦).

(٦) صحيح مسلم ١/ ٩٤.

(٧) أبو عبد الرحمن، ثقة، مات سنة تسعين ومائتين.

(٨) رابع الأئمة، أحمد بن حنبل، ثقة، فقيه حجة، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين.

(٩) ابن مسلم، الباهلي، ثقة، كان إذا شك في حرف من الحديث تركه.

(١٠) ابن يحي، العوذي، ثقة ربما وهم، مات سنة خمس وستين ومائة، أو قبلها.

(١١) صدوق يخطيء، روى عن الصحابى عائذ بن عمرو المزني، ولم يدركه.

(١٢) صدوق كثير الإرسال والأوهام - لم يدرك عمرو بن معدي كرب - مات سنة إثنتي عشرة ومائة، وعمرو في عهد عثمان.

(١٣) سقط إسم عمرو من المسند وتصحيحه من الدارمي ٢/ ٣٢٢، وهو الزبيدي، الفارس المشهور، قدم على رسول الله ﷺ في وفد زبيد، فأسلم. انظر ترجمته (في الإصابة مع الإستيعاب ٧/ ١٤٤).

قال: (ياابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني، فإني سأغفر لك ماكان فيك، ولو لقيتني بقراب[1] الأرض خطايا للقيتك بقرابها مغفرة ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان[2] السماء ما لم تشرك بي شيئاً، ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي)[3].

ويؤيد هذا من كتاب الله عزوجل قوله تعالى: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم**﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿**والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون**﴾[5]. وقوله عزوجل: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء**﴾[6] الآية. وفيما تقدم بيانه حول هذه الوصية كفاية وغنية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الأحكام

١ ـ إن المتأمل للأمر الموجه من المولى عزوجل إلى عبده ورسوله محمد ﷺ يتضح له أن الله عزوجل كلف رسوله ﷺ بدعوة العباد إلى مافيه صلاحهم وفلاحهم ومن ذلك سماعهم لأحكام الله عزوجل وتنفيذها في عباداتهم ومعاملاتهم وفق ما شرع الله. وهذا الذي كلف به رسوله ﷺ يكلف به المصلحون من أمته ومن سار على نهجه فيجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس شريعة الله عزوجل، وأن يبينوا لهم ما حرم الله عليهم وما أحل لهم. قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾[7] وقال تعالى: ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين**﴾[8].

٢ ـ أن الشرك حرام وأنه أعظم الذنوب عند الله عزوجل وقد تقدم البيان.

٣ ـ أن التوحيد لا يتحقق إلا بنفي ضده وهو الشرك.

---

(١) مصدر قارب، أي بما يقارب ملأها. (النهاية ٤/٣٤).

(٢) بالفتح: هو السحاب، الواحدة عنانة (النهاية ٣/٣١٣).

(٣) المسند ٥/١٧٢ وأخرجه الدارمي بسنده من طريق شهر به (الدارمي ٢/٣٢٢). وهو منقطع بين شهر وعمرو لكنه يتأيد بما أسلفنا من الآيات من كتاب الله العزيز ولا مطلب للصحة بعده.

(٤) الآية (٥٣) من الزمر.

(٥) الآية (١٣٥) من آل عمران.

(٦) الآية (٤٨) من النساء.

(٧) الآية (٢١) من الأحزاب.

(٨) الآية (١٠٨) من يوسف.

ومما تجب الإشارة إليه هنا أنني استفدت التقسيمات التي مرت من كتاب تيسير العزيز الحميد[1] وحرصت على تدوينها منه لما فيها من فائدة عظيمة وبيان في غاية الوضوح فجزى الله مؤلفه العفو والمغفرة والرحمة الواسعة.

الوصيـــة الثانيـــة

قوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا﴾[2].

المناسبـــــــة:

لعل المتأمل في الآيات الكريمة يظهر له أن أعظم الحقوق على الإنسان حق الله عز وجل، ويتمثل في عبادته وحده لا شريك له، وتنفيذ شرعه المبلغ على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وهذا لاشك أنه أمر جلي وواضح، فأعظم النعم نعمة العبودية لله وحده لا شريك له، والله عز وجل هو المؤثر الحقيقي في وجود هذا الإنسان واصطفائه وتكريمه على سائر المخلوقات. ويتلو حق الله ونعمته في العظمة حق الوالدين فقد جعلها الله سبباً لوجود الولد، وإذا كان الله عز وجل أنعم على العبد ورباه بجميع نعمه فقد سخر الوالدين لخدمته وتربيته ورعايته، ولهما من فضل الشفقة والحفظ من الضياع والهلاك في وقت الصغر مالا يقدر قدره إلا الله عز وجل لذلك ثنى الله عز وجل بهذا التكليف تكريماً للوالدين، وتنويهاً بأن حقهما أعظم الحقوق بعد حق الله عز وجل[3]، ولذلك قرن شكره تعالى بشكرهما قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾[4].

البحث اللغـــــوي:

أ ـ في النحو: قوله: (إحسانا) نصب على المصدرية، وناصبه فعل مضمر من لفظه تقديره: وأحسنوا إحسانا.

ب ـ في المفردات: إحساناً: من أحسن وهو أعم أعمال الخير، قال الراغب رحمه الله: الإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ماعليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له.

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص٤٣-٤٥.

(٢) الآية (٨٣) من البقرة.

(٣) أستفيد هذا التوجيه من الفخر الرازي رحمه الله ١٣/ ٢٣٢.

(٤) الآية (١٤) من لقمان.

الإيضـــــاح

قال تعـالى : ﴿وبـالـوالـدين إحسانا﴾ المعنى أن مما وصىّ الله به عباده الإحسان إلى الوالدين إحساناً تاماً، لا يدخرون فيه وسعاً، والأمر بالإحسان إلى الوالدين جاء في أكثر من آيـة منها قولـه تعـالى : ﴿**وإذ أخـذنـا ميثـاق بني إسـرائيـل لا تعبـدون إلا الله وبـالوالدين إحسـانـا**﴾[1] الآيـة وقال تعالى : ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا**﴾[2] الآيـة وقـال تعـالى : ﴿**وقضى ربـك ألا تعبـدوا إلا إيـاه وبالوالدين إحسانا**﴾[3] الآية وقال تعالى : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا**﴾[4] الآية . ولاريب أن هذا التوكيد المستمر يدل على أن الإحسـان إلى الـوالـدين من أوجب الـواجبـات في الشـريعة الإسلامية وهل جزاء الإحســان الإحسـان، وهـو يستلزم ترك الإسـاءة وإن قلت وتضـاءلت، فيكـون النهي عن العقـوق لازمـاً بالأولى، فإنـه من المحـرم ومن أكـبر الكبائر عند الله عز وجل قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبر بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الـوالـدين)[5]. لذا أكـد الكتـاب والسنـة على الإحسـان إلى الـوالدين. قال العلماء: إن (أحسن) يتعدى (بالباء، وبإلى) فيقال: أحسن به، وأحسن إليه، والأول أبلغ ولذلك قال تعـالى: ﴿**وبـالـوالدين إحسانا**﴾ ولم يقل وأحسن إلى الوالدين، فالإحسان بالوالدين وذي القربى أليق، لأن من أحسنت به هو من يتصل به برك وحسن معاملتك ويلتصق به مباشرة على مقربة منك وعدم إنفصال عنك.

أمـا من أحسنت إليـه، فهـو الذي تسدي إليه برك، ولو على بعد أو بالواسطة، إذ هو شيء يساق إليه سوقاً، وقالوا: إن هذه التعدية لم ترد إلا في تعبيرين في مقامين:

١ ـ التعبـير بالفعـل حكـايـة عن يوسف عليه السلام وهو قوله لأبيه وإخوته : ﴿**هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو**﴾[6].

٢ ـ التعبـير بالمصـدر المفيد للتوكيد والمبالغة في مقام الإحسان بالوالدين جاء ذلك في

---

(١) الآية (٨٣) من البقرة.

(٢) الآية (٣٦) من النساء.

(٣) الآية (٢٣) من الاسراء.

(٤) الآية (١٥) من الأحقاف.

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ١١/٦٦.

(٦) الآية (١٠٠) من يوسف.

أربع سور البقرة والنساء وقد عطف فيهما ذوى القربى على الوالدين بالتبع قال تعالى : ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى**﴾[1] الآية وفي النساء قوله تعالى : ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى**﴾[2] الآية . وفي الأنعام التي نحن بصدد الكلام عنها ، وفي الأحقاف[3] هذا لبيان اهتمام الكتاب العزيز بشأن الوالدين وإلا لو لم يرد فيه إلا قوله تعالى ﴿**وبالوالدين إحسانا**﴾ دون توكيد لكفى في الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة والتعدية ، فكيف وقد قرنه بعبادته ، وجعله ثانيهما في الوصايا ، وأكده في سورة الإسراء[4] ، كما قرن شكرهما بشكره في سورة لقمان[5] والأمر بالإحسان إلى الوالدين عام يشمل الأبوين المسلمين ، والكافرين إلا إن أمرا بمعصية فلا طاعة لهما قال تعالى : ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما**﴾[6] الآية . وقال تعالى : ﴿**وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا**﴾[7] الآية . فالآيتان ظاهرتان في عدم طاعة الوالدين في معصية الله وهما آمرتان ببر الوالدين ولو كانا كافرين ، يوضح هذا سبب نزول الآيات قال الواحدي[8] رحمه الله تعالى : قال المفسرون : نزلت في سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، وذاك أنه لما أسلم قالت له أمه حمنة : (ياسعد بلغن أنك صبوت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح[9] والريح ، ولا آكل ولا أشرب ، حتى تكفر بمحمد ، وترجع إلى ماكنت عليه) . وكان أحب ولدها إليها ، فأبى سعد رضى الله عنه ، وصبرت هى ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ، ولم تستظل بظل ، حتى خشي عليها ، فأتى سعد النبي ﷺ وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي في لقمان والأحقاف[10] ، وساق الواحدي رحمه الله القصة بسنده[11] من طريق أبي

---

(١) الآية (٨٣) من البقرة.
(٢) الآية (٣٦) من النساء.
(٣) الآية (١٥) .
(٤) الآية (٢٣).
(٥) الآية (١٤).
(٦) الآية (٨) من العنكبوت.
(٧) الآية (١٥) من لقمان.
(٨) أبو الحسن على بن أحمد الواحدي.
(٩) الشمس.
(١٠) الآية (١٥) .
(١١) أسباب النزول ص٣٥٦.

يعلى[1] قال حدثنا أبو خيثمة. وهو زهير بن حرب شيخ الإمام مسلم الذي أخرج القصة أيضا عنه بسنده عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فيّ... القصة[2]. وجاء في رواية أن سعدا رضي الله عنه قال لأمه: لا تفعلى يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، قال فمكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد اشتد جهدها، قال فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين والله يا أمه، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً، ماتركت ديني هذا لشيء، إن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت[3].

هذه القصة الثابتة في سبب نزول الآية تؤكد أن طاعة الوالدين الكافرين واجبة في المعروف قال الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر سبب النزول: اقتضت الآية الوصية بالوالدين، والأمر بطاعتهما، ولو كانا كافرين، إلا إذا أمرا بالشرك - أو بمعصية - فتجب معصيتهما في ذلك، ففي الآية بيان ما أجمل في غيرها[4]، وقد جاء في كتاب الله عز وجل ما قد يفهم منه معارضة لقوله تعالى: ﴿**وصاحبهما في الدنيا معروفا**﴾ لاسيما إذا كان الوالدان كافرين، وذلك قوله تعالى: ﴿**لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم**﴾[5] الآية فالنص على الآباء في الآية مشعر بوجوب عدم الموادة للأبوين الكافرين، قال الشيخ محمد الأمين رحمه الله جواباً عن هذا الأمر: الذي يظهر لى والله تعالى أعلم: أنه لامعارضة بين الآيتين، ووجه الجمع بينهما أن المصاحبة بالمعروف أعم من الموادة، لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده، والنهي عن الأخص لا يستلزم النهي عن الأعم، فكأن الله حذر من الوادة المشعرة بالمحبة والموالاة بالباطن لجميع الكفار، يدخل في ذلك الآباء وغيرهم، وأمر الإنسان بأن لا يفعل لوالديه إلا المعروف، وفعل المعروف لا يستلزم المودة، لأن المودة من أفعال القلوب، لا من أفعال الجوارح، ومما يدل لذلك إذنه ﷺ لأسماء أن تصل أمها وهي كافرة[6]، وقال بعض العلماء: إن قصتها سبب لنزول قوله تعالى: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين**﴾[7] الآية

---

(١) مسند أبي يعلى ٢/١١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣/١٣٦٧، ٤/١٨٧٧.

(٣) أسباب النزول ص٣٥٦، ٣٥٧ وانظر ابن كثير ٣/٤٤٥ والفتح ١٠/٤٠٠.

(٤) الفتح ١٠/٤٠١.

(٥) الآية (٢٢) من المجادلة.

(٦) أخرجه الإمام البخاري بسنده عن أسماء رضي الله عنها قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك» (الصحيح مع الفتح ٥/٢٣٣).

(٧) الآية (٨) من الممتحنة.

إنتهى كلامه رحمه الله[1]. وهو كلام جيد يزول به ماقد يعكر فهم البعض.. وأقول: من العلماء الذين أشار إليهم رحمه الله، الواحدي فإنه أخرج بسنده[2] من طريق أبي يعلى - أنه قال - حدثنا إبراهيم بن الحجاج[3]، حدثنا عبد الله بن المبارك[4]، عن مصعب بن ثابت[5]، عن عامر بن عبد الله بن الزبير[6]، عن أبيه[7] قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر[8] بهدايا، ضباب، وسمن، وأقط، فلم تقبل هداياها، ولم تدخلها منزلها، فسألت لها عائشة النبي ﷺ عن ذلك فقال: ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين**﴾ الآية. فأدخلتها منزلها، وقبلت هداياها[9]. وإذا كانت لكتاب الله عز وجل عناية بالوالدين فإن السنة المحمدية لم تغفل أمرهما، فقد كان نبي الرحمة ﷺ يؤكد على طاعة الوالدين وبرهما، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، فمن الأول ما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: (سألت النبي ﷺ، أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: بر الوالدين قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: حدثني بهن ولو استزدته لزادني)[10]. ويلاحظ أن رسول الله ﷺ قدّم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله الذي هو من أكبر الحقوق العامة على الإنسان لأن حق الوالدين حق خاص ولذلك قال ﷺ لرجل قال له: (أجاهد؟ قال: لك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد)[11].

ومن الثاني قوله ﷺ: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: يارسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه)[12]. وما ذكر في الحديث فرد من أفراد العقوق، وإن كان التسبب في لعن الوالدين من

---

(١) مجلة الجامعة الإسلامية العدد الثاني السنة الرابعة شوال ١٣٩١هـ ص١١-١٢ وله توجيه في كتابه دفع إيهام الاضطراب ص٢٩٢. وانظر كلام الحافظ (الفتح ٥/٢٣٣).

(٢) أسباب النزول ص٤٥٠.

(٣) أبو إسحاق البصري ثقة، يهم قليلاً، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين أو بعدها.

(٤) المروزي، ثقة ثبت فقيه، جمعت فيه خصال الخير، مات سنة إحدى وثمانين ومائة.

(٥) ابن أخي عامر شيخه، لين الحديث، وكان عابدا، مات سنة سبع وخمسين ومائة.

(٦) أبو الحارث المدني، ثقة عابد، مات سنة إحدى وعشرين ومائة.

(٧) عبد الله بن الزبير بن العوام، أول مولود في الإسلام بالمدينة، ولي الخلافة تسع سنين وقتل في ذي الحجة رضى الله عنه.

(٨) زوج الزبير بن العوام، وهي ذات النطاقين، من كبار الصحابة، عاشت مائة سنة.

(٩) مسند أبي يعلي. أخرجه الواحدي بسنده من طريق أبي يعلى (الواحدي ص٤٨٨) ولم أجده في مسند أبي يعلي. وذكره صاحب مجمع الزوائد ٧/١٢٦ ولم يعزه. وعزاه السيوطى في الدر المنثور لأبي يعلي.

(١٠) صحيح البخاري مع الفتح ١٠/٤٠٠.

(١١) أخرجه الإمام البخاري بسنده من حديث عبد الله بن عمرو. (الصحيح مع الفتح ١٠/٤٠٣).

(١٢) أخرجه الإمام البخاري بسنده من حديث عبد الله بن عمرو أيضا (المصدر نفسه).

الكبائر فالتصريح بلعنهما أشد. وقد فرقت السنة بين حق الأب والأم قال أبو هريرة رضي الله عنه: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، من أحق بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من: قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك)[1]. نقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال قوله: مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ماللأب من البر. قال: وكأن ذلك لصعوبة الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين**﴾[2] فسوى بينهما في الوصاية وخص الأم بالأمور الثلاثة.

قال القرطبي: المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر، وتقدم في ذلك على حق الأب عند المزاحمة[3].

وقال عياض: وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب، وقيل: يكون برهما سواء. ونقله بعضهم عن مالك. والصواب الأول[4].

قال الحافظ ابن حجر: إلى الثاني ذهب بعض الشافعية - أي أنهما في البر سواء - لكن نقل الحارث المحاسبى الإجماع على تفضيل الأم في البر[5]، وفيه نظر والمنقول عن مالك ليس صريحاً في ذلك، فقد ذكره ابن بطال قال: سئل مالك، طلبني أبي فمنعتني أمي؟ قال: أطع أباك ولا تعص أمك. قال ابن بطال: هذا يدل على أنه يرى برهما سواء كذا قال، وليست الدلالة على ذلك بواضحة[6]. هذا جزء مما ذكره الحافظ في هذا الموضوع ومن يرغب في الاستيعاب فعليه بمراجعة المصدر وليعلم أن السنة تزخر بالحث على بر الوالدين، ليس في حياتهما فحسب بل بعد موتهما، قال أبو أسيد الساعدي رضي الله عنه: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يارسول الله، هل بقى من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري بسنده من حديث أبي هريرة (الصحيح مع الفتح ١٠/٤٠١).

(٢) الآية (١٤) من لقمان.

(٣) نقل هذا عنه الحافظ في الفتح ١٠/٤٠١.

(٤) المصدر السابق.

(٥) أرى والله أعلم أنه يدل على عظم حق الأم في البر لا على التفضيل فالأصل برهما جميعا، ولما كانت الأم أحوج لضعف المرأة أكد برها.

(٦) الفتح ١٠/٤٠٢.

عهدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما)[1]. وكما أن الكتاب العزيز ربط شكر الوالدين بشكر الله عز وجل، كما تقدم بيانه، كذلك السنة النبوية ربطت رضى الوالدين برضى الله عز وجل، وسخطهما بسخطه عز وجل قال الترمذي رحمه الله: حدثنا أبو حفص عمر بن على[2]، حدثنا خالد بن الحارث[3]، حدثنا شعبة[4]، عن يعلي بن عطاء[5]، عن أبيه[6]، عن عبد الله بن عمرو[7]، عن النبي ﷺ قال: (رضى الرب من رضى الوالد، وسخط الرب فى سخط الوالد)[8]. وقد أكثرت السنة من التنويه بشأن الوالدين وعظم حقهما، وكان رسول الله ﷺ يؤكد ذلك في كل مناسبة. ولاشك أن من قصر في حق والديه لا يرجى منه خير للإسلام، ولا للمجتمع، ولا للأمة، جعلنا الله هداة مهتدين، ورزقنا بر الوالدين، والسير على نهج خير المرسلين.

الأحكام

يؤخذ مما تقدم:

١ ــ وجوب طاعة الوالدين، وبرهما، وصيانتهما.
٢ ــ تحريم عقوق الوالدين، والإساء إليهما.
٣ ــ أن حقهما أعظم الحقوق بعد حق الله عز وجل.
٤ ــ تحريم طاعتهما فيما حرم الله عز وجل.

الوصية الثالثة

قوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾**.

المناسبة:

لعل المناسبة واضحة من السياق وأن الله عز وجل لما قرر في كتابه العزيز واجب الابن

---

(١) أخرجه أبو داود (٥/٣٥٢) وفي سنده على بن عبيد مولى أبا أسيد مقبول. وأخرجه ابن ماجة عن شيخه على بن محمد بسند أبي داود (ابن ماجة ٢/١٢٠٨).
(٢) ابن مقدم، وصف بالتدليس الشديد، انظر إتحاف ذوي الرسوخ ص٤١، مات سنة تسعين ومائة.
(٣) أبو عثمان، الهجيمي، ثقة ثبت، مات سنة ست وثمانين ومائة.
(٤) ابن الحجاج، أمير المؤمنين في الحديث، مات في حدود أربعين ومائة.
(٥) العامري، ثقة، مات في سنة عشرين ومائة أو بعدها.
(٦) عطاء، العامرى، الطائفى مقبول.
(٧) ابن العاص رضي الله عنهما، أحد المكثرين، وأحد الفقهاء، مات بالطائف.
(٨) الجامع ٤/٣١٠ وقد وقع خطأ (شعبه بن يعلى) والصواب ما أثبتناه انظر (التحفة ٦/٢٥) وأخرجه الحاكم من طريق أخرى عن شعبة ٤/١٥١.

تجاه الوالدين أردف عز وجل بالوصية بالأبناء وبيان ما لهم من الحقوق كما أوضح ما عليهم من الواجبات، وهذا تحقيق للموازنة بين الحقوق والواجبات.

البحث اللغوي :

المفردات : الإملاق. فسرت هذه الكلمة بمعان عدة.

١ ــ أن المراد بالإملاق الفقر. قاله ابن عباس[١].

٢ ــ الإنفاق. وقد سألت إمرأة ابن عباس، أأنفق من مالي ما شئت؟ قال: نعم أملقي من مالك ماشئت[٢]. وذكر ابن عطية أن هذا ذكر عن علي رضي الله عنه[٣].

٣ ــ الإفساد[٤].

٤ ــ وقيل الجوع بلغة لخم. وقيل الإسراف. وفعل أملق يكون قاصراً ومتعدياً، يقال: أملق الرجل فهو مملق، إذا افتقر. فهذا اللازم. وأملق الدهر ما عنده. وهذا المتعدي[٥].

الإيضاح

قال تعالى : ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾ الآية. أوصى الرب عز وجل عباده بعدم الإقدام على قتل الأولاد، ذكوراً كانوا أم إناثاً، لأن لفظ الولد يشمل الذكر والأنثى على حد سواء، وقد كان قتل الأولاد من أعمال الجاهلية ولاسيما البنات فحرم الله ذلك لأى سبب كان قال تعالى : ﴿**وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت**﴾[٦] فالجاهليون كانوا يفعلون ذلك لأسباب عدة منها:

١ ــ الفقر الواقع والحالّ بالوالدين. فقوله تعالى : ﴿**ولاتقتلوا أولادكم من إملاق**﴾ يفيد هذا المعنى أي من أجل فقر حالّ بكم، ولذلك قدم رزق الوالدين على الأولاد، لأنهم تابعون لآبائهم في الرزق الحالّ[٧].

---

(١) انظر الفتوحات ٢/١٠٨، وفي الصحاح. الإملاق: الافتقار (٢/٥١٢) وانظر اللسان ١٠/٣٤٨.

(٢) اللسان ١٠/٣٤٨.

(٣) ابن عطية ٦/١٧٩.

(٤) اللسان ١٠/٣٤٨.

(٥) أنظر اللسان ١٠/٣٤٨، والفتوحات ٢/١٠٨

(٦) الأيتان (٨، ٩) من التكوير.

(٧) المعلومات مستفادة من (الروح ٨/٤٧، والمنار ٨/١٢٤)

٢ ـ الفقر المتوقع مستقبلاً يؤيد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم**﴾[١] وهنا قدم رزق الأولاد على الآباء لتعلق رزقهم بالمستقبل وكثيراً ما يكون الآباء عاجزين عن الكسب، يحتاجون إلى أن ينفق عليهم فقدم رزق الأولاد في مقام الخوف والخشية من عدم الكسب وقلة الرزق[٢].

٣ ـ الخوف من العار، وهذا خاص بالبنات. فقد كانوا يئدون البنات حماية للشرف، وبعداً عن السُّبة، لكنها وسيلة قاسية وظالمة، والغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة.

٤ ـ التدين، فقد ينحر الجاهلي ولده تقرباً إلى الآلهة. وقد يستدل له بأن عبد المطلب نذر حين لقي من قريش ما لقي لئن ولد له عشرة أولاد لينحرن أحدهم، لكن. ذكر ابن هشام أمرين يدفعان نهوض الاستدلال:

١ ـ إن ابن هشام رحمه الله قال: فيما زعموا والله أعلم. هذه إشارة إلى عدم ثبوت القصة من وجه يعتمد عليه.

٢ ـ إن النذر كان لله ولم يكن للآلهة كما ورد في القصة[٣]. وسواء ثبتت هذه الأسباب أو لم تثبت فقد حرم الله عز وجل قتل الأولاد، في كتابه العزيز، وأكدت السنة النبوية المطهرة ذلك التحريم، وحذرت من ذلك العمل الجاهلي أشد التحذير، وقد شرط الله عز وجل في بيعة النساء عدم قتل الأولاد قال تعالى: ﴿**يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن**﴾[٤] الآية ومما جاء في السنة الحديث المتفق عليه واللفظ للبخاري أن رسول الله ﷺ قال: (سألت أو سئل رسول الله ﷺ، أي الذنب عند الله أكبر؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك) الحديث[٥]. وفي آخره، قال: ونزلت هذه الآية: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**﴾[٦] تصديقاً لرسول الله ﷺ. وإن فيما ذكرنا غنية لطالب الحق المستفيد، وفيه عون بإذن الله للباحث المستزيد.

---

(١) الآية (٣١) من الإسراء.
(٢) المنار ٨/١٢٤.
(٣) ابن هشام ١/٩٨.
(٤) الآية (١٢) من الممتحنة.
(٥) الصحيح مع الفتح ٨/٤٩٢.
(٦) الآية (٦٨) من الفرقان.

من الأحكـــام

١ ــ الوصية تدل على تحريم قتل الأولاد.

٢ ــ يفهم منها وجوب الاعتماد على الله عز وجل في طلب الرزق.

٣ ــ قال القـرطبى رحمـه الله: وقـد يستـدل بهذا من يمنـع العـزل، لأن الـوأد يرفـع الموجـود، والنسـل، والعـزل: منع أصل النسل، فتشابها، إلا أن قتل النفس أعظم وزرا، وأقبـح فعـلاً، ولـذلـك قال بعض علمائنـا: إنـه يفهم من قولـه ﷺ: (ذلك الوأد الخفى)[1] الكـراهيـة لا التحـريم[2]. والعزل: هو أن يفرغ الرجل ماءه خارج الرحم[3]. وقد اختلف العلماء في حكم العزل[4].

١ ــ الأئمة الثلاثة، أبو حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله يقولون بجواز العزل عن الحرة بإذنهـا، ويعـزل عن الأمـة بغـير إذنهـا. واستـدلـوا على ذلـك بحديث أبي سعيد الخدري وحديث جابر رضى الله عنهما ومافى معناهما[5].

٢ ــ الإمام الشافعي رحمه الله ذهب إلى جواز العزل مطلقا، وبدون إذن.

٣ ــ ذهبْ ابن حزم إلى تحريم العزل مطلقاً مستدلاً بحديث جذامة بنت وهب عند مسلم[6].

والراجح الجمع بين هذه الأقوال. يحمل المنع على كراهة التنزيه، والجواز على عدم التحريم ولا يعني الجواز عدم وجود الكراهة[7].

الوصيـــة الرابعـــة

قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾.

---

(١) صحيح مسلم ٢/١٠٦٧.

(٢) القرطبي ٧/١٣٢.

(٣) انظر تعريفه عند النووي (في الشرح ٣/٦١٢) وانظر (الفتح ٩/٣٠٥).

(٤) انظر التفصيل (الفتح ٩/٣٠٥ـ٣١٠).

(٥) انظر (الصحيح مع الفتح ٩/٣٠٥).

(٦) صحيح مسلم ٢/١٠٦٧.

(٧) انظر (الفتح ٩/٣٠٥ـ٣١٠ وشرح النووي ٣/٦١٢) وقد كان عثمان رضي الله عنه يكرهه لما فيه من إقلال النسل. (المحلى ١٠/٧) وقد اختلف النقل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (المصدر السابق) وانظر (مصنف عبد الرزاق ٧/١٤٤، وسنن سعيد بن منصور ٣/٢/١٠٥، البيهقي ٧/٢٣١، والمغني ٧/٢٣، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/٢٢٠ـ٢٢٣، ونيل الأوطار ٦/٢١٠ـ٢٢٢).

المناسبـــة :

إن المتأمـل للوصـايا الثلاث الأول يجد فيها عناية وتأكيداً على الطهارة المعنوية، ففي الوصية الأولى أوصى الله عز وجل بطهارة القلب من عبادة غيره، ومن كل شائبة تعكر صفو العقيدة مهما قل شأنها، وفي الوصية الثانية أوصى بطهارة الجوارح من الإساءة إلى الوالدين، وأمر بكبح كل جارحة بالإحسان الزائد على العدل، وفي الوصية الثالثة أمر بطهارة الجوارح أيضـا من صفـة ذميمـة، مارسهـا الجـاهليون، فأكد الشرع على تحريمها، وأعلن قبحها، فالطهارة الأولى فيها حماية للفرد، والثانية والثالثة فيهما حماية للأسرة، وجاءت الوصية الرابعة شاملة لحمايـة الفـرد والأسـرة والمجتمـع، فالطهـارة المعنـويـة قاعدة يقوم عليها صلاح الفرد والأسرة والمجتمع ومرتكزها إفراد الله عز وجل بالعبادة.

البحث اللغـــوي :

أ ــ النحـــو: (ماظهر) منصوب على البدل من الفواحش.
(مابطن) عطف عليه.

ب ــ المفـردات: الفـواحش: جمع فاحشـة. وكـل شيء جاوز حده فهو فاحش[1]. والفحشـاء والفـاحشـة، ماعظم قبحـه من الأفعـال والأقوال[2]. والفاحشة، الزنا. وكل ما يشتد قبحه من الذنوب وكل ما نهى الله عز وجل عنه[3].

وقد جاء في معنى الفواحش في هذه الآية خمسة أقوال:

١ ــ أن ما ظهر: هو نكاح المحرمات والخمر، وما بطن الزنا. قاله سعيد بن جبير ومجاهد.

٢ ــ وقال الضحاك: ما ظهر الخمر، وما بطن، الزنا.

٣ ــ وقـال ابن عبـاس والحسن والسـدي: إن الفـواحش الزنا، وما ظهر منه الإعلان به، وما بطن، الاستسرار به.

٤ ــ قال قتادة: إنه عام في الفواحش، وظاهرها علانيتها، وباطنها، سرها[4].

٥ ــ ذكر الماوردي في تفسير هذه الآية أن ما ظهر، أفعال الجوارح، وما بطن، اعتقاد

---

(١) الصحاح ٢/٢٢٥، وانظر اللسان ٦/٣٢٥.
(٢) الراغب ص ٣٧٤.
(٣) ترتيب القاموس ٣/٤٢٥.
(٤) الزاد ٣/١٤٨.

القلوب[1]. والأولى حمل الآية على العموم في هذا، وأنها كقوله تعالى: ﴿**قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون**﴾[2]. ولا فرق بين الآثام الظاهرة والباطنة لذلك قال تعالى: ﴿**إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون**﴾[3]. أي سواء كان ظاهراً أو باطناً، فالجزاء واقع لا محالة، ما لم تقع التوبة، أو يحظ العبد بعفو ربه وكرمه[4]. اللهم ارحمنا ووفقنا لصالح الأعمال، وقنا سيئها، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته.

الإيضاح

قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الفواحش**﴾.

إن المتأمل لهذا النهي يجد أنه وقع بين نهيين:

النهي الأول: قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم**﴾. والنهي الثاني: قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق**﴾ وهو نهي عن القتل مطلقاً. وقد حاول بعض المفسرين أن يجد علة لذلك، لأننا إذا اعتبرنا المراد بالفواحش، الزنا، فإنها بهذا المعنى جناية عظيمة وهي جناية على النسل، وقتل جميع الحقوق المترتبة عليه، فكأن ذلك في حكم قتل الأولاد، وأولاد الزنا في حكم الأموات لاسيما في الحقوق المتعلقة بالنسل، وإذا كان قول النبي ﷺ في العزل: (ذلك الوأد الخفي) منفراً عن هذه الصفة فلاريب أن عقوبة الزاني ربما تكون مضاعفة بهذا الاعتبار والله أعلم. وهذا المعنى تلمسه بعض المفسرين[5].

أما إذا اعتبرنا العموم وهو مانراه في هذا الموضوع فلا تظهر علة للتوسط المذكور وإنما هي محرمات أوصى الله عباده باجتنابها، وإذا كانت الفواحش ماعظم قبحه من الأقوال والأعمال. ولاشك أن تجاوز ماحرم الله من الفواحش وأعظمها الشرك بالله. والخطر كامن في تجاوز الحدود وانتهاك الحرمات أعاذنا الله من ذلك. ولعل التحذير من الاقتراب من الفواحش مبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها، ومعلوم أن الاقتراب من الشهوة المحرمة يدعوا إلى اقترافها ومباشرة مانهى الله عنه، وكم من إنسان ضعفت نفسه أمام شهوته، وحام حول الحمى فوقع فيه.

---

(١) الماوردي ١/٥٧٦.

(٢) الآية (٢٣) من الأعراف.

(٣) الآية (١٢٠) من الأنعام.

(٤) وممن ذهب إلى القول بالعموم الطبري ٨/٦١ والرازي ١٣/٢٣٣.

(٥) انظر (الإرشاد ٣/١٩٩).

ومعنى الآية الكريمة: أن ما وصى الله به عباده عدم الاقتراب من الأعمال المؤدية إلى ما حرم الله والابتعاد عن الخصال السيئة التي منها الزنا، واللواط، وقذف المحصنات، ونكاح أزواج الآباء، وكل ما سماه الله عز وجل فاحشة، وجب الابتعاد عنه، فهو مما ثبتت شدة قبحه شرعاً وعقلاً، وقد كان الجاهليون يستقبحون الزنا، ويعدونه أكبر العار، ولاسيما إذا وقع من الحراير[1]، وكان وقوعه منهن نادرا، وإذا كان الأمر كذلك، فمن شرفهم الله عز وجل بالشرع المحمدي أولى بالعفة والنزاهة، بيد أن ذلك لم يحدث في الجاهلية علناً إلا في الإماء والجواري، فقد كانت المجاهرة منهن، في حوانيت ومواخير تمتاز بأعلام حمر، فيختلف إليها الأرذلون منهم، أما الأشراف فلا يعلنون ذلك وقد يتخذون الأخدان سراً، قال الإمام الطبري رحمه الله: حدثني المثنى[2] قال: ثنا عبد الله بن صالح[3]، ثني معاوية[4]، عن على بن أبي طلحة[5]، عن ابن عباس قوله: (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) قال: كانوا في الجاهلية لايرون بالزنا بأساً في السر، ويستقبحونه في العلانية، فحرم الله الزنا في السر والعلانية[6]. قوله تعالى: ﴿**ما ظهر منها وما بطن**﴾ يفهم من هذا القول الكريم أن العبد لابد أن يراقب الله عز وجل ويحذر المحرمات في جميع أحواله وهذا معنى التقوى في قول رسول الله ﷺ لابن عباس: (**إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك**) الحديث[7].

وأصرح من هذا ما أخرجه الدارمي حيث قال: حدثنا أبو نعيم[8]، ثنا سفيان[9]، عن حبيب بن أبي ثابت[10]، عن ميمون بن أبي شبيب[11]، عن أبي ذر قال: قال رسول الله

---

(١) ولذلك أنكرت هند بنت عتبة أن تزنى في الحرة حين طلب منها المبايعة على غرار ما جاء في آية الأحزاب (ابن كثير ٤/٣٥٤).

(٢) المثنى بن إبراهيم الآملي. صرح باسمه كاملاً في الأثر رقم ٥٩٤ (١/٤٣٧ النسخة المحققة) ولم أقف عليه مترجما.

(٣) كاتب الليث، صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، مات سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

(٤) الحضرمي، قاضي الأندلس، صدوق له أوهام، مات سنة ثمان وخمسين ومائة.

(٥) مولى بن العباس. أرسل عن ابن عباس ولم يره، صدوق يخطىء، وهو من رجال مسلم. مات في سنة ثلاث وأربعين ومائة وانظر (ابن معين ص٨٥) والمصادر التي أحيل عليها.

(٦) الطبري ٨/٦١ وأخرجه بسنده موقوفاً على الضحاك، ومن طريق أخرى موقوفاً على قتادة.

(٧) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح ٤/٦٦٧، وفي السند ابن لهيعة وليس بقادح لأنه مقرون بالليث بن سعد، وروى عنهما عبد الله بن المبارك. وأخرجه أحمد من طريق ليث وحده (المسند ١/٢٩٣).

(٨) الفضل بن دكين، من كبار شيوخ البخاري، ثقة ثبت.

(٩) الثوري، الحجة، الفقيه، قال البخاري: ما أقل تدليسه. انظر (التبيين ص٢٧).

(١٠) ثقة، فقيه جليل، وصف بكثرة التدليس والإرسال. (المصدر السابق).

(١١) الربعي، صدوق، كثير الإرسال، مات سنة ثلاث وثمانين.

ﷺ: (إتق الله حيث ما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)(١).

وهـذه الأحـاديث ومـافي معنـاهـا مع الآية الكريمة تؤكد إرتباط النفس بمراقبة الله عز وجل واستصحـاب التقـوى في السـر والعلانية وهي الصفة المنجية كما أخبر بذلك أنس رضى الله عنـه عن رسـول الله ﷺ قال: (ثـلاث منجيـات خشيـة الله في السر والعلانية) الحديث(٢).

ويكمن الخطر في حالة إنفصال المراقبة عن النفس في وقت ما، فمثلاً إذا احترز الإنسان عن المعصية في الظاهر، ولم يحترز عنها في الباطن، علم أن الاحتراز في الظاهر ليس لأجل الله عز وجـل، فليست فيـه طاعـة ولا عبـوديـة لله، وإنما كان الاحتراز خوفاً من مذمّة الناس وذلك باطل، لأن من كانت مذمة الناس عنده أعظم وقعاً على نفسه من عقاب الله عز وجل فإنه يخشى عليه من الكفر، وأي حظر أعظم من أن يعرض الإنسان نفسه لهذا الذنب العظيم، وأي نقمة أشد من سخط الله، نعوذ بالله من التهلكة ونعوذ بالله من سخطه ونقمته.

أما من ترك المعصية ظاهراً وباطناً، فذلك دليل على أنه إنما تركها تعظيماً لحدود الله أن ينتهكهـا، وتنفيـذاً لأمـر الله عز وجل بالاجتناب في كل حال، وتحقيقاً لعبوديته لله عز وجل. وخـوفـاً من عقـابـه(٣). ولئن كان كتـاب الله عز وجـل حرم الفـواحش ما ظهر منها وما بطن فكذلك سنة رسول الله ﷺ فقد أخرج الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش) الحديث(٤). والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ويكفي ورود هذا الحديث عن رسول الله ﷺ وفي أصح الكتب بعـد كتـاب الله. فحق على كل مسلم بالغ عاقل رشيد أن يجتنب ما حرم الله ظاهراً وباطناً، ويعلم أنه سيقف بين يدي الله عز وجل ويسأل عن هذه الوصية.

الأحكـــام

من الأحكام المستفادة من هذه الوصية:

١ ــ وجوب الابتعاد عما حرم الله ظاهرا وباطنا.

٢ ــ مراقبة الله عز وجل في كل حال خير معين على اجتناب المحرمات.

---

(١) الدارمي ٢/٢٣١ وانظر المصادر التي أحيل عليها في التعليق.

(٢) ذكره الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير ٦٤/٣.

(٣) انظر الرازي ١٣/٢٣٣.

(٤) الصحيح مع الفتح ١٣/٣٨٣، وانظر (صحيح مسلم ٤/٢١١٣).

الوصيـــة الخامســـة

قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾.

المناسبـــــة :

قد يتلمس البـاحث ما يربـط به بين المعـاني أو الأوامر أو النواهي، وقد يكون ما يصل إليـه أمـراً واضحـاً يتأيد بالأسلوب والمقام، وقد يكون فيه تكلف وبعد. ولعل الناظر في هذه الوصايا الكريمة يجد أن الله عز وجل حرم قتل القلوب بعبادة غير الله عز وجل، أيَّ نوع كان من أنـواع العبـادة، وصـان بعـد ذلك الوالدين وحماهما من جهل الجهلاء، وحماقة السفهاء، فالإسـاءة إليهـا أو إلى أحـدهما قتـل للراوبط الأسرية، وقضاء على الإحسان الذي أمر الله به، ثم أحكم علاقة الأباء بالأبناء، ورسم حدوداً لا يجوز لأي من الأبوين تجاوزها، وصرح عز وجـل بتحـريم قتـل الأولاد، لأن قتلهم قتل للمجتمعات، وقضاء على تتابع الأجيال، ويدخل في هذا الفساد إرتكاب الزنا فهو يقتل المجتمعات حساً ومعنى. وتلا ذلك النهي عن قتـل النفس عامـة، وهـذا العمـوم يوحي بتضمن ماسبق، فإن كل قتلٍ فردي إنما يقع على جنس النفس في عمـومـه، يؤيـد هذا الفهم قولـه تعـالى: ﴿**من أجـل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنـما أحيـا النـاس جميعـا . . .**﴾[1] الآية. فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية في عمومها، والآية الكريمة دليل على أن الله عز وجل كفل حرمة النفس ابتداء[2].

البحث اللغـــوي :

أ ـ **في النحـــو:** قوله: (إلا بالحق) إستثناء مفرع ولعله من أحد ثلاثة أمور:

١ ـ من أعم الأحـوال، أي لا تقتلوهـا في حال من الأحـوال، إلا حال ملابستكم الحق، الذي هو أمر الشرع بقتلها.

٢ ـ أو من أعم الأسباب، أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق.

٣ ـ أو من أعم المصادر، أي لا تقتلوها قتلاً إلا قتلاً كائناً بالحق.

---

(١) الآية (٣٢) من المائدة.

(٢) هذا المعنى مستفاد من (الظلال ٣/٤٢٤).

وقد رجح في الفتوحات أن قوله ﴿إلا بالحق﴾ مفعول مطلق، أي إلا القتل المتلبس بالحق[1].

قوله ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الوصايا المتقدمة. والكاف والميم: للخطاب، ولا حظّ لهما من الإعراب.

قوله ﴿النفس﴾ أي جنس نفس الإنسان، فالألف واللام لتعريف الجنس، كقولهم: أهلك الناس حب الدرهم والدنيا. والله عز وجل يقول: **﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾**[2] فالمراد الجنس.

الضمير فى قوله ﴿وصاكم﴾ محله النصب، لأنه ضمير موضوع لمخاطبة الجمع.

وفى وصى ضمير تقديره: هو، فاعل يعود على لفظ الجلالة أي: وصىّ الله تعالى عباده بذلك.

ب ـ المفردات:

الحق: واحد الحقوق، هو ضد الباطل[3].

تعقلون: من العقل، والمراد في الآية العلم[4] الذي يستفيده الإنسان من التأمل في هذه الوصايا.

الإيضاح

إن المتأمل للآية الكريمة يجد أن قتل النفس المحرمة من جملة الفواحش، وقد أفرده رب العزة فهو من باب ذكر الخاص بعد العام، وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا منهم الإمام الرازي رحمه الله قال: إعلم أن هذا داخل في جملة الفواحش، إلا أنه أفرده تعالى بالذكر، لفائدتين:

١ ـ أن الإفراد بالذكر يدل على التعظيم، والتفخيم كقوله تعالى: **﴿وملئكته وجبريل وميكال﴾**[5].

٢ ـ أن الفواحش لا يستثنى منها فلا يقال: لا تقربوا الفواحش إلا بالحق. وهو وارد في القتل فجاء إفراده لفرض الاستثناء أيضا[6]. وإذا تدبر الإنسان كتاب الله عز وجل يجد

---

(١) انظر (الإرشاد ٣/١٩٩، والفتوحات ٢/١٠٩).

(٢) الآية (١٩) من المعارج.

(٣) انظر (الصحاح ١/٢٨١ واللسان ١٠/٤٩. والمفردات ص٣٤١).

(٤) انظر (ترتيب القاموس ٣/٢٧٧. والمفردات ص٣٤١).

(٥) انظر (الآية ٩٨ من البقرة).

(٦) الرازي ١٣/٢٣٣.

بكثـرة ورود النهي عن هذه المنكـرات الثـلاث متتابعاً، النهي عن الشرك، والنهي عن الزنا، والنهي عن قتـل النفس ولعـل في هذا توجيهـاً للأنظـار إلى أن هذه الأمـور الثلاثة تشترك في صفة القتل، فإذا نظرنا إلى جريمة الشرك نجد أنها قتل للقلوب وإماتة للفطرة التي فطر الله النـاس عليهـا. فالقلوب التي لا تعيش على التـوحيد قلوب ميتة، قد قضي على مافيها من فطـرة يؤيـد هذا الفهم قولـه تعـالى: **﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في النـــاس كمن مثله في الظلمات ليس بخـارج منهـا﴾** [١] الآيـة. فليس المـراد موت الأجسـاد بخـــروج الأرواح منهـا، بل المـراد موت القلوب بخلوهـا من نور الحق، وبـرهـان الشـرع، والشـرع لا يقـوم إلا على إعتقـاد سليم وبـرهـان قويم. وجـريمـة الـزنا قتل للجماعة حساً ومعنىً، فالجـماعـة التي تشيـع فيها الفاحشسة جماعة ميتة معنوياً من حيث عدم وجود الغيرة التي من أعظم الأسباب في حماية المجتمع من هذا الوباء القاتل ولذلك وصف بها النبى ربه عز وجل فقال: (ما من أحد أغير من الله عز وجل)[٢] فإذا قتلت الغيرة في الجماعة استشرى الخطر، وعم البلاء، أما قتلها حساً فإن مصيرها إلى الفناء والدمار لامحالة لاندفاعها خلف هذه الشهوة المحرمة حتى بلغت مستوى الدواب بل هم أضل سبيلا. وقد جاء في بلاغات الإمام مالك عن ابن عباس أنه قال: (... ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم المـوت...)[٣] قال ابن عبـد الـبر: قد رويناه متصلاً عنه، ومثله لا يقال بالرأي[٤]. ويؤيد قولـه هذا أن ابن ماجـة قال: حدثنـا محمـود بن خالـد الـدمشقي[٥]، حدثنا سليمان بن عبد الـرحمن أبـو أيـوب[٦]، عن ابن أبي مالك[٧] عن أبيه[٨] عن عطاء بن أبي رباح[٩]، عن عبد الله بن عمـر قال: أقبـل علينـا رسـول الله ﷺ فقال: (يامعشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعـوذ بالله أن تدركـوهن، لم تظهـر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطـاعـون والأوجـاع، التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...)[١٠] الحديث. وله شاهد من حديث ميمونة أخرجه الإمام أحمد رحمه الله[١١]. وفي نظري أن هذا الخبر لا يقل

---

(١) الآية (١٢٢) من الأنعام.

(٢) الصحيح مع الفتح ١٣/٣٨٣، وصحيح مسلم ٤/٢١١٣.

(٣) الموطأ ٢/٤٦٠.

(٤) قاله محمد فؤاد تعليقاً على المصدر السابق. ولا أراه إلا في التمهيد. ولم أقف عليه.

(٥) ثقة، مات سنة سبع وأربعين ومائتين.

(٦) صدوق يخطىء من رجال البخاري مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

(٧) خالد بن يزيد بن عبد الرحمن ضعيف، مع كونه فقيهاً، قد اتهمه ابن معين، مات سنة خمس وثمانين.

(٨) يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك، صدوق ربما وهم، مات سنة ثلاثين ومائة أو بعدها.

(٩) ثقة، كثير الإرسال، مات سنة أربع عشرة ومائة.

(١٠) ابن ماجه ٢/١٣٣٢.

(١١) المسند ٦/٣٣٣.

عن درجة الحسن لغيره وأنه كما قال ابن عبد البر رحمه الله : مثله لايقال بالرأي ، والواقع يؤيده بعد مضي أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، يظهر الوباء الذي لم يعهد من قبل ، ويهدد العالم الذي فشا فيه الزنا ولا ريب أنه الموت الذي ذكره ابن عباس وهو الطاعون الذي ذكره ابن عمر من قول رسول الله ﷺ وهو العقاب الذي ذكره الإمام أحمد من حديث ميمونة رضي الله عنها، وهو (الإيدز) [١] كما يسميه عالم الحضارة اليوم ، فهل آن الأوان لأبناء الإسلام أن يرجعوا إلى حمى الإسلام فيحتموا به من قتل القلوب والمجتمعات . وجاء النهي الثالث يحرم الاعتداء على جنس النفس البشرية يجعل قتلها بغير حق فاحشة عظيمة وكبيرة ، يعاقب الله عليها بأشد العقاب ، ولذلك أجمع المسلمون على تحريم القتل بغير حق ، إعتمادا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، فالله عز وجل يخاطب عباده في هذه الوصية بأن لا تقتلوا النفس التي حرم قتلها بالإسلام ، أو عقد الذمة ، أو العهد ، أو الاستئمان ، فيدخل في عموم النفس كل أحد إلا الحربي ، ففي هذه الوصية حرم قتل النفس عامة . وكذلك في قوله تعالى : ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا**﴾[٢] وأكد على النفس المؤمنة تكريماً لها وتنويها بشأنها وإلا فهي داخلة في العموم قال تعالى : ﴿**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ**﴾[٣] الآية وقال تعالى : ﴿**ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً أليما**﴾ [٤] . كما نصت السنة المطهرة على تحريم قتل المعاهد ، تنويهاً بمبادىء الإسلام ، وتربية لأمة الإسلام على حفظ العهود والمواثيق والعهد يشمل الأمرين السابقين ، عقد الذمة ، والاستئمان ، قال رسول الله ﷺ : (من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)[٥] . وأخرج الترمذي بسنده من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : (ألا من قتل نفساً معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله ، فقد أخفر بذمة الله ، فلا يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا) . قال : حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح[٦] . وهذا غيض من فيض .

---

(١) وباء هذا العصر نتيجة الخروج عن الآداب الإسلامية . والإنسانية والانحطاط إلى مستوى الحيوان بل أدنى من ذلك وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط في عددها ٣٤١٣ الصادر في يوم السبت ١٤٠٨/٨/٢٥هـ أن عدد الإصابات بهذا الوباء والذي تم إبلاغ منظمة الصحة العالمية بها وصل إلى ٨٥٢٧٣ إصابة في العالم . وما خفي أعظم .

(٢) الآية (٣٣) من الإسراء .

(٣، ٤) الآية (٩٢، ٩٣) من النساء .

(٥) الصحيح مع الفتح ١٢/٢٥٩ .

(٦) الجامع ٤/٢٠ .

قوله : ﴿**إلا بالحق**﴾ .

المراد به ما يبيح قتل النفس التي حرم الله قتلها شرعاً . ومنه المذكور في الأسباب الآتية :

١ ــ النفس بالنفس قال تعالى : ﴿**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس**﴾[١] **الآية وقال تعالى :** ﴿**ولكم في القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون**﴾[٢] .

٢ ــ الوقوع في الزنا بعد الإحصان . وقد جاء في كتاب الله عز وجل مما بقي حكمه ونسخت تلاوته (الشيخ والشيخة فأرجموهما البتة)[٣] يعني إذا زنيا فذاك عقابهما وجاء في الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : (لا يحل دم إمرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث ، الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٤] .

٣ ــ المرتد عن الدين ، التارك لجماعة المسلمين . كما ورد في الحديث آنفا .

٤ ــ المحاربون لشرع الله الذين يسعون بالفساد في الأرض . ومنهم قطاع الطرق ، وما يسمون بالإرهابيين اليوم ، والساطون على أعراض الناس ، ودمائهم ، وأموالهم . قال تعالى : ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو ينفوا من الأرض**﴾[٥] الآية .

ثم إنه تعالى لما بين أحوال هذه الوصايا الخمس أتبع ذلك اللفظ الذي يقرب إلى القلوب القبول فقال : ﴿**ذلكم وصاكم به**﴾ لما فيه من الشمول للأمر والنهي ، ولما فيه من اللطف والرأفة ، كل ذلك ليكون القلب أقرب إلى القبول ، ثم أتبعه عز وجل بقوله : ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ ولعل هنا ليست على بابها ، أي لكي تعقلوا فوائد هذه الوصايا في الدين والدنيا . ومن تأمل قوله : ﴿**ذلكم وصاكم به**﴾ يجد أن استخدام اسم الإشارة للبعيد له دلالة تنبىء عن عظمة هذه الوصايا وبعد ماترمي إليه من إصلاح الدين والدنيا ، ومافيها من الحكم والأحكام الإلهية التي تضمنت الكمال المطلق في الهداية والتوجيه ، وإصلاح الإنسانية في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) الآية (٤٥) من المائدة .

(٢) الآية (١٧٩) من البقرة .

(٣) انظر (الموطأ ٢/٨٢٤) .

(٤) انظر (الصحيح مع الفتح ١٢/٢٠١ وصحيح مسلم ٣/١٣٠٢) .

(٥) الآية (٣٣) من المائدة . ولتمام الفائدة انظر (الرازي ١٣/٢٣٣) .

ولما كانت الوصية الخامسة تنهى عن القتل بغير حق فإنه يحسن الكلام عن القتل وأقسامه.

إن الدارس لهذه القضية يجد أن الأكثرين من العلماء يرون القتل أقساماً ثلاثة:

١ ـ العمد. ٢ ـ شبه العمد. ٣ ـ الخطأ.

وممن يرى هذا التقسيم عمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما ولهما فيه قضاء[١] وبه قال الشعبى، والنخعي، وقتادة، والثوري، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وأهل العراق، وأصحاب الرأى رحم الله الجميع، ونقل عن الإمام مالك رحمه الله أنه أنكر شبه العمد وقال: ليس في كتاب الله عزوجل إلا العمد، والخطأ، فهولا يعمل بشبه العمد، وجعله من قسم العمد. وحكى عنه مثل قول الجماعة[٢].

ويؤيد ماذهب إليه الجمهور ما أخرجه أبو داود وقال: حدثنا سليمان بن حرب[٣] ومسدد[٤] قالا: حدثنا حماد[٥]، عن خالد[٦]، عن القاسم بن ربيعة[٧]، عن عقبة بن أوس[٨]، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (. . . ألا إن دية الخطأ شبه العمد، ما كان بالسوط والعصا، مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها)[٩]. وهذا الحديث الذي لا يقل عن درجة الحسن نص يصد مانقل عن الإمام مالك رحمه الله من إنكاره شبه العمد، وقد زاد أبو الخطاب قسماً رابعاً، وسماه (ما أجري مجرى الخطأ) نحو أن ينقلب نائم على شخص فيقتله، أويقع عليه من علو، ومنه القتل بالسبب، كحفر البئر، ونصل السكين، ومنه قتل غير المكلف، فقد أجري مجرى الخطأ، وإن كان عمداً، لكن هذه الصورة التي ذكرها أبو الخطاب رحمه الله هي عن الأكثرين من قسم الخطأ، لأن صاحبها ليس من أهل القصد الصحيح، ولذلك أعطوه حكم الخطأ لأنه خطأ في الواقع. ويحسن في هذه العجالة إعطاء فكرة مبسطة عن كل قسم.

---

(١) انظر سنن أبي داود ٤/ ٦٨٥.
(٢) المغني مع الشرح الكبير ٩/ ٣٢٢.
(٣) البصري، إمام حافظ ثقة، مات سنة أربع وعشرين ومائتين.
(٤) ابن مسرهد، البصري، ثقة، حافظ، أول من صنف المسند مات سنة ثمان وعشرين ومائتين.
(٥) ابن زيد، البصري، ثقة، ثبت فقيه، مات سنة تسع وسبعين ومائة.
(٦) ابن مهران، الحذاء، ثقة، يرسل، من كبار الخامسة.
(٧) ابن جوشن، البصري، ثقة، من الثالثة.
(٨) البصري، صدوق من الرابعة.
(٩) أبو داود ٤/ ٧١١-٧١٢.

١ ـ **العمد** : هو أن يقصد شخص قتل آخر بما يراه قاتلا في العادة كالسيف، والخنجر، والطلقات النارية وغيرها من الأمور القاتلة. وهذا القسم ثبت بكتاب الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿**ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم**﴾(١) الآية.

٢ ـ **شبه العمد** : هو أن يقصد شخص ضرب آخر بما لا يقتل غالباً، إما لقصد العدوان عليه، أو لقصد التأديب له فيسرف فيه، ويتجاوز الحد المعقول في ذلك، كالضرب بالسوط، والعصا، والحجر الصغير ونحو ذلك.

وهذا القسم ثبت بسنة رسول الله ﷺ. فقد ذكرنا آنفاً حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (ألا إن دية الخطأ شبه العمد، ماكان بالسوط، والعصا، مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها)(٢) وقد قضى فيه رسول الله ﷺ فقد أخرج الإمام البخاري بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (إقتتلت إمرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها ومافي بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة، عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على العاقلة)(٣). فاعتبره ﷺ شبه عمد إذ أوجب الدية على العاقلة، ولو اعتبره عمداً لما حملت العاقلة الدية، لأنها لا تحمل العمد. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس(٤)، حدثنا محمد بن بكار بن بلال العاملي(٥)، أخبرنا محمد ـ يعني ابن راشد(٦) ـ عن سليمان ـ يعني ابن موسى(٧) ـ عن عمرو بن شعيب(٨)، عن أبيه(٩)، عن جده(١٠)، أن النبي ﷺ قال: (عقل شبه العمد مغلظ، مثل عقل العمد، ولا يقتل صاحبه)(١١). فهذه نصوص من السنة صحيحة تثبت شبه العمد، خلافاً لما نقل عن الإمام مالك رحمه الله.

٣ ـ **الخطأ** : هو أن يفعل الشخص فعلاً لا يريد به الاعتداء على أحد من البشر فيخطىء هدفه ويصيب إنساناً فيقتله، مثاله. أن يرمي صيداً فيصيب إنساناً، أو يلقي شيئاً

---

(١) الآية (٩٣) من النساء.

(٢) أخرجه أبو داود ٤/٧١١ـ٧١٢.

(٣) الحديث متفق عليه وهذا لفظ البخاري (الصحيح مع الفتح ١٢/٢٥٢).

(٤) الذهلي، ثقة، حافظ، جليل، مات سنة ثمان وخمسين ومائتين.

(٥) صدوق، مات سنة ست عشرة ومائتين.

(٦) المكحولى، صدوق يهم، مات بعد ستين ومائة.

(٧) الأموى، الأسدق، صدوق فقيه، في حديثه بعض لين، من الخامسة.

(٨) ابن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص، صدوق، مات سنة ثمان عشرة ومائة.

(٩) شعيب بن محمد، صدوق، من الثامنة.

(١٠) عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(١١) سنن أبي داود ٤/٦٩٤.

فيقع على مارٍ، أو يقود سيارة فيعترضه شخص فيدهسه ونحو ذلك.

والخطأ على قسمين أيضاً:

١ ـ أن يفعل الشخص ما يجوز له فعله مما سبقت الإشارة إليه ونحوه، فيؤل ذلك إلى إتلاف إنسان حر، مسلماً كان أو كافراً.

٢ ـ أن يكون في أرض العدو فيقتل من يظنه كافرا. فيصبح المقتول مسلماً. فهذا قسم من الخطأ وإن كانت الصورة صورة عمد لعدم قصد قتل المسلم. وقد ثبت القتل الخطأ بكتاب الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلمة إلى أهله**﴾[١] الآية. وهذه التقسيمات مستفادة من المغني والشرح الكبير[٢].

٥ ـ الامتناع عن أداء حق واجب الأداء من حقوق الله عز وجل ومنه الزكاة مثلاً فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يتردد في قتال مانعي الزكاة، بل أخذ ذلك بحزم وشدة، أخرج الإمام البخاري بسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبوبكر رضي الله عنه[٣]، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر رضي الله عنه[٤]: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله). فقال[٥]: (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لومنعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلهم على منعها، قال عمر رضي الله عنه: فوالله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه، فعرفت أنه الحق)[٦]. وهذا مما سنه أبوبكر رضي الله عنه ووافقه أصحاب رسول الله ﷺ، وسرعان ماشرح الله صدر عمر رضي الله عنه وعرف أنه الحق، ونحن مأمورون باتباع الخلفاء الراشدين قال أبو داود رحمه الله: حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا ثور بن يزيد[٧] قال: حدثني خالد بن معدان[٨] قال: حدثني عبد

---

(١) الآية (٩٢) من النساء.

(٢) ٣٣٨/٩.

(٣) يعني خليفة بعد رسول الله ﷺ.

(٤) مخاطباً أبا بكر رضي الله عنه لما أمر بقتال المرتدين والمانعين للزكاة.

(٥) أبوبكر رضي الله عنه.

(٦) انظر (الصحيح مع الفتح ٢٦٢/٣، ٣٢٢، ٢٧٥/١٢، ٢٥٠/١٣) غير أنه قال (عقالا) ولمزيد الفائدة انظر (البداية والنهاية ٣١١/٦).

(٧) أبو خالد، الحمصي، ثقة.

(٨) أبو عبد الله، الحمصي، ثقة، يرسل كثيرا.

الرحمن بن عمرو السلمي[1]، وحجر بن حجر[2] قالا: أتينا العرباض بن سارية[3]، وهو ممن نزل فيه ﴿**ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه**﴾[4] فسلمنا وقلنا: أتيناك زائرين، وعائدين، ومقتبسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون. . .) فذكر الحديث وفيه (فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. .)[5].

٦ ــ قد يجب قتال غير من سلف ذكرهم. وذلك في أحوال كمن قصد قتل رجل، أو أخذ ماله، أو الإعتداء على عرضه، فيجوز قتله على سبيل الدفاع عن النفس والمال والعرض يؤيد هذا ما أخرجه الإمام البخاري بسنده من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيد)[6] وأخرجه الإمام الترمذي وزاد في رواية: (ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[7]. قال النووي رحمه الله: فيه جواز قتل من قصد أخذ المال بغير حق، سواء كان المال قليلاً أو كثيراً، وهو قول الجمهور، وشذ من أوجبه، قال ابن المنذر: والذي عليه أهل العلم أن للرجل أن يدفع إذا أريد ظلماً، بغير تفصيل، إلا أن كل من يحفظ عنه من علماء الحديث كالمجمعين على استثناء السلطان للآثار الواردة بالأمر بالصبر على جوره، وترك القيام عليه. قال ابن بطال: إنما أدخل البخاري هذه الترجمة في هذه الأبواب ليبين أن للإنسان أن يدفع عن نفسه، وماله ولاشيء عليه، فإنه إذا كان شهيداً إذا قتل في ذلك فلا قود عليه، ولا دية إذا كان هو القاتل[8]. ويؤيد هذه الأقوال ما أخرجه الإمام مسلم بسنده من حديث أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: (فلا تعطه مالك) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: (قاتله) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: (فأنت

(١، ٢) كلاهما مقبول، وتابعهما يحي بن أبي المطاع وهو صدوق، أخرج حديثه ابن ماجه ١/ ١٥ وهو عند الترمذي من طريق السلمي وحده (الجامع ٥/ ٤٤).

(٣) صحابي من أهل الصفة.

(٤) الآية (٩٢) من التوبة.

(٥) أبو داود ٥/ ١٣-١٥.

(٦) الصحيح مع الفتح ٥/ ١٢٣ وأخرجه الإمام مسلم ١/ ١٢٥.

(٧) الجامع ٤/ ٢٩-٣٠ وأخرجه أبو داود ٥/ ١٢٨ وهو عند النسائي وابن ماجه.

(٨) ذكر هذه النقول الحافظ في الفتح ٥/ ١٢٤.

شهيد) قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: (هو في النار)[1] قال الترمذي رحمه الله: وقد رخص بعض أهل العلم للرجل أن يقاتل عن نفسه وماله، وقال ابن المبارك: يقاتل عن ماله ولو درهمين[2]. وإذا كان هذا مقابل المال الذي يمكن تعويضه، فلاريب أنه آكد مقابل النفس والعرض والدين، فإن النفس إذا تلفت لا يمكن تعويضها، والعرض إذا خدش لايمكن جبره، والدين فوقهما، ولا يليق بالمسلم أن يستسلم ويكون جباناً وفي مقابل أعز مايملك نفسه ودينه وعرضه. فيكون الصائل المعتدي إذا بلغت مقاومته حد قتله فإنه مباح الدم لاقود فيه ولا دية، وهذا هو الحق إن شاء الله. والحاصل أن الأصل في قتل النفس الحرمة، وحله لا يثبت إلا بدليل منفصل كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

الأحكام

قوله تعالى: ﴿لعلكم تعقلون﴾.

قال الرازي رحمه الله معللاً سبب ختم الآية بهذا: لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الآية (هذه) أمور ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها[3].

دلت الوصية الكريمة على تحريم قتل النفس المعصومة بالإسلام أو بعقد الذمة إلا بحق يوجب ذلك. وهذا أمر مجمع عليه بين أمة الإسلام، فإن فعله إنسان متعمداً فسق، وأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، وتوبته مقبولة في قول أكثر أهل العلم.

---

(١) صحيح مسلم ١/١٢٤.
(٢) الجامع ٤/٢٩.
(٣) الرازي ١٣/٢٣٥.

رموز مصادر البحث

ابن كثير = تفسير القرآن العظيم.
ابن معين = من كلام أبي زكريا بن معين في الرجال.
ابن هشام = السيرة النبوية.
البحر = البحر المحيط.
البيهقي = السنن الكبرى.
التبيين = التبيين لأسماء المدلسين.
التسهيل = التسهيل لعلوم التنزيل.
التيسير = التيسير في أحاديث التفسير.
الجامع = جامع الترمذي «سنن الترمذي».
الأحكام = أحكام القرآن لابن العربي.
الإرشاد = إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.
الرازي = التفسير الكبير.
الروح = روح المعاني.
الزاد = زاد المسير.
الصحيح مع الفتح = صحيح البخاري مع فتح الباري.
الطبري = ابن جرير في تفسيره.
الظلال = في ظلال القرآن.
الفتوحات = الفتوحات الإلهية.
القاسمي = في تفسيره.
القرطبي = الجامع لأحكام القرآن.
الماوردي = النكت والعيون (تفسير الماوردى).
المحرر = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.
المفردات = مفردات غريب القرآن للراغب.
المنار = تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم لمحمد عبده).
النووي = شرح صحيح مسلم للنووى.

مع ملاحظة أن كل ترجمة في هذا البحث لم أذكر مصدرها فهي من التقريب لابن حجر مع شيء من التصرف أحياناً.



إحياء التراث الإسلامي

استدراكات على كتاب

تاريخ التراث العربي في كتب التفسير

للدكتور حكمت بشير ياسين
أستاذ مساعد بكلية القرآن الكريم

(القسم الثاني)

كتب القرن الثاني الهجري

١٣(*) ــ تعليقة على تفسير «فسبحان الله» : لأبي حنيفة النعمان بن ثابت التميمي ت ١٥٠هـ.

منه نسخة في عموجة حسين باشا في إسلامبول في مجموع برقم ٤٥٤[١].

١٤ ــ التفسير : لأربدة أو أربد التميمي البصري من تلاميذ ابن عباس.

ذكره المزي وقال: صاحب التفسير، كان يجالس ابن عباس[٢].

وقال ابن حجر: راوى التفسير عن ابن عباس[٣].

١٥ ــ التفسير : لزائدة بن قدامة أبي الصلت الثقفي الكوفي ت ١٦١هـ.

ذكره الداوودي وذكر جماعة من شيوخه وتلاميذه المفسرين[٤].

١٦ ــ تفسير : شيبان بن عبد الرحمن النحوي التميمي ت ١٦٤هـ.

ذكره ابن النديم[٥].

(*) هذه الأرقام تتمة لما سبق.

(١) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ٢٨/١ .

(٢) تهذيب الكمال ٢/ ٣١٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ١٩٧ وتغليق التعليق ٢/ ٢٥ .

(٤) طبقات المفسرين ١/ ١٨١ .

(٥) الفهرست ص ٣٦ .

وأفاد منه الإمام أحمد في مسنده حيث صرح بذلك[1].

١٧ ـ تفسير : هشيم بن بشير بن القاسم السلمي الواسطي ت ١٨٣هـ.

قال الداوودي : صاحب التفسير الذي يرويه عنه أبو هشام زياد بن أيوب بن زياد البغدادي[2].

وهو كما قال فقد ذكر السمعاني أن شيخه أبا الفضل محمد بن علي البخاري المطهري قد سمع هذا التفسير من طريق أيوب بن زياد عن هشيم[3].

وقد حصل الروداني رواية اجازة هذا التفسير من طريق أيوب بن زياد أيضا[4].

وذكره ابن النديم[5] وأفاد الحاكم[6] والواحدى[7] بعض الروايات التفسيرية عن هشيم.

١٨ ـ تفسير ابن سلام : يحيى بن سلام التميمي ت ٢٠٠هـ.

ذكر سزكين نسخة واحدة[8] وهي النسخة التي ذكرها بروكلمان[9].

وتوجد خمس نسخ أخرى الأولى في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب برقم **١٨٦٥٣** تقع فى ١٠٤ ورقة والباقي في جامع القرويين في فاس[10].

كتب القرن الثالث الهجري

١٩ ـ تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني ت ٢١١هـ.

لم يذكر سزكين نسخة معالي الشيخ حسن آل الشيخ التي أهداها لجامعة الملك سعود

---

(١) انظر على سبيل المثال المسند ٢/٤٣٧ و٣/١٣، ٢٦١ و٤/٢٩ .

(٢) طبقات المفسرين ٢/٣٥٣ .

(٣) التحبير الكبير ٢/١٧٩ .

(٤) صلة الخلف ١/٠٤٠ .

(٥) الفهرست ص ٣٧ و٢٨٤ .

(٦) انظر على سبيل المثال المستدرك ٢/٢٢١ .

(٧) انظر على سبيل المثال أسباب النزول ص ٣٨٥ .

(٨) تأريخ التراث العربي ١/٩١.

(٩) تأريخ الأدب العربي ٤/١٠.

(١٠) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ١/٣٥ و٣٦.

ومن هذه النسخة صورة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تقع في (٢٤٢) ورقة[١].

٢٠ ــ التفسير : سنيد بن داود المصيص ت ٢٢٠هـ (أو حسين بن داود).

قال الداوودي : وله تفسير رواه عنه محمد بن إسماعيل الصائغ.

روى له ابن ماجه[٢].

وذكره ابن النديم في الفهرست[٣].

وأفـاد من تفسـيره جمع من الأئمة كالطبري في تفسيره[٤] وابن عبد البر في التمهيد[٥] وابن كثير في تفسيره[٦] والذهبي في العلو[٧] وابن قيم الجوزية فى اعلام الموقعين[٨] وابن حجر فى الإصابة[٩] والسيوطي في الإتقان[١٠] والدر المنثور[١١].

٢١ ــ تفسير : عبدالغني بن سعيد الثقفي ت ٢٢٩هـ.

قال الداوودي : صاحب التفسير حدث عنه بكر بن سهل الدمياطي[١٢].

أفاد من تفسيره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ثمانية مواضع.

وصرح بأن الطبراني روى عنه في تفسيره وأن ابن منده أفاد من تفسير عبد الغني[١٣].

---

(١) فهرس علوم القرآن ٢/٨٩ وقارن مع تأريخ التراث العربي ١/١٨٤.

(٢) طبقات المفسرين ١/٢١٤ و٢١٥.

(٣) ص ٣٦.

(٤) انظر على سبيل المثال رقم ١٤٤ و٨٥٤ و١٦٨٨.

(٥) انظر على سبيل المثال ١٠/٣٠ و١٦/٢٣٢.

(٦) انظر على سبيل المثال ١/١٢٤، ١٢٦ وقد أفاد منه تسع مرات.

(٧) انظر ص ١٢٦.

(٨) انظر على سبيل المثال ٤/١٠٠ و١١٦.

(٩) انظر ٤/٣١٨ و٧/٣٣٦.

(١٠) ١/١٠٠.

(١١) ٢/٦٥٣ و٦٧٥.

(١٢) طبقات المفسرين ١/٣٣٠.

(١٣) انظر موارد ابن حجر في الإصابة ٢/٤٨١ والإصابة ٣/٤١ و١/٣٥٣.

وأفاد أبو نعيم[١] والواحدى[٢] وابن قيم الجوزية[٣] والسيوطي[٤] عدة روايات تفسيرية له .

٢٢ ـ التفسير : لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ت ٢٣٥هـ .

ذكره ابن النديم[٥]، والداوودي[٦]، وحاجي خليفة[٧]، والخطيب البغدادي[٨] .
وأفاد منه الحاكم[٩] والبيهقي[١٠] والسيوطي[١١] بعض الروايات في التفسير .

٢٣ ـ التفسير : لعثمان بن أبي شيبة بن محمد بن إبراهيم الكوفي ت ٢٣٩هـ .

ذكره الخطيب البغدادي[١٢] وابن النديم[١٣] والداوودي[١٤] .
وأفاد الحاكم بعض الروايات التفسيرية فى المستدرك كتاب التفسير[١٥] .

٢٤ ـ التفسير : لأبي حفص عمرو بن علي بن بحر بن كثير الصيرفي الفلّاس ت ٢٤٩هـ .

قال الداوودي : صاحب التفسير الذي رواه عنه علي بن إسماعيل بن حماد البزار[١٦] .
وهو كما قال فقد حصل الحافظ ابن حجر[١٧] والروداني[١٨] رواية إجازة هذا التفسير من طريق علي بن إسماعيل عن المؤلف .

---

(١) انظر على سبيل المثال صفة الجنة ص ٨ و١٣ و٨٨ و٩٥ .
(٢) انظر على سبيل المثال أسباب النزول ص ٥٩ .
(٣) انظر على سبيل المثال الروح ص ١٥٣ .
(٤) انظر على سبيل المثال الدر المنثور ٤/ ٢٦٤ .
(٥) الفهرست ص ٣٧ .
(٦) طبقات المفسرين ١/ ٢٢٥ .
(٧) كشف الظنون ١/ ٤٣٧ .
(٨) تأريخ بغداد ١٠/ ٦٦ .
(٩) انظر على سبيل المثال المستدرك ٢/ ٢٢٢، ٢٦١، ٢٧٠ .
(١٠) انظر على سبيل المثال إثبات عذاب القبر ٢٢٨/ ٢٢٩ .
(١١) انظر على سبيل المثال الدر المنثور ٤/ ٢٨، ٣٠، ٣٨. والمهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ص ٩٧ .
(١٢) تاريخ بغداد ١١/ ٢٨٤ .
(١٣) الفهرست ص ٢٨٥ .
(١٤) طبقات المفسرين ١/ ٣٨٤ .
(١٥) انظر على سبيل المثال ٢/ ٢٢٢، ٢٩٧ .
(١٦) طبقات المفسرين ٢/ ٢٠ .
(١٧) المعجم المفهرس ل ٨٨ .
(١٨) صلة الخلف ١/ ٤٠ .

وأفاد البخاري في صحيحه بعض الروايات التفسيرية عن شيخه عمرو بن علي[1].

٢٥ ـ تفسير : عبد بن حميد الكشي ت ٢٤٩هـ.

ذكر سزكين أن ابن حجر اقتبس من هذا التفسير في الإصابة[2]، ولم يذكر القطعة من هذا التفسير في حاشية تفسير ابن أبي حاتم الذي فيه سورتا آل عمران والنساء وهو المجلد الثاني.

وقد أفاد من هذا التفسير الحافظ ابن حجر في فتح الباري[3] وتغليق التعليق[4] وموافقة الخبر الخبر[5] والسيوطي في الإتقان[6] والدر المنثور[7].

وأفاد منه ابن كثير في تفسيره كثيرا[8].

وأفاد منه أيضا ابن قيم في شفاء العليل[9].

وذكر هذا التفسير حاجي خليفة والداوودي.[10]

٢٦ ـ تفسير البكري : لأبي الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكري ت نحو ٢٥٠هـ.

منه نسخة في رشيد أفندي بالسليمانية اسلامبول برقم **٣٥**[11].

٢٧ ـ التفسير : لعبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي ت ٢٥٥هـ.

ذكره الداوودي وذكر أنه روى عنه أبو داود والترمذي وبقي بن مخلد ومطين[12].
وكلهم من المفسرين.

وذكره أيضا الخطيب البغدادي[13].

---

(١) انظر على سبيل المثال ٦/٢٣.
(٢) تأريخ التراث العربي ١/٢١٧.
(٣) انظر على سبيل المثال ٣/٤٤٠.
(٤) انظر على سبيل المثال ٤/١٦٩.
(٥) انظر على سبيل المثال ص ٣٠٥ و٣٤٤.
(٦) انظر على سبيل المثال ٣/٥ و٤/٢١٩.
(٧) انظر على سبيل المثال ١/١٠ و١١.
(٨) انظر على سبيل المثال ١/١١٥، ١٢٢، ٧/١١٢، ١١٣، ٣٣٦، ٤٨٢.
(٩) انظر موارد ابن قيم الجوزية في كتبه ص ٣٢.
(١٠) طبقات المفسرين ١/٣٧٤ وكشف الظنون ١/٤٥٣.
(١١) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ١/٤٢.
(١٢) طبقات المفسرين ١/٢٤٢ ـ ٢٤٤.
(١٣) تأريخ بغداد ١٠/٢٩.

ويوجد في سننه أكثر من (١٥٠) رواية تفسيرية[١].

٢٨ ـ تفسير : أبي سعيد عبد الله بن سعيد الأشج ت ٢٥٧هـ.

حصل على إجازة روايته السمعاني من طريق ابن أبي حاتم الرازي ت **٣٢٨هـ** فقد ذكره السمعاني في ترجمة شيخه أبي الفضل محمد بن علي البخاري المطهري[٢].

وذكره ابن النديم[٣] والداوودي[٤] وحاجي خليفة[٥].

وأفاد ابن أبي حاتم الرازي من هذا التفسير **٢٢٤** رواية في المجلد الثاني من تفسير ابن أبي حاتم[٦].

وأفاد أيضا الواحدي في كتابيه التفسير الوسيط[٧] وأسباب النزول[٨].

وهذا التفسير كان عند أحمد بن علي بن يحيى بن العباس الأسد اباذي[٩].

٢٩ ـ تفسير العسكري : لأبي محمد الحسن بن علي الهادي العسكري ت ٢٦٠هـ.

ذكر سزكين ست نسخ بينما توجد ثمان نسخ أخرى الأولى في المعهد الإسماعيلي بلندن برقم **٤٨٩** تقع في **٧٠٢** ورقة، والثانية والثالثة في الوزيري / يزد برقم **٥٩٨٠** تقع في **٢٦٤** ورقة وبرقم **١٠٦١٦** في **٩٦** ورقة والرابعة في ملك الوطنية طهران برقم **١٨٦** تقع في **١٧١** ورقة والخامسة في مدرسة سبهسالار / طهران برقم **٩٩٧** في **٢٩٣** ورقة، والسادسة في مكتبة الإمام الحكيم العامة / النجف برقم **٨٣٧** في **٢١٦** ورقة، والسابعة في مكتبة الإمام الحكيم أيضا برقم **١١٩٠**م في **١٤٢** ورقة، والثامنة في دار المخطوطات / البحرين برقم **٤٠٧**[١٠].

٣٠ ـ تفسير : أبي يحيى عبد الرحمن بن محمد بن سلم الرازي ت ٢١٩هـ.

---

(١) انظر على سبيل المثال ١/٣، ٤، ٥، ٦، ٩، ٣٧، ٣٩، ٤٩، ٥٤، ٥٥، ٦٥، ٧٥.

(٢) التحبير في المعجم الكبير ٢/١٧٧، ١٧٨.

(٣) الفهرست ص ٣٧.

(٤) طبقات المفسرين ١/٢٣٥.

(٥) كشف الظنون ١/٤٤٢.

(٦) ٤/١٧٤٥ وهو تحت الطبع بتحقيقي.

(٧) انظر على سبيل المثال ص ٥٥٣.

(٨) انظر على سبيل المثال ص ٨٥، ٨٦، ١٠٣.

(٩) انظر تأريخ بغداد ٤/٣٢٦.

(١٠) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ١/٤٣ ـ ٤٦.

ذكره الداوودي وقال: حدث عنه أبو أحمد العسال وأبو الشيخ والطبراني[1].
وكذا ذكره الذهبي[2].
وقد أفاد من تفسيره الإمام الواحدي في أسباب النزول[3] وفي التفسير الوسيط[4].
وأفاد أيضا أبو الشيخ في تفسيره[5] وأبو نعيم في صفة الجنة[6].

كتب القرن الرابع الهجري

٣١ ـ التفسير الكبير : لإبراهيم بن إسحاق بن يوسف النيسابوري الأنماطي ت ٣٠٣هـ.

ذكره الذهبي[7] والداوودي وذكر أنه سمع إسحاق بن راهويه وعمرو بن علي[8]. . . . . . . وهما من المفسرين.

٣٢ ـ تفسير القرآن :

٣٣ ـ معاني القرآن :

للحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة ت ٣١١هـ.

ذكرهما ابن خزيمة في صحيحه وكتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل[9] وكلاهما له.

٣٤ ـ تفسير القرآن : للحكيم أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي ت ٣٢٠هـ.

---

(١) طبقات المفسرين ١/٢٨٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/٥٣٠.
(٣) انظر على سبيل المثال ص ٢١٣.
(٤) انظر على سبيل المثال ١٧ و٦١٣ و٦٥٦ و٧٧٨ و٨١٢ و٨٢٠ و٩٤٣.
(٥) الإصابة ٥/٤٤٤.
(٦) انظر ص ١٥ و٨٩.
(٧) سير أعلام النبلاء ١٤/١٩٣.
(٨) طبقات المفسرين ١/٧.
(٩) انظر مقدمة صحيح ابن خزيمة ص ١٢ ص ١٤.

منه نسخة في المكتبة الوطنية بوردور برقم ١٤٣ تقع في ١٣٤ ورقة كتبت سنة ٥٤٩هـ[١].

٣٥ ـ معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن وجاءت بها السنن والأخبار : لأبي بكر بن عزيز السجستاني ت ٣٣٠هـ.

منه نسخة مصورة ميكروفيلم عن نسخة مكتبة الأسكوريال في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى برقم ٥٢ تقع في ١٦٧ ورقة[٢].

٣٦ ـ تفسير الكتاب العزيز : لأبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الكناني اليمني المعروف بابن الحداد ت ٣٤٤هـ.

منه نسخة في الجامعة الأمريكية في بيروت برقم ٢٣٥ وهي الجزء الثاني من التفسير تقع في ٩٧ ورقة[٣].

٣٧ ـ أحكام القرآن : لأبي الحكم منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي ت ٣٥٥هـ.

ذكره ياقوت وذكر له أيضا الناسخ والمنسوخ[٤].

وذكرها الداوودي وزاد : تفسير القرآن[٥].

وحصل على إجازة روايته ابن خير[٦].

وأفاد من تفسيره ابن قيم في كتابيه مفتاح دار السعادة ص ١٢و٢١ وطريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٣٤٤[٧].

٣٨ ـ أوضح البرهان في مشكلات القرآن : لمحمد بن أبي الحسن النيسابوري ت ٣٥٥هـ.

---

(١) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ١/٧٨.

(٢) فهرس علوم القرآن ٢/٣٠٢.

(٣) الفهرس الشامل للتراث / مخطوطات التفسير ١/٨٧.

(٤) معجم الأدباء ١٩/١٧٤ ـ ١٧٦.

(٥) طبقات المفسرين ٢/٣٣٦.

(٦) فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٥٤.

(٧) انظر موارد ابن قيم الجوزية فى كتبه ص ٣٢.

منه نسخة مصورة في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى عن نسخة المكتبة الوطنية بتونس تقع في ٣٧ ورقة برقم ٩١٢.

ونسخة أخرى مصورة عن مكتبة دار الكتب المصرية وتقع في ٤١٥ ورقة برقم ٧٠٦[١].

٣٩ ـ نكت القرآن الدالة على البيان : لمحمد بن علي بن محمد أبو أحمد الفقيه الكرجي المعروف بالقصاب ت ٣٦٠هـ.

منه نسخة في مكتبة مرادملّا برقم ٣١٧ وتقع هذه النسخة في ٢١٨ ورقة.

ومنها نسخة مصورة ميكروفيلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى[٢].

وقد ذكر الذهبي هذا الكتاب[٣].

٤٠ ـ تفسير القرآن : ينسب إلى محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج ت ٣٨٠هـ.

منه نسخة في الوطنية / باريس برقم ٦٣٧ تقع في ١٣٨ ورقة كتبت في القرن السابع الهجري[٤].

٤١ ـ تفسير جزء عم : لأبي الحسن علي بن عيسى بن علي النحوي الرماني ت ٣٨٤هـ.

منه نسخة في التيمورية / القاهرة برقم ٢٠١ في جزء كتبت سنة ١٠٩٦هـ[٥].

٤٢ ـ الفرائد المشتملة على فوائد البسملة والحمدلة : لمحمد بن ناصر الدين المعروف بابن الطحان ت ٣٨٤هـ.

منه نسخة مصورة ميكروفيلم في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى عن نسخة مكتبة المدرسة الصديقية بحلب برقم ٧٩١[٦].

٤٣ ـ تفسير القرآن : لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ت ٣٨٦هـ.

---

(١) فهرس علوم القرآن ٢/ ٣٤.

(٢) فهرس علوم القرآن ٢/ ٣٣٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢١٣.

(٤) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/ ١١٦.

(٥) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/ ١٢٠.

(٦) فهرس علوم القرآن ٢/ ٢٠٩.

منه نسخة في خزانة القرويين / فاس برقم ٩٣٧[١].

٤٤ ــ الاستغناء في علوم الدين : وهو تفسير الأدفوي أبو بكر محمد بن علي بن أحمد النحوي ت ٣٨٨هـ.

ذكر سزكين المجلد الأول فقط في سليم آغا[٢] ولكن يوجد في سليم آغا / اسلامبول ثلاث مجلدات أخرى: المجلد الرابع برقم ٥٦٤ ويقع في ٤٥٦ ورقة.
المجلد الخامس برقم ٦٥ ويقع في ٤٥٦ ورقة.
المجلد السابع برقم ٦٦ ويقع في ٤٥٦ ورقة[٣].
وتوجد قطعة في تونس ذكرها عبد الله بن عبد الغني كحيلان في رسالته الماجستير: الأدفوي مفسرا وتحقيق سورة الفاتحة من تفسيره[٤].

٤٥ ــ جامع التأويل في تفسير القرآن : لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ت ٣٩٥هـ.

ذكره الداوودي[٥].
وأفاد من تفسيره القرطبي في تفسيره وذكر إسناد المؤلف إلى ابن عباس[٦].

٤٦ ــ تفسير السور الست الأولى من القرآن الكريم : لابن أبي زمنين محمد بن عبد الله بن عيسى المري ت ٣٩٩هـ.

منه نسختان أو جزءان في خونتا / مدريد برقم ٥١ تقع في ١٤٤ ورقة والأخرى برقم ١/٥٢ تقع في ٢٤٣ ورقة وكلتاهما كتبتا في القرن العاشر الهجري[٧].

٤٧ ــ تفسير القرآن : لابن حارث أحمد بن محمد من علماء القرن ٤هـ.

---

(١) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٠.
(٢) تاريخ التراث العربي ١/١٠٧.
(٣) الفهرس الشامل للتراث / ١/١٢١.
(٤) ص ٣.
(٥) طبقات المفسرين ١/٦١.
(٦) أحكام القرآن ٢٠/٢٠٤.
(٧) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٠ - ١٢١.

منه نسخة في الجمعية الآسيوية / كلكته برقم ٤٩ / AV ٦٠٠ تقع في ٢٦٢ ورقة كتبت سنة ١١٢٧هـ[١].

كتب العقد الأول من القرن الخامس الهجري

٤٨ ـ تفسير القرآن : لابن اللبان محمد بن عبد الله بن أحمد البصري ت ٤٠٢هـ.

منه نسخة في السليمانية / اسلامبول برقم ١٨٨[٢].

٤٩ ـ حقائق التأويل في متشابه التنزيل : للشريف الرضى أبي الحسن محمد بن الحسين ابن موسى العلوي الحسيني الموسوي ت ٤٠٦هـ.

منه نسخة في رضا / مشهد برقم ١١٨/٣ المجلد الخامس ويقع في ٢٠١ ورقة كتبت سنة ٥٣٣هـ.

وأخرى في التيموريّة / القاهرة برقم ٥٣٥ المجلد الأول كتبت سنة ١٣٣٧هـ.[٣].

وكتب إلي الأستاذ الفاضل سعدي الهاشمي ان الكتاب مطبوع في النجف عام ١٣٥٥هـ.

٥٠ ـ تفسير النيسابوري : لأبي القاسم حسن بن محمد بن حبيب بن أيوب ت ٤٠٦هـ.

منه نسخة في مدرسة قره مصطفى باشا / اسلامبول برقم ٦٨ وأخرى في مدرسة مصلى / اسلامبول برقم ١٨ وهي المجلد الثاني وأخرى في مهر شاه سلطان / إسلامبول برقم ٣١ وهي المجلد الأول تقع في ١٨٢٤ ورقة[٤].

٥١ ـ تفسير أبي سعيد الحنفي النيسابوري : لأبي سعيد عبد الله بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ت ٤٠٧هـ.

منه نسخة في الوطنية / طهران برقم ٢٠ كتبت سنة ٩٨١هـ[٥].

---

(١) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٢.

(٢) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٧.

(٣) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٧.

(٤) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٨ ـ ١٢٩.

(٥) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٩.

٥٢ ـ مسائل منثورة من تفسير القرآن : لابن سلامة أبي القاسم هبة الله بن سلامة ت ٤١٠هـ.

منه نسخة في المسجد الأحمدي بطنطا برقم ١٨خ/٣٦٥ع[1].

وإلى اللقاء مع كتب القراءات

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه

(١) الفهرس الشامل للتراث / التفسير ١/١٢٩.

فهـــرس المراجـــع

تقدم في المقالة الأولى أغلب المراجع وسأذكر في هذا الفهرس بقية المراجع الأخرى وهي :

— الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ت ٩١١هـ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط ٣ سنة ١٤٠٥هـ دار التراث ـ القاهرة .

— أحكـام القرآن ـ للجصاص ت ٣٧٠هـ ـ تحقيق : محمد الصادق قمحاوي ـ دار إحياء التراث ـ بيروت سنة ١٤٠٥هـ .

— أحكام القرآن للقرطبي ـ طبعة دار إحياء التراث العربي ـ بيروت سنة ١٤٠٥هـ .

— الأدفـوي مفسـرا وتحقيق سورة الفـاتحـة من تفسـيره ـ عبـد الله بن عبـد الغني كحيلان ـ جامعة محمد بن سعود الإسلامية رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة .

— أسبـاب النـزول ـ للواحدي النيسابوري ت ٤٦٨هـ ـ تحقيق : السيد صقر ـ دار القبلة ـ جدة .

— الاعلام ـ للزركلي ـ دار العلم للملايين لبنان ط ٥ سنة ١٤٠٠هـ .

— اعـلام المـوقعين عن رب العالمين ـ لابن قيم الجوزية ت ٧٥١هـ ـ تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . بدون طبعة ولا تاريخ .

— التمهيـد لما في المـوطأ من المعـاني والأسـانيد ـ لابن عبد البر النمري ت ٤٦٣هـ ـ طبعة وزارة الأوقاف المغربية .

— جامـع البيـان عن تأويل آي القرآن للطبري ت ٣١٠هـ ـ تحقيق وتخريج : محمود وأحمد شاكر ـ ط دار المعارف ـ القاهرة ط ٢ .

— الـديبـاج المـذهب في معـرفـة أعيـان علماء المـذهب ـ لابن فرحـون المـالكي ت ٧٩٩هـ ـ تحقيق : د. محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التراث ـ القاهرة .

— سنن الدارمي ت ٢٥٥هـ بعناية محمد أحمد دهمان ـ نشرته دار احياء السنة النبوية .

— شذرات الـذهب في أخبـار من ذهب ـ ابن العـماد ت ١٠٨٩هـ ـ مطابـع دار السراج ـ بيروت .

— صحيـح ابن خزيمـة ت ٣١١هـ ـ تحقيق : د. محمد مصطفى الأعظمي ـ طبعة المكتب الإسلامي ط ١ سنة ١٣٩٩هـ .

— العلو للعلي الغفار ـ الذهبي ـ تحقيق : محمد عبد الرحمن عثمان ـ طبعة دار الفكر بيروت ط ٢ سنة ١٣٨٨هـ.
— فهارس المخطوطات العربية في العالم ـ كوركيس عواد ـ منشورات معهد المخطوطات العربية ـ الكويت ط ١ سنة ١٤٠٥هـ.
— فهرس التفسير وعلوم القرآن ـ إعداد فراج عطا سالم ـ مركز البحث العلمي ـ جامعة الملك عبد العزيز كلية الشريعة سابقا والآن جامعة أم القرى.
— فهرس جامعة أم القرى ـ نشر عمادة شؤون المكتبات ط ١ سنة ١٤٠٣هـ.
— فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا ـ د. محمد حجي ـ منشورات معهدالمخطوطات العربية ـ الكويت ط ١ سنة ١٤٠٦هـ.
— الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ـ مخطوطات التجويد ـ الجزء الأول ومخطوطات التفسير الجزء الأول والثاني ـ المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ الأردن.
— فهرس علوم القرآن ـ مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ـ إعداد قسم الفهرسة ط ١ سنة ١٤٠٦هـ.
— فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل ـ وزارة الأوقاف ـ العراق سنة ١٣٩٧هـ.
— الفهرست لابن النديم ت ٣٨٥هـ ـ تحقيق : رضا تجدد طبعة طهران سنة ١٣٩١هـ.
— فهرست ما رواه عن شيوخه ـ ابن خير الأشبيلي الأموي ت ٥٧٥هـ ـ منشورات دار الآفاق الحديثة ـ بيروت ط ٢ سنة ١٣٩٩هـ.
— فهرست المخطوطات والمصورات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الجزء الثاني ـ التفسير وعلوم القرآن ـ مطابع جامعة الإمام نفسها سنة ١٤٠٢هـ.
— الكامل في ضعفاء الرجال ـ لابن عدي ت ٣٦٥هـ ـ مطبعة دار الفكر بيروت ط ١ سنة ١٤٠٤هـ.
— كشف الظنون ـ حاجى خليفة ـ دار الفكر بيروت .
— مجموعة مختارة لمخطوطات عربية نادرة من مكتبات عامة في المغرب ـ عالم الكتب ـ بيروت ط ١ سنة ١٤٠٧هـ.

— معجم الأدباء ـ ياقوت ط ٣ دار الفكر ـ سنة ١٤٠٠هـ.
— معجم الدراسات القرآنية ـ د/ ابتسام مرهون الصفار ـ ط جامعة الموصل.
— معجم مصنفات القرآن الكريم ـ د/ علي شواخ إسحاق ـ منشورات دار الرفاعي ـ الرياض ط سنة ١٤٠٧هـ.
— مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن ـ د. أحمد حسن فرحات ـ دار الفرقان ـ عمان ط ١ سنة ١٤٠٤هـ.
— المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب ـ السيوطي ت ٩١١هـ ـ تحقيق : التهامي الراجي الهاشمي ـ طبعة المغرب.
— موارد ابن القيم في كتبه ـ د. بكر بن عبد الله أبوزيد ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ط ٢ سنة ١٤٠٥هـ.
— نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا ـ د. رمضان شش ـ دار الكتاب الجديد ـ بيروت ط ١ سنة ١٤٠٠هـ.

مَسَائِلُ فِى ٱلنَّحْوِ

لأَبِى ٱلْبَقَاءِ يَعِيش بْن عَلِى بْن يَعِيش ٱلنَّحْوِىّ ٱلْحَلَبِىّ

تحقيق
الدكتور علي بن سلطان الحكمي
أستاذ مساعد في كلية اللغة العربية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فهذه ثلاث عشرة مسألة في النحو سئل عنها أبو البقاء يعيش بن علي النحوي. وقفت عليها بقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية بالجامعة الإسلامية منذ فترة، وقد أجلت النظر فيها أكثر من مرة فتبين لي أنها تشتمل على مسائل مهمة في العربية تشكل على طالب العلم ويدق فهما على بعض الدارسين، ووجدت أبا البقاء يعيش بن علي قد أجاب عليها إجابة وافية أزالت إشكالها وادنتها إلى فهم المتعلمين والدارسين بأسلوب تعليمي ميسر تحامى الخلافات النحوية فى بعض هذه المسائل واعتام القصد في الإجابة والبيان الواضح دون إسهاب ممل أو إيجاز مخل. وقد حلى هذه المسائل بحسن التعليل ودقة التوجيه على غرار ما فعل في شرحه على المفصل في تحرير المسائل وتوجيه الأقوال، إلاّ أنه هنا في هذه المسائل لم يبسط القول فى مسائل الخلاف وحشد الأقوال كما فعل في شرح المفصل.

وقد كان الدافع لتحقيق هذه المسائل أمران:

الأول: أنها من أعمال أبى البقاء يعيش بن علي النحوي التي لم تشر إليها مصادر ترجمته ولم يتعرض لها تلاميذه، مع أنها من أعماله وتمثل منهجه في استقصاء المسائل وحسن التعليل ودقة التوجيه.

ثانياً : أنها تعالج مسائل مهمة في العربية، وهي وإن كانت مبسوطة في شرح المفصل وغيره من المطولات إلّا أنها في هذه المسائل أسهل عرضاً وأدق توجيهاً وأقرب مأخذاً للدارسين وطلاب العلم.

ويتلخص عملي في تحقيق هذه المسائل في الأمور التالية :

١ ـ تحرير النص وإخراجه في صورة سليمة.

٢ ـ عزو الأقوال التي أوردها بالنص أو ألمح إليها إلى مصادرها.

٣ ـ مقابلة ما أورده أبو البقاء في هذه المسائل على ما اثبته عليها أو على بعض منها في شرح المفصل.

٤ ـ خرجت الشواهد من الآيات القرآنية وأبيات الشعر التي احتج بها، وعزوت الأبيات إلى قائليها وهي قليلة جداً في هذه المسائل. وأعنى بتخريج الآيات تخريج القراءة التي بها يقوم الاحتجاج من مصادر كتب القراءات.

٥ ـ عرفت بأبى البقاء يعيش بن علي النحوي تعريفاً موجزاً. .

أبو البقاء يعيش بن يعيش(١)

اسـمه ونسـبه :

هـو : أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش بن أبى السريا محمد بن علي بن المفضل بن عبـد الكـريم بن محمـد بن يحيى بن حيان بن القاضي بشر بن حيان المنعوت بموفق الدين، الأسدي الأندلسي الموصلي الحلبي النَّحوي، كان يُعَرفُ قديماً بابن الصّانع.

هذه سلسلة نسب أبى البقـاء كما وردت في سير أعـلام النبـلاء وإشارة التعيين وإنباة الرواة وغيرها من المصادر.

ولادتـه وشـيوخه :

ولـد أبـو البقـاء يعيش بن علي في الثـالث من رمضـان سنـة ثلاث وخمسـين وخمسـمائة (٥٥٣هـ) بمدينة حلب، أم البلاد يومئذٍ في العلم والمعرفة وقد اختلف في صغره إلى طائفة من المعلمين والأساتذة الناهين الذين استفاد منهم واستمر بهم في مواصلة الدرس والتحصيل العلمي في مختلف الفنـون وبخـاصـة في علم العـربية الذي برع فيه وأحسن العلم به، وقد أوردت مصادر ترجمته وكتب الطبقات طائفة من شيوخه فيهم : أبو الحسن أحمد بن محمد الطرسوسي[٢] والقاضي أبو سعيد بن عصرون[٣]، وأبو السخاء فتيان الحلبي المعروف بالحائك[٤]، وأبو العباس المغربي، وأبو الفتح يحيى بن محمود الثقفي[٥].

ولمـا بلغتـه شهـرة أبى الـبركـات بن الأنبـارى زم راحلته وتوجه إلى بغداد ليأخذ عنه وعمن في طبقته في بلاد العراق والجزيرة، لكن الأجل كان أسبق إلى أبى البركات من أبى البقـاء بن يعيش، فقـد بلغتـه وفـاته وهو مايزال في الموصل فوقف حيث انتهى. وفي الموصل التقى أبـو البقـاء بن يعيش بطـائفـة من علمائهـا فيهم أبـو الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي

---

(١) ترجمة في أنبـاه الـرواة ٤/ ٣٩، ووفيـات الأعيان ٧/ ٤٦، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٤، واشارة التعيين ٣٨٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٥، وبغية الوعاه ٢/ ٣٥١، وشذرات الذهب ٥/ ٢٢٨، والأعلام ٩/ ٢٧٢.

(٢) انظر أنباه الرواة ٤/ ٤٠، ووفيات الأعيان ٧/ ٤٧، وسير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٤٥.

(٣ - ٤) المصـادر السـابقة.

(٥) المصـادر السـابقة.

خطيب الموصل، الذي درس عليه في الحديث وروى عنه مشيخته كما ألتقى بأبي محمد عبد الله بن عمر التكريتي وأخذ عنه في الحديث وغيره[1].

ولما عزم على التصدر للدرس والإقراء قصد أبا اليمن تاج الدين زيد بن الحسن الكندي بدمشق (ت ٦١٣هـ)، وفاتحه عن مواضع مشكلة في العربية ليدل على مكانته وليظهر ما في وطابه، ومنها إعراب ما ذكره الحريري في آخر المقامة العاشرة المعروفة بالرحبية، وهي قوله : (حتى إذا لألأ الأفق ذنب السرحان ؛ وآن انبلاج الفجر وحان)[2] قال ابن خلكان : فاستبهم جواب هذا المكان على الكندي، لعل الأفق ذنب السرحان، مرفوعان أو منصوبان، أو الأفق مرفوع، وذنب السرحان منصوب أو على العكس. . . فقال له الكندي عند إبهام جوابها عليه : قد علمت قصدك وأنك أردت إعلامي مكانتك من هذا العلم[3].

تلاميـــــذه :

جلس أبو البقاء يعيش بن علي للدرس والإقراء بعد أن استكمل تحصيله العلمي، فأقبل عليه الدارسون من كلّ أوب وصوب يفيدون من علمه ويقيدون عنه في مختلف العلوم التي أدار عليها درسه، وبخاصة علوم العربية التي برع فيها وحقق العلم بها. وقد تخرج به جمع كثير من العلماء والوزراء وأبناء الولاة في مدينة حلب. التي كانت يومئذ أم البلاد في العلوم تمور بالعلماء والمشتغلين بالعلم[4]. وقد حفلت كتب التراجم والطبقات بأسماء طائفة من ألمع تلاميذه الذين ذاع صيتهم بين العلماء والدارسين، وبرعوا في مختلف المعارف والفنون، أمثال شمس الدين أحمد بن خلكان المتوفي سنة (٦٠٨-٦٦٨هـ)[5] والوزير جمال الدين علي بن يوسف القفطي المتوفي سنة (٦٤٦هـ)[6] ومحمد بن إبراهيم المعروف ببهاء الدين بن النحاس[7] المتوفي سنة (٦٩٨هـ) والإمام محمد بن مالك المشهور، المتوفي سنة

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) أنباه الرواة ٤/٤٤، ووفيات الأعيان ٦/٤٤. انظر مقامات الحريرى ١/٤٣٢.

(٣) وفيات الأعيان ٦/٤٦-٤٧، وأنباه الرواة ١/١٠، ٤/٤٤.

(٤) انظر وفيات الأعيان ٦/٤٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) انظر أنباه الرواة ٤/٤٤.

(٧) انظر سير أعلام النبلاء ٢٣/٤٥، والبنية ١/١٣١.

(٦٧٢هـ) وإسحاق بن إبراهيم بن النحاس أخو بهاء الدين بن النحاس الآنف الذكر[١]. والصاحب بن العديم، وابنه مجد الدين، وابن هامل، وأبو العباس الظاهري[٢]، وعبد الملك بن العنيفة[٣]، وستقر القضائي[٤]، وأبو بكر أحمد الدشتي[٥]. وهو آخر من روى عن أبى البقاء بن يعيش.

مكانته العلمية :

امتدت الحياة العلمية بأبى البقاء يعيش بن علي زهاء سبعين عاماً قضاها بين الدرس والتأليف، فبرع في كثير من علوم عصره وبخاصة علوم العربية التي كان متصدراً فيها محيطاً بشواردها، وقد كان لهذه الحياة الطويلة في الدرس والتأليف أثرها في انتشار شهرته العلمية وعلو مكانته بين العلماء والدارسين في عصره حتى قال عنه تلميذه ابن خلكان : كان الشيخ موفق الدين شيخ الجماعة في الأدب ولم يكن فيهم مثله[٦]، وقال القفطي : لو أنصفته ما أجريته في حلبة النحاة، ولولا أن النحو قنطرة الآداب لنزهته عن مشاركة من قصده ونحاه، فإني إن وصفته بالنحو فهو أديب. . إلى أن يقول : إمام إذا قاس قطع وإذا تربّع رَبْع الأدب برع وإن سئل بين المشكل وإن استفسر فصل المجمل، تصدر في زاوية أبى علي وجلى للطلبة غامض كلامه[٧].

ويقول في بيان وقاره وتواضعه العلمي : وفي هذا الموفق خصلة فاق بها أقرانه ـ ولا قِرنَ له ـ وإخالها منحة من الله، والله يهنئه ما خوله، وهو السكوت عن الإجابة عند السؤال. والسكون في أداء الجواب إذا تسرع غيره إلى الخطأ في المقال، ولقد سألته من سنين عن مسألة . . في موانع الصرف فصمت عن الجواب وكان في صمته الصواب فإنها أشكلت على الأئمة المتقدمين، حتى غلط في الإجابة عنها المبرد وناهيك به تقدماً في السابقين الأولين، فاستدللت بإمساكه على تحصيله واعتدَدتُ بطوله في تطويله، والسعيد من سكت عند الإشكال، والشقي من تسرع إلى الخطأ وعدم الاستقلال[٨].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، والبغية ١/٣٥٢.
(٦ ، ٧) وفيات الأعيان ٦/٤٦.
(٨) أنباه الرواة ٤/٤٠.

ونعتـه الـذهبي بقـولـه : وبـرع في النحـووصنف التصـانيف وبَعُد صِيتُه . . إلى أن يقـول : وكـان طويـلَ الـروح حسنَ الفهم طويـلَ البـاع في النقل ، ثقةً علامة كيّساً ، طيب المزاح حلو النادرة مع وِقارٍ ورزانةٍ[1] .

مــــؤلفاته :

ترك أبـو البقـاء بن يعيش تراثـاً طيبـاً في علوم العربية أمتد أثره في الخالفين من بعده ، وانتفع به الباحثون والدارسون منذ وفاته إلى يومنا هذا ، وقد اشتهر له من تراثه الذي خلفه كتابان ، هما :

١ ــ **شرح المفصل للزمخشري** : وهو من أوسع الشروحات التي كتبت على المفصل وأغـزرهـا مادةً وأجمعها لمسائل الخلاف وأدقها في توجيه عبارات الزمخشري ، وفهم مقاصده ، وقد حظي هذا الشرح بعناية العلماء فأجالوا النظر فيه وأفادوا منه وقدموه على أكثر الشروح التي كتبت على المفصل ، وكان القفطي تلميذ ابن يعيش أكثر العلماء إعجاباً به وتعويلاً على مؤلفـاتـه ، قال في وصف شرح ابن يعيش : (وشـرح كتاب المفصل للزمخشري فوصل به ما فصله وفـرق على المستفيـدين ما أجمله ، وأستقى له من رَكيّـة النحـوما جم له . . إلى أن يقـول : وبسـط فيـه القـول بسطـاً أعيـا الشـارحـين وأظهـر من عونهِ ، وعيونهِ ما فتح له باباً للمادحـين . وقـد فضله على الشـروح التي أعـدت على المفصـل ، وعـد جيدها ما صار فيه صاحبـه على نسق ابن يعيش (واتبـع فيـه طريقتـه ووفق إلى مرتبـة ترتيبـه وحقيقة تحقيقه ، واقتدى به في إزالة الإشكال والاشتباه)[2] .

٢ ــ **شرح التصـريف الملوكى** : وقـد نشـر سنة ١٩٧٣م بتحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ويقع في ٥٥٢ صحيفة .

ــ مسائل أجاب عليها أبو البقاء بن يعيش ــ :

وهي ثلاث عشـرة مسألـة في النحـو والصـرف أجاب عليها أبو البقاء بن يعيش إجابةً وافيـة جمعت بين البسـط وبـين الإيجـاز ، واعتمـد فيها بسط وأوجز على أدلة السماع والقياس والنقل عن أئمة العربية : سيبويه والمبرد وابن السراج وغيرهم .

توجد هذه المسائل فى مكتبة كبر يلي بأسطنبول ضمن المجموع ٤٣٢٨ .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣/١٤٥ .

(٢) أنباه الرواة ٤/٤٠، ٤١ وانظر وفيات الأعيان ٦/٤٧ .

وفـــاتـه :

توفى أبو البقاء بن يعيش في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٤٣ بعد حياة حافلة بالـدرس العلمى والعطـاء الفكـرى الـذي استمر أثره إلى يومنا، لأنه عمله لله، والله يحفظ ما عُمِل له(١).

توثيـق المســائل :

١ ــ وردت نسبـة هذه المسـائـل إلى الحافظ أبى البقاء بن يعيش في مقدمة المسائل، قال بعد البسملة قال الشيخ الإمام الحافظ أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش : هذه مسائل وردت علينا من دمشق على يد الفقيه أبى نصر الدمشقي ـ رحمه الله ـ.

٢ ــ هذه المسـائـل تمثـل منهـج ابن يعيش وأسلوبـه في تحريـر المسائل العلمية وتوجيه القول على مقتضى السماع والقياس.

٣ ــ أننا نجد لبعض هذه المسائل أصلا في شرح المفصل إما بنصها وإما بعبارة قريبة منها إلى جانب التوافق في التعليل والتحقيق المفيد الذي أدار عليه شرح المفصل. وقد نبهت على ذلك في التعليق على هذه المسائل، وانظر على سبيل المثال الأجزاء ٣/ ٩٥ و٥/ ١٣٨، و٦/ ٩٤ـ٩٥، ٤٠٦، و٧/ ١١٢، و٨/ ٧٢.

* * * * *

(١) انظر أنباه الرواه ٤/ ٤١.

مَسَائِلُ فِي ٱلنَّحْوِ

لِأَبِي ٱلْبَقَاءِ يَعِيش بْنِ عَلِي بْنِ يَعِيش ٱلنَّحْوِيّ ٱلْحَلَبِيّ



مسائل في النحو أجاب عليها أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي

قال الشيخ الإمام الحافظ أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي ـ رحمه الله ـ :

هذه مسائل وردت علينا من دمشق على يد الشيخ الفقيه العالم الحافظ أبى نصر الدمشقي[1] ـ رحمه الله ـ فأمليت ما حضر من الكلام عليها وبالله التوفيق .

المسألة الأولى : كونهُ قائماً.

بماذا يَنتصبُ قائماً، لأنّ المفتقِرةَ لا مَصدَر لها، والتّامةَ لا عملَ لها في خبرٍ، بل يُرفَعُ ما بعدها بحقّ الفاعل، فهي بمعنى الحدُوثِ والوقوع .

والجواب : اعلم أنّ كان الناقصةَ مخالفَةٌ لغيرها مِن الأفعال الحقيقية / إذ كل فعلٍ دالٍ على الحدث الذي أخذ منه، وعلى زمن وجود ذلك الحدث، ولذلك يؤكد بالمصدر، فتقول : ضرب زيدٌ عمراً ضرباً وقعد خالدٌ قعوداً، وهذا الفعل ـ أعنى ـ كان إذا كان دالاً على الزمان مجرداً من الحدث وصار الخبر بعده مُغْنياً عما اختُزل من الحدث، ولذلك كانت ناقصةً، ولزم خبرها ولم يسمعْ حذفُهُ مع أن فيه أمرين كل واحد منهما يسوغ الحذف : كونه مفعولاً[2] والمفعول يجوز حذفه وسقوطه من اللفظ، والآخر كونه خبراً للمبتدأ في الأصل، وخبر المبتدأ يجوز سقوطه أيضاً إذا كان في اللفظ ما يدل عليه، ومع ذلك لا يجوز سقوطه مع كان لأنه قد صار عوضاً من الحدث، ولأجل أن كان يفيد الحدث لا يجوز أن يؤكد بالمصدر، فلا يقال : كان زيدٌ قائماً كوناً كما يقال : قام زيدٌ قياماً، لأن التأكيد تمكين بما أفاده اللفظ الأول، فإذا لم يفد اللفظ حدثاً لا يصح تأكيده بحدثٍ ؛ فأما قولهم : كونه قائماً ونحو ذلك فإنما هو كلام محمول على معناه دون لفظه، وذلك أن المصدر يقدر بأن والفعل فكأن

٣٤/ب

(١) لم أقف على ترجمة له فيما اطلعت عليه من المراجع وكتب التراجم والطبقات.

(٢) القول بأن خبر كان مفعول به هو المفهوم من كلام سيبويه، قال في ترجمة الباب : (هذا باب الفعل الذى يتعدى به اسم الفاعل إلى اسم المفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لاسم واحد) ونزل خبر كان منزلة المفعول الثانى في باب ظن وعدم الاقتصار على الفاعل دون المفعول. وقد تابعه المبرد وابن السراج، انظر الكتاب ١ /٢١ ، والمقتضب ٣/٩٧-٩٨، والأصول ٢ /٢٨٨-٢٩١ ، والإنصاف ١ /٤٤١-٤٤٣ ، والتبيين ٣٠، والمغنى لابن فلاح ١ ق ٦٩.

التقدير : وان كان قائماً فانتصاب المصدر ههنا باعتبار الفعل المقدر لا باعتبار المصدر الملفوظ به ، فاعرفه[1] .

المسألة الثانية : قوله تعالى : ﴿**أصحاب الجنة يومئذٍ خير مستقراً**﴾[2] .

«أصحاب الجنة» رفع بالابتداء والخبر «خير» وفيه ضمير يعود على المبتدأ ولم يجمع الخبر مجمع المخبر عنه لأن من مرادة هنا ، والتقدير : أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً من غيرهم[3] وساغ حذفها لمكان العلم بها ، ومن يسوغ حذفها إذا وقعت في الخبر نحو : قوله تعالى : ﴿**الله أكبر**﴾[4] ولا يحسن الحذف / معها إذا كانت صفةً ، لأن الصفة تذكر للبيان والإيضاح فهو بالاسهاب والإكثار أجدر منه بالحذف ، وأفعل إذا كانت مشفوعةً بمن كانت في معنى الفعل ويبعد من شبه اسم الفاعل فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث بل يكون بلفظ واحدٍ في الأحوال كلها نحو قولك : زيد أفضل من عمروٍ والزيدان أفضل من خالدٍ ، والزيدون أفضل من جعفرٍ ، فالمراد أنه يفضلهم ويزيد فضله عليهم فلذلك لم يجمع وإن كان هو الأول فى المعنى فأما قول السائل : إن الخبر هنا ليس هو الأول غير صحيح بل هو الأول إلا أنه لم يجمع لما ذكرناه ، و«مستقراً» هنا نصب على التمييز والفعل له في الحقيقة : وإنما نقل إلى الأول حتى صار الفعل له في اللفظ كما يقال : طبت نفساً والمراد به طابت به نفسي ، ولو أضفت وقلت : خير مستقر لم يصح أن يكون خبراً لأنه غير الأول حينئذ فلا يكون خبراً إلا على حذف مضافٍ تقديره : مستقر أصحاب الجنة يومئذ خيرٌ مستقرا ، وأصحاب الجنة يومئذ ذوو خير مستقر لابد من ذلك ، لأن أفعل لا تضاف إلا إلى شيىء هو بعضه وأصحاب الجنة ليسوا من المكان الذي هو مستقر في شيء ، ونظير ذلك لو قلت : يوسف أفضل عبد كان من العبيد ، ولو نصبت فقلت : أفضل عبد لكان عبيده يفضلون عبيد غيره ولا يكون من العبيد .

فأما الظرف الذي هو «يومئذ» فإنه يتعلق بالخبر الذي هو خير وإن قُدِّمَ عليه .

٣٥/أ

---

(١) يشير بهذا إلى شرط إعمال المصدر عمل فعله ، وهو أن يحل محله فعل إما مع أن ، نحو : سرنى إكرامُ الضيف أى أن أكرم أو مع ما نحو: يعجبني بذل المال غداً ، أي ما يبذل . . . انظر التبصرة ١ / ٢٣٩ ، وشرح ابن يعيش ٦ / ٦٠ ، والإيضاح لابن الحاجب ٦٣٨/١ ، وشرح الكافية الشافية ٢ / ١٠١٢ .

(٢) سورة الفرقان آية ٢٤ .

(٣) هذا بناء على حمل «خير» على بابها فيكون التفضيل بين المستقرين والمقيلين ، باعتبار الزمان ، والمعنى : أهل الجنة خير مستقراً في الآخرة من المترفين في الدنيا وأحسن فضلاً في الآخرة من أولئك في الدنيا . . . انظر البحر المحيط ٦ / ٤٩٣ .

(٤) من آية ٧٢ ﴿**ورضوان من الله أكبر**﴾ سورة التوبة .

المســألة الثالثة : عند، وسوى، وغير، وكل، هل يجوز تصغيرهن أو لا ؟

الجـــواب : هذه الأسماء لم يسمع تصغيرها والقياس يأباه، أما عند فلا تصغر لعدم تمكنها، ولأن الغرض من تصغير الظروف التقريب كَتُحَيِّت وفويق إذا أريد القرب، وعند في غاية القرب فلما دل لفظ مُكَبَّره على مُصَغْرِهِ لم يحتج إلى تصغيرها[1] مع أن التصغير وصف من جهـة المعنى ألا ترى أنـك إذا قلت : رجيـل فمعنـاه رجـل صغير، وإذا كان كذلك فلا يسوغ تصغير عند كما لا يسوغ وصفها.

أما غير فلا تصغر بخلاف مثل فإنها تصغر فيقول : مثيل هذا[2] ولا تقول : عنيدة، وذلك من قبيل أن المماثلة ـ قد تختلف بأن تقل وتكثر ألا ترى أنك تقول : هذا أكثر مماثلة من هذا، وهـذا أقـل مماثلةً من هذا، وليست غير كذلـك لأن غير اسم لكـل ما لم يكن المضاف إليه، فإذا قلت : غيرك فكل من عداك فهوغيرك، وليس في كون غيره معنى يكون أنقص من معنى فتصغر الناقص.

وأما سوى فكغير مع ما في سوى من عدم التمكين وامتناع وصفها.

وأمـا كل فلا أرى في تصغـيرهـا فائـدة وذلـك أن كلا اسم لجميع أجزاء الشيء ـ فهو للعموم، والكثرة والتصغير ينافى هذا المعنى مع أن الشيء إنما يكون صغيراً حقيراً بالإضافة إلى ما له ذلك الاسم وهو أكثر منه، وهذا المعنى مفقود في كل فاعرفه[3].

المســألة الرابعة : الميم في أنتما.

وذلك أن الميم في أنتما لأي شيء جيء بها وقد حصل بها مجاوزة الواحد بالألف ؟

الجـــواب : أن الميم في أنتما وأنتم جيء بها لمجاوزة الواحد وجيء بالألف في التثنية والـواو في الجمـع، نحـو : أنتما، وأنتمو للدلالة على العدد، ولم يكتفوا بدلالة الألف وحدها والـواو وحـدهـا، فيقال : أنتا وأنتو لئلا تصير الأسماء كأواخر الأفعال، نحو : ضربا وضربوا

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٥/١٣٨.

(٢) من أمثلة سيبويه في الكتاب ٢/١٣٥ : وما أقول العرب : هو مثيل هذا وأميثل هذا فإنما أرادوا أن يخبروا أن المشبه حقيرٌ كما أن المُشبه به حقيرٌ، وانظر المقتضب ٢/٢٧٣، والأصول ٢/٦١.

(٣) النص في شرح المفصل ٥/١٣٨ باختلاف في بعض الجمل والتراكيب.

فزادوا الميم لتكون زيادة الأسماء مخالفةً لزيادة الأفعال، وخصوا الأفعال بالزيادة الواحدة والأسماء بالزيادتين لخفة الأسماء وثقل الأفعال وقد يحذفون الواو في صيغة الجمع تخفيفاً، فيقولون : أنتم وغلامكم[1] لثقل الواو مع الأمن من اللبس بالتثنية إذ لو زيدت التثنية لجيء بالألف البتة[2] وذلك لخفة الألف لم يجز حذفها بخلاف الواو فإنه بثقلها تحذف ألا ترى أن من يقول في عضد عضد بالإسكان لا يقول في قَلَمٍ : قَلْمٌ بالإسكان لخفة الفتحة وهي من الألف والضمة من الواو.

المسألة الخامسة : المصدر العامل عمل فعله يجوز حذف الفاعل معه في كثيرٍ من الكلام ولا يجوز حذفه مع الفعل في موضعٍ من المواضع فما الفرق بينهما ؟

الجواب : إن الفعل لابد له من الفاعل إذا كان خبراً أو مسنداً إليه وبه ينعقد الكلام فحذف الفاعل يخل بفائدة الإسناد وإذا أريد حذف الفاعل أضمر في الفعل. وأما المصدر فإن فاعله من تتمة الاسم وتوضيحاته ولا ينعقد منه مع المصدر كلام، ألا ترى أنك إذا قلت : أعجبنى ضرب زيدٍ عمراً كان المصدر مع ما بعده من تتمة الاسم بمنزلة ضرب زيدٌ عمراً، وانعقاد الكلام إنما كان بإسناد الإعجاب إليه لا بمجرد المصدر مع معموله، لأن المصدر مع ما أضيف إليه وتعلق به بمنزلة اسمٍ واحدٍ. ولما كان المصدر اسماً غير فعلٍ ولا مشتق من الفعل[3] على سبيل الصفة لم يجز إضمار الفاعل فيه كما لم يجز الإضمار في سائر أسماء الأجناس فحينئذٍ تحذف جزماً وتنوى ثبوته، نحو قوله تعالى : ﴿**أو طعامٌ في يومٍ ذى مسغبةٍ يتيماً**﴾[4]. والمراد أنتم[5] فحذف الفاعل مع المصدر / كما نبهوا بذلك على استغنائه عن الفاعل لكونه اسماً صريحاً والأسماء في الأصل مكتفية بأنفسها مستغنيةٌ عن غيرها والأفعال ليست كذلك.

---

(١) أشار المصنف إلى هذا التوجيه في شرح المفصل ٣/٩٥.

(٢) البتّة : مصدر مؤكد لا يستعمل إلا بالألف واللام يقال لا أفعله البتة للأمر الذي لا رجعة فيه، ونصبه على المصدر، ولا يكون إلا معرفة عند سيبويه، وسائر البصريين، وذهب الفراء من الكوفيين إلى تنكيره... انظر: سيبويه ١/١٩٠ والتنبيه والإيضاح (بتت) واللسان (بتت).

(٣) هذا هو مذهب البصريين، أما الكوفيون فيرون أن الفعل أصل والمصدر مشتق منه، انظر تفاصيل الخلاف في الأصول لابن السراج ١/١٣٧ والإيضاح للزجاجى ٥٦ والخصائص ١/١١٣، ١٢١ والإنصاف المسألة (٢٨) والتبيين ١٤٣، ١٤٩.

(٤) سورة البلد: آية ١٤.

(٥) قدره في شرح المفصل ٦/١١ بهو.

المســألـة الســادســة : إذا قيل كان زيدٌ قائماً ؟ كيف الإخبار عن زيدٍ بالذي وبالألف واللام وعن قائم ؟

فالجــواب : إذا أخبرت عن زيدٍ بقولك : كان زيدٌ قائماً، قلت : الذي كان قائماً زيدٌ، أتيت بضميرٍ مرفوعٍ موضع زيد الذي هو اسم كان فاستتر في كان وأخرت زيداً إلى آخر الكلام وجعلته الخبر عن الموصول، إذ لو قدمته على قائم كنت فاصلاً بين ما هو الصلة والموصول وهو أجنبي من الصلة إذ لا عمل له فيه.

وتقول في الإخبار بالألف واللام أو إلى مدلولها على الخلاف[1] وزيد المخبر.

ولو أخبرت عن قائم لقلت : الذي كان زيدٌ إياه قائمٌ وضعت موضع الخبر ضميراً منفصلاً، وإن شئت أتيت به متصلاً، فتقول : الذي كان زيدٌ قائم، وإن شئت الكائنة زيد قائم فتكون الهاء فى الكائنة في محل نصب كما تقول : الضاربة زيدٌ فإن / الهاء في محل نصب وقد منع قوم من الإخبار عن المفعول في هذا الباب، قال ابن السراج هو قبيح[2] لأنه ليس مفعولاً على الحقيقة وإضماره متصلاً إنما هو مجاز لأن حقيقة المفعول أن يكون غير الفاعل، نحو : ضرب زيدٌ عمراً، وفي هذا الباب ليست شيئاً غير الفاعل فاعرفه.

المســألة السابعة : إذا قيل يا زيدون، هل هو معربٌ أو مبني ؟ فإن كان معرباً فما وجه رفعه وليس لنا مرفوع في هذا الباب أصلاً ولا جائز أن يكون مبنياً مع وجود الواو والنون.

الجــواب : إذا ناديت جماعةً هذه أسماؤهم وقصدتهم دون غيرهم صار الاسم معرفةً بالقصد لأن تعريف العلمية زال بالجمع وبنى على الضم كما يبني يا رجل إذا قصدت واحداً بهيئته بعينه، نحو قوله[3] :

.... ويلى عليك وويلى منك يا رجل[4]

---

(١) يريد ـ والله أعلم ـ ان الإخبار عن الألف واللام بزيدٍ مثل الذي مع اختلافٍ في مدلول اللام، نحو: الكائن قائماً زيدٌ، فيؤتى باسم الفاعل من كان الناقصة صلة لأل على القول باسمية أل، وقائماً خبر ولاسم مستتر يعود على أل، وزيد خبر أل، والباء بمعنى عن كما هو معروف في هذه المسألة.

(٢) في الأصول لابن السراج ٢ / ٢٧١ : فان أخبرت عن المفعول بالألف واللام قلت: الضاربة أنا زيدٌ وكان حذفها قبيحاً. . . وانظر: شرح المفصل للمصنف ١٥٨/٣.

(٣) هو الأعشى ميمون بن قيس كما في ديوانه ٥٧، والجمل ١٥٣، وشرح عيون الإعراب ٢٥٩، والحلل ١٩٤، وشرح ابن يعيش على المفصل ١ / ١٢٩.

(٤) صدره : قالت هريرة لما جئت زائرها. =

وتكون الواو بمنزلة الضمة في المفرد، ونظير ذلك قولك في النفي : لا رجلين في الدار فيكون مبنياً بمنزلة لا رجل فالياء في رجلين كالفتحة في رجل لأن هذه الحروف وسيلة الحركات في الدلالة.

هذا هو مذهب سيبويه في رجلين[1].

وأبو العباس كان يذهب إلى امتناعه[2] فإنما ذلك لاستبعاد تركيب شيئين، أحدهما مبني لا لأن الياء لا تقوم مقام الفتحة.

المسألة الثامنة : قولهم : قيل إن زيداً قائم، مالذى يقوم مقام الفاعل لهذا الفعل، لا جائز أن تقام إن وما عملت فيه، لأنه جملةٌ، والجملة لا تكون فاعلةً ولا قائمةً مقامه لإيغالها في التنكير، كيف والفاعل يضمر ولا جائزٌ أن يروح إلى مصدر مبهمٍ[3]، لأن الفعل دالٌ عليه بلفظه ولا فائدة في الإتيان به وإسناد الفعل إليه لا فائدة فيه إذا كان مستفاداً من لفظ الفعل.

الجواب : اعلم أن قال فعل متعد ولهذا يتصل به الضمير المنصوب فتقول : قيل وتصوغ منه اسم مفعولٍ فتقول مقولٌ، وذلك كله من خصائص التعدى ومفعوله يكون جملةً محكيةً، نحو، قولك : زيدٌ عمروٌ منطلقٌ، إذا حكي قول من قال ذلك، وكذلك سيبويه - رحمه الله - : وإنما تحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً[4].

ومعنى قولنا إنه محكي أن القول غير عاملٍ في لفظه بل في محله وموضعه وإذا كان كذلك فالقول بعد القول في تقدير مصدرٍ منصوبٍ انتصاب المفعول به من حيث كان كلاماً / فإذا بنيته لما لم يسم فاعله أقمت تلك الجملة المحكية مقام الفاعل لأنها مفعولة ولذلك قيل إنها في مسألتنا محكيةٌ، فهي في تأويل المفرد فقام مقام الفاعل إذا بني لما لم يسم ٣٧

= والبيت في شرح جمل الزجاجي لابن هشام ٣٣٣ غير منسوب وويلى في الموضعين مصدر منصوب بفعل من غير لفظ الفعل، ومثله ويح وويه وويت وويس، وإنما لم يكن لهذه المصادر فعل من لفظها لأن الفاء والعين فيها من حروف العلة. ويصح أن يكون مبتدأ خبره متعلق الجار والمجرور بعده... انظر: البيان ١/ ٩٥ المصادر السابقة والشاهد قوله (يا رجل) حيث جاء المنادى مبنى على الضمة لأنه نكرة مقصودة بعينها.

(١) انظر سيبويه ١/ ٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر المقتضب ٣٥٧ والأصول لابن السراج ١/ ٣٨٠-٣٨١ شرح المفصل ١/ ١٠٦.

(٣) يريد أنه لا يسند إلى المصدر، لأن حذاق الصنعة من أهل العربية منعوا إسناد الفعل إلى المصدر.

(٤) سيبويه ٢/ ٦٢.

فاعله، ولـذلـك يجوز تقـديم الجملة إذا كانت مفعولة، فتقول : زيد قائمٌ قال زيد، ويمتنع زيدٌ قائمٌ قيل لأن الجملة في موضع الفاعل والفاعل لا يتقدم.

المســألــة التـاسعـة : إنْ وأنْ المخففتـان من الثقيلة إذا لم يعمـلا لم يلزم الإضـمار في المفتـوحـة دون المكسـورة وحكمهـما واحـد في العمـل، والمفتـوحة إذا وليها لا جاز أن تجعلها المخففة من الثقيلة وتضمر فيها وجاز أن تجعلها ناصبةً للأفعال المستقبلة وتنوى زيادة لا وذلك لا يجوز مع السين وسوف والجميع للتعويض.

الجــواب : هذا السؤ ال فيه اضطراب ومقارنات فاسدة إن وأن إذا لم يعملا لم يلزم الإضمار في المفتوحة دون المكسورة وحكمهما واحدٌ ليس بصحيح بل حكمهما يختلف على ما سنبينه.

وقـولـه : إنَّ المفتـوحـة إذا وليهـا لا جاز أنْ يجعلها المخففة من الثقيلة وجاز أن يجعلها الناصبة للفعل فليس ذلك على الاطلاق ولا لأمرٍ راجعٍ إلى لا؛ بل لما سنذكره إن شاء الله.

اعلم أنَّ إنْ المكسـورة إذا خففت بطـل عملهـا ظاهراً وباطناً وذلك أنَّ إنْ إنما عملت لشبهها بالفعل من جهة لفظها على أكثر من حرفين، إنّ زيداً لقائم، قال تعالى : ﴿**إنْ كلّ نفس لمّا عليها حافظ**﴾[1] هذا هو مذهب أكثر النحويين[2] وبعضُهم يُعمِلُها مخففةً كما يُعمِلُها مثقلة[3]، ويحتـج بأنّ حذفَ إحـدى النُّـونـين إنـما كان لضـربٍ من التّخفِيفِ ومـا حذف للتخفيف يكون في حكم الثابت الملفوظ به، ألا ترى أنهم يقولون يقضو الرجل بالسكون، ورضى بالسكـون، ولا يردون اليـاء والـواو إلى أصلها وذلك أن أصل قضو قضى بالياء لأنه من لفـظ قضيت ورضى من الـواو من الـرضـوان لم يردوا ذلك الأصل حيث كان حذف هذه

---

(١) سورة الطارق آية ٤.

(٢) ما ذكـره المصنف هو ما عنـاه سيبـويـه بقـوله : وأما أكثرهم فأدخلوها في حروف الابتداء حين حذفوا كما أدخلوها في حروف الابتداء حين ضموا إليها ما... انظر: الكتاب ١/٢٨٣ وشرح ابن يعيش ٨/٧٢.

(٣) إعمال إن المخففة المكسورة الهمزة ورد في إستعمال العرب وأساليبها قال سيبويه : حدثنا من نثق به أنه سمع من العرب من يقول: إن عمرًا المنطلقٌ، ثم أورد قراءتى نافع وابن كثير لآية هود (١١١) ﴿**وان كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم**﴾ بتخفيف إن المكسورة ونصب كلا اسماً لها، وبهـذه الآيـة احتـج البصـريـون على إعمال (إن) المكسورة الهمزة وبالقياس على (**لم يك**، ولم أبل ولا أدر) ومنع الكـوفيـون إعـمالهـا لعـدم مشابتها الفعل الماضى المبنى على الفتحة، وأنكر الكسائي قراءة التخفيف في الآية السابقة بقوله : ما أدرى على أى شيء قرأ «وان كلا» ووجه الفراء النصب فى (كلا) على أنه بالفعل بعد «ليوفينهم» لكنه قال: وهو وجه لا أشتهيه... انظر الكتـاب ٢٨٣، ومعـانى القـرآن ٢/٢٩ـ٣٠، وإعـراب القرآن ٢/١١٤ـ١١٥، وحجة القراءات ٣٥٠، والكشف ١/٥٣٦ـ٥٣٧، والأزهية ٣٥، والإنصاف ١/١١١ـ١١٥، والتبيين ٣٤٧ـ٣٥٢.

الحركات للتخفيف فهو في حكمه الملفوظ به فلذلك أعملها، فَمَنْ يُهمِلها أدخل اللام في خبرها للفصل بينها وبين إن النافية لأن لفظها قد صار شيئاً واحداً وخُصّت اللام بذلك لأنها كانت تدخلها للتأكيد قبل التخفيف فجاءوا بها بعد التخفيف للإيذان بأنها مخففة من تلك التي كانت هذه اللام تدخل عليها للتأكيد، ومن يعملها لم يحتج إلى الفرق لأن العمل فارقٌ، وأما المفتوحة فإذا خففت فإنه لا يبطل عملها نحو: علمت أن زيداً قائمٌ، وإذا رفع لاسم بعدها كان على إضمار الشأن، نحو قوله[1]:

في فتيةٍ كسيوفِ الهندِ قد عَلِموا ... أنْ هالكٌ كلُّ مَنْ يَحْفى ويَنتعلُ

فالمراد: أنه هالك لأن ضميرَ الشأنِ والحديثِ يُفسَّر بجملة بعده وإنما لم يبطل عملُ المفتوحة كما بطل عمل المكسورة مع أن لفظها قد نقص أيضاً لأن المفتوحةَ أشدّ طلباً لما بعدها من المكسورة وذلك أنها تقتضي ما بعدها من جهتين: أقتضاء العامل للمعمول والصلة للموصول، والموصولة تقتضي ما بعدها من جهة واحدةٍ فافترق حالها فلذلك كان القول بأن حكمها / واحدٌ تسمّحٌ.

ويقع بعدها الفعل فإذا كان ذلك لزمها العوض، وذلك السين وسوف في الواجب، ولا في النفي، نحو: قولك: علمت أن سيقوم زيدٌ وأن سوف يقوم زيدٌ، وأن لا يقوم، كأنهم عوضوها مما لحقها من التخفيف[2] ولإيلائها ما لم يكن يليها فإذا كان قبل أن فعل غير يقيني نحو أن يكون فعل طمعٍ واشفاقٍ فإنها تكون الناصبة للفعل المستقبل، لأن تلك الأفعال معلقٌ معناها بالمستقبل، والناصبة للفعل تقتضي الاستقبال، فإن كان فعل علم يقين: علمت وتحققت وشببهها فإنها تكون المخففة من الثقيلة وتلزمها العوض نحو: علم

---

(١) هو الأعشى كما في ديوانه ٥٩ ورواية الشطر الثاني فيه (أن ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل).

وهو برواية المصنف في الكتاب ١/٢٨٢، ١٢٣/٤٤٠ ومعانى القرآن للأخفش ٢/٢٩٩، والمقتضب ٣/٩، والأصول ٢/٢٣٩، وشرح أبيات سيبويه لابن النحاس ١٢٤، وابن السيرافى ٢/٧٦، والخصائص ٢/٤٤١، والمحتسب ١/٣١٨ ٢/١٠٣، والمصنف ٣/١٢٩، والأزهية ٥٧، والنكت في تفسير كتاب سيبويه ١/٥١٥ـ٥١٦، وأمالى ابن الشجرى ٢/٢، والإنصاف ١٩٩، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/٧٤. والفتية جمع فتى وهو الشاب (في فتية) في هنا بمعنى مع، أى مع فتية كالسيوف. وجملة (قد علموا) في محل جر صفة لفتية، وفي البيت تشبيه الفتية بالسيوف في مضائهم وعزمهم، أوفي صباحة وجوههم التي تلمع كالسيوف. (أن هالك) سدت مسد مفعولى علم. والشاهد إضمار اسم أن في قوله (أن هالك) لأن أن إذا خففت ووليها ما يقوم بنفسه من مبتدأ أوخبر أو فعل وفاعل حذف اسمها على تقدير ضمير الشأن أو القصة.

(٢) انظر الأزهية ٦١، مشكل إعراب القرآن ٢/٤٢٢، والتبيان ٢/٤٧٢.

أن سيقوم، وتحقق أن لا تذهب، قال تعالى : ﴿**عَلِم أنْ سيكون منكم مرضى**﴾[1] لأن المخففة من الثقيلة في التأكيد كالمثقلة فناسب أن يكون قبلها فعلٌ يدل على اللزوم والثبات، فإن كان قبلها فعلٌ من أفعال الظن والحسبان نحو : ظننت وحسبت جاز فيها الأمران نحو : حسبت أن لا يخرج بالرفع والنصب وذلك لأن الأفعال فيها طرفٌ من اليقين وطرفٌ من الشك، فالرفع باعتبار اليقين والنصب باعتبار الشك، قال تعالى : ﴿**وحسبوا ألا تكون فتنةٌ**﴾[2] بالرفع[3] والنصب[4] على ما قلنا.

ولا يكون مع السين وسوف إلا المخففة من الثقيلة وذلك من قبيل أن الناصبة للفعل تصرف الفعل للمستقبل.

والسين وسوف تفعلان ذلك فلم يُجمعْ بينهما كما لا يُجمَعُ بين تعريفين في اسمٍ واحدٍ، فامتِناعُ النصب مع السين وسوف وجوازه مع لا لم يكن لأمرٍ يَرجِعُ إلى لا كما ظنّ هذا السائل بل كان لما ذكرنَاه فاعرِفْهُ.

المسألة العاشرة : قال : إذا كانت إنْ بمعنى ما النافية - هل - يجوز إعمالُها عملَ ما على اللغة الحجازية أم لا ؟

الجواب : إنْ النافية لا عمل لها وقد جاءت معملة، وسيبويه لا يرى ذلك، لأنها مشبهة بما[5] وإعمال ما في القياس ضعيفٌ لعدم اختصاصها بالأسماء وإنْ كذلك غير مختصة، قال تعالى : ﴿**إنْ كانتْ إلا صيحةً واحدةً**﴾[6] ﴿**إنْ يتبعون إلا الظن**﴾[7] وقال تعالى : ﴿**إن الحكمُ إلا لله**﴾[8] وإذا كان إعمال ما ضعيف مع أنها أظهر في النفي ويدخل في

---

(١) سورة المزمل آية ٢٠

(٢) سورة المائدة آية ٧١.

(٣) الرفع على قراءة أبى عمرو وحمزة والكسائي وعلى هذا الوجه تكون حسب لليقين وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، ولا عوض عما حذف منها، والتقدير: وحسبوا أنه.

(٤) وبه قرأ باقي السبعة، وعلى هذا الوجه أن حرف مصدرى ينصب الفعل المضارع، وحسب يفيد الشك. انظر الكتاب ١/٤٨١، وحجة القراءات ٢٣٣، والكشف ١/٤١٦.

(٥) انظر الكتاب ١/٤٧٥، والمقتضب ٢/٣٥٩، والأزهية ٣٢.

(٦) سورة يس آية ٢٩.

(٧) سورة الأنعام آية ١٤٨.

(٨) سورة يوسف آية ٤٠.

خبرها الباء التالية النفي كان أن لا يعمل في إن أجدر، وهذا مذهب سيبويه وذهب المبرد(١) إلى جواز إعمالها قياساً على ما.

المسألة الحادية عشر(ة)(٢): إذا قلتَ: مررت برجل زيد، كيف يخبر عن التاء في مررت وعن زيد وعن الرجل بالذي وبالألف واللام.

الجواب: إذا أخبرتَ عن التاء من قولك: مررت برجلٍ زيد، قلت: الذي مر برجل زيد أنا، وبالألف واللام: المار برجل زيد أنا، أزلت ضمير المتكلم وجعلت مكانه ضمير الغيبة يعود إلى الموصول واستتر الضمير في الفعل لكونه مرفوعاً وأخرت تاء المتكلم إلى آخر الكلام ووضعت مكانه ضميراً منفصلا لتعذر المتصل وجعلته الخبر عن الموصول فإن أخبرت عن الرجل فقد اختلف النحويون في الإخبار عن مثله فمنهم من لا يجيز الإخبار عن المبدل منه إلا والبدل معه(٣) كما يفعل في النعت فتقول: الذي مررت به رجل زيدٌ، وبالألف واللام: المار به أنا رجل زيد، تجعل الرجل خبراً ثم تبدل زيد منه كما كان في أصل المسألة، وأبرزت الضمير لأنه جرى على غير من هو له، إذ الفعل للمتكلم وقد جرى على اللام. ومنهم من يجيز الإخبار عن المبدل منه دون البدل، فتقول على هذا: الذي مررت به زيد رجل، فتبدل زيد من الاسم المضمر كما كان بدلاً من / مظهره، والألف واللام: المار به زيدٌ أنا رجل، وأراه جائزاً على قبح.

وخالف النعت لأن المضمر لا ينعت ولا ينعت به، فإن أخبرت عن زيد في المسألة بالذي، قلت: الذي مررت برجل به زيد، وبالألف واللام: المار أنا برجل به زيد، قال المازنى: وهو قبيحٌ(٤)، ومن أجاز ذلك أجاز زيد ضربت أخاك إياه، ويريد أن البدل فضله، وكما ليس في الكلام(٥)ـ ومتى أسقط استغنى الكلام عنه، وإذا كان كذلك، فلو قلت:

---

(١) في المقتضب ٢/٣٥٩ إشارة إلى أن غير سيبويه يجيز نصب الخبر بها تشبيها بليس كما فعل في (ما) ورجع هذا القول لأنه لا فصل بينها وبين ما فى المعنى، وإلى هذا القول ذهب جماعة من النحاة منهم ابن السراج في الأصول ١/٢٣٦. ونسب الهروى في الأزهية ٣٣ هذا القول للكسائي... انظر: المحتسب ١/٢٧٠، والمغنى لابن فلاح ١/ق ٨٧ والبحر المحيط ٤/٤٤٤، والجنى الداني ٢٢٩.

(٢) حذفت التاء فى الأصل وليس لذلك وجه فوضعنا بين الحاصرتين.

(٣) عزا ابن السراج في الأصول ٢/٣٠٤ هذا الوجه إلى المازنى، ثم قال: وإلى هذا أذهب، وانظر المقتضب ٣/١١١، وشرح الكافية ٢/٤٢، وشرح جمل الزجاجى ٢/٥٠٥ـ٥٠٧.

(٤) انظر الأصول ٢/٣٠٥.

(٥) هذا النص مقلق لا يفهم منه المراد.

الـذي مررت برجـل، أو المـار أنـا برجـل لكان فاسداً[1] لخلو الصلة عن العائد وهو جائز مع قبحه، لأن البدل ملتبس بالمبدل منه كالمسألة.

المســألـة الثـانيـة عشـر(ة) : إذا قيـل أحـوج ما أنت إليـه النحـو، هل يكون كلاماً صحيحاً أو لا ؟

الجـــواب : هذا كلام فيـه اضطـرابٌ لا يكـاد يصـح به النظر فيه، وإن كان ظاهره متصلاً وذلك لأمرين :

أحدهما : أن النحو مفعول من حيث أنه محتاج إليه، وأفعل لا يبنى من المفعول[2]، لا يقال : زيداً أضرب من عمرو، وهو منصوب بمعنى أنه أكثر احتمالاً للضرب، وإنما جاء منه ألفاظٌ يسيرةٌ متأولة، نحو قولهم في المثل : أشغل من ذات النِّحيين[3]، وأزهى من ديك[4].

الأمـر الثـاني : أن ما هاهنـا لا تخلو من أن تكـون موصولة أو موصوفة وكيف ما كانت فلابد من جملة، تكون صلة أو صفة وليس بعدها هاهنا جملة[5] فإن زدت في المسألة وقلت : أحوج ما أنت محتاج إليه أو مُطَّرٌ إليه صح من هذه الجهة الأولى.

المســألة الثالثة عشر(ة) : ليس ما وزنها، ولم اختصت بلفظ الماضي ؟

الجـــواب : ليس فعـل على الصحيـح من المـذاهب[6]، ووزنـه في الأصل : فعِل

---

(١) انظر الأصول ٢/٣٠٥.

(٢) يريـد أن اسم التفضيـل لا يصـاغ من الفعـل المبنى للمجهـول والمسألة خلافية، والجواز مشروط بأمن اللبس. انظر شرح عمدة الحافظ ٧٥٨.

(٣) المثل في امرأة من بنى تيم الله بن ثعلبة كانت تبيع السمن في الجاهلية ولها حديث مع خوات الأنصارى قبل إسلامه يستقبح ذكـره وبسببـه قيـل فيهـا المثـل المذكور. . . انظر: الفاخر في الأمثال ٨٦، وكتاب الأمثال لأبى عبيد ٣٧٤، وجمهرة الأمثال ١/٥٦٤، ومجمع الأمثال ١/٣٧٦، والمستقصى ١/١٩٦، وفصل المقال ٥٠٣.

(٤) المثل في كتاب الأمثال ٣٦٠ يردان (من غراب) وجمهرة الأمثال ١/٢٥٧، ومجمع الأمثال ١/٣٢٧، والمستقصى ١/١٥١، وفصل المقال ٤٩١. وقد تعرض المصنف لهذه المسألة في شرح المفصل ٧/٩٤-٩٥.

(٥) الذي قدره المصنف هو متعلق الجار والمجرور (إليه) الملحوظ من سياق الكلام ولكن لما غلب أن يكون متعلق الجار والمجرور كائن أو مستقرٌ قدر المصنف (مُحتاجٌ أو مُطّر) لافتقار المعنى إليه.

(٦) يشير المصنف إلى الخلاف في فعلية ليس، فقد ذهب أبو علي في المسائل الحلبيات إلى أنها حرف. ونسب هذا القول إلى أبى بكـر بن شقـير فيكـون القـول في المسألـة قولـه ووافقـه أبو علي الفارسي، والراجح عند جمهور النحويين أنها فعل بتحملها الضمائر واتصـال تاء التأنيث السـاكن بها. . . انظـر: سيبـويـه ١/٢١، والمقتضب ٤/٨٧، ١٩٠، والأصـول لابن السـراج ١/٨٢، =

بكسر العين وذلك لا يخلو من أن يكون فعَل بفتح العين أو فعِل بكسر العين أو فعُل بضم العين، فأما قوله[1]:

فإن أهجه يَضْجَر كما ضَجْرَ بازلٌ[2]

فإنما أصله: ضَجرَ وإنما خفف على حد قولهم: كَتِف وكَتْفٌ.

وأما قوله[3]:

وما كل ساعٍ ولو سَلْفَ صَفْقَةٌ[4]

فأصله: سلَف بفتح اللام لكنه أسكن ضرورةً، فالإسكان في المكسورة لغةٌ وفي المفتوحة ضرورةٌ ـ وإذا كان كذلك فلا يجوز أن يكون ليس فعَل بالفتح إذا لو كان كذلك لبقى على حاله أو انقلب ألفاً لأن المفتوح لا يجوز تسكينه لخفته ألا ترى أنهم لا يقولون في نحو: قَلَم قَلْمٌ كما قالوا في كَتِف كَتْف، ولا يكون فَعُل أيضاً لأن ذلك لم يأت مما عينه أو لامه ياء لما يلزم من انقلاب الياء في المضارع واواً. إذا كان كذلك تعين أن يكون على وزن فَعِل بكسر العين على حد: صيد البعير[5]. والقياس أن يقلب ياؤه ألفاً لتحرك الياء وانفتاح ما قبلها على حد هاب، فيقال: لاس لكنهم قدموا فيه عدم التصرف لشبهه بالحرف النافي، وهو ما، وقيل لتضمنه ما ليس له في الأصل وهو النفي فجمد لذلك، ولم يأت منه مضارع ومعناه نفي ما في الحال كما أن ما كذلك، وإنما خصوا هذا المعنى بلفظ الماضى دون المضارع لأنهم لما أرادوا منه تصرفه للعلة المذكورة قصروه على لفظ الماضى ولم يأتوا بلفظ المضارع،

= والمسائل الحلبيات ق ٥٥-٦١، والتبيين ٣٠٨، والمغنى لابن فلاح ١ ق ٦٨-٦٩، والجنى الدانى ٤٥٩، ومغنى اللبيب ٣٢٥.

(١) هو الأخطل التغلبي كما في معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٩٠، والصحاح والتنبيه والايضاح واللسان (ضجر).

(٢) تمام البيت: من الأدم ديرت صفحتاه وغاربه.

والبيت في المنصف ١/ ٢١ غير منسوب. والشاهد (ضُجْر) بتسكين الجيم استثقالاً للكسرة.

(٣) هو الأخطل كما في ديوانه ٨٤ برواية: وما كل مغبون، كما ورد في أدب الكاتب ٥٣٨، والمنصف ١/ ٢١، وشرح أدب الكاتب للجواليقى ٣٨٦، واللسان (سلف).

(٤) تمام البيت: براجع ما قد فاته برداد.

وقد ورد الشاهد غير منسوب في الخصائص ٢/ ٣٣٨، والمحتسب ١/ ٥٣، ٦٢، والاقتضاب ٤٠٥، وشرح ابن يعيش ٧/ ١٥٢، وشرح جمل الزجاجى ٢/ ٥٨٢ . . . والشاهد قوله (سلْف) بسكون اللام المفتوحة ضرورة، وعدّهُ ابن جنى في المنصف شاذاً لأنه احتمل أن يكون من فعَل بكسر العين لكنه فعل غير مستعمل إلا أنه في تقدير المستعمل وان لم ينطق به.

(٥) الصيد: داء يأخذ بأنف البعير فيميل منه رأسه، وهومن أمثلة المصنف في شرح المفصل ٧/ ١١٢، وانظر: التهذيب ١٢/ ١٢١، والصحاح (صيد) والمخصص ٧/ ١٧٠، والتبيين ٣١٣-٣١٤.

لأن ذلك من دلائل التصرف فنكبوا عنه[1] ونظيره فعل التعجب وعسى ونعم، لما لم يُرَدْ فيه التصرف قصروه على لفظ الماضي فاعرفه ـ والله تعالى أعلم.

تمـــت والحمـــد ظاهـــراً وبـــاطناً

---

(١) في المقتضب ٤/٨٧: إذا قلت اليس زيد قائماً غداً أو الآن ـ أردت ذلك المعنى في يكون قَلّمَا كانت تدل على ما يدل عليه المضارع استغني عن المضارع فيها، ولذلك لم يبن بناء الأفعال من بنات الياء مثل باع، وانظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/١١٢.

الفهارس

أولاً : فهرس الآيات :

ثانياً : الشعر :

ثالثاً : الأعلام :

رابعاً : المصـــادر :

أدب الكاتب لابن قتيبة ـ تحقيق الدالى ـ مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ.
الأزهية في علم الحروف للهروي ـ تحقيق الملوحى ـ دمشق ١٣٩١هـ.
الأصول لابن السراج ـ تحقيق الفتلى ـ مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ.
الأعلام للزركلى ـ ط الخامسة ـ ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للطلبوسى ـ تحقيق السقا، وحامد عبد المجيد ـ الهيئة المصرية ١٤٠٠هـ.
الأمثال لأبى عبيد ـ تحقيق قطامش ـ مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى.
الأمالى لابن الشجرى ـ دار المعرفة.
الإيضاح لابن الحاجب ـ تحقيق موسى بناى ـ العانى بغداد.
إشارة التعيين لعبد الباقى اليمنى ـ تحقيق عبد المجيد دياب ـ مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية ١٤٠٦هـ.
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ـ دار الكتب ١٣٧٣هـ.
البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ـ النهضة بالرياض.
بغية الوعاة للسيوطى ـ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ـ الحلبي ١٣٨٤هـ.
البيان في إعراب القرآن لابن الأنبارى ـ تحقيق طه عبد الحميد ـ دار الكتاب العربى ١٣٨٩هـ.
التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين للعكبرى ـ تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين ـ دار الغرب الإسلامى ١٤٠٦هـ.
التبصرة للصيمرى ـ تحقيق فتحى مصطفى ـ مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى.
التنبيه والإيضاح لابن برى ـ مصطفى حجازى ـ الهيئة المصرية ١٤٠٠هـ.
تهذيب اللغة للأزهرى ـ عبد السلام هارون ورفاقه ـ الدار المصرية للتأليف.
الجمل للزجاجي ـ تحقيق علي الحمد ـ مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ.
جمهرة الأمثال لأبى هلال العبكرى ـ أبو الفضل إبراهيم / وقطامش ـ القاهرة ١٣٨٤هـ.
الجنى الدانى للمرادى ـ تحقيق طه محسن ـ جامعة الموصل ١٩٧٦م.

حجة القراءات لابن زنجله ـ تحقيق سعيد الأفغانى ـ مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٩هـ.
الحلل في شرح أبيات الجمل للبطليوسي ـ مصطفى إمام ـ القاهرة ١٩٧٩م.
الخصائص لابن جنى ـ تحقيق محمد علي النجار ـ ط دار صادر بيروت.
ديوان الأخطل ـ تحقيق مهدى ناصر الدين ـ دار الكتب العلمية بيروت.
ديوان الأعشى ـ تحقيق محمد محمد حسين ـ القاهرة ١٩٥٠م.
سير أعلام النبلاء للذهبى ـ تحقيق بشار عواد ـ مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ.
شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ـ دار المسيرة بيروت.
شرح أبيات سيبويه لابن السيرافى ـ تحقيق محمد علي سلطانى ـ مطبعة الحجاز دمشق ١٣٩٦هـ.
شرح أبيات سيبويه لابن النحاس ـ تحقيق زهير غازى ـ عالم الكتب ١٤٠٦هـ.
شرح أدب الكاتب للجواليقى ـ مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٠هـ.
شرح جمل الزجاجى لابن عصفور ـ تحقيق أبو جناح ـ بغداد ١٤٠٠هـ.
شرح الشافية الكافية لابن مالك ـ تحقيق عبد المنعم هريدى ـ مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى.
شرح عمدة الحافظ لابن مالك ـ تحقيق الدورى ـالعانى بغداد ١٣٩٧هـ.
شرح عيون الإعراب للمجاشعى ـ تحقيق حنا حداد ـ مكتبة المنار ١٤٠٦هـ.
شرح المفصل لابن يعيش ـ عالم الكتب بيروت.
شرح مقامات الحريرى ـ تحقيق أبو الفضل إبراهيم ـ المدنى.
الصحاح للجوهرى ـ تحقيق عبد الغفور عطار ـ نشر الشربتلى.
الفاخر في الأمثال للمفضل بن سلمه ـ تحقيق الطحاوى ـ مصر ١٩٦٠م.
الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكى بن طالب ـ تحقيق محيى الدين رمضان ـ دمشق ١٣٩٤هـ.
المحتسب لابن جنى ـ تحقيق علي النجدي، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح شلبى ـ المجلس العلمى.
المخصص لابن سيده ـ بولاق.
المسائل الحلبيات لأبى علي الفارسى ـ تحقيق حسن هنداوى ـ دار القلم دمشق ١٤٠٧هـ.

المستقصى في الأمثال للزمخشري ـ دار الكتب العلمية .
المغنى لابن هشام ـ تحقيق المبارك ، وعلى حمد الله ـ دار الفكر ١٩٧٢م .
المغنى لابن فلاح ـ مصورة عن نسخة المتحف البريطانى .
المقتضب للمبرد ـ تحقيق عبد الخالق عيضمه ـ المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ١٣٩٩هـ .
المنصف لابن جنى ـ تحقيق إبراهيم مصطفى ، وعبد الله أمين ـ مصطفى الحلبى ١٣٧٩هـ .
النكت في تفسير كتاب سيبويه للشنتمرى ـ تحقيق زهير سلطان ـ معهد المخطوطات بالكويت ١٤٠٧هـ .
مجمع الأمثال للميدانى ـ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ ١٣٥٩هـ .
معانى القرآن للأخفش ـ تحقيق فائز فارس ـ الكويت ١٣٧٩هـ .
معجم مقاييس اللغة لابن فارس ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار الفكر ١٣٩٩هـ .
مشكل إعراب القرآن لمكى بن طالب ـ تحقيق ياسين السواس ـ دار المأمون .
وفيات الأعيان لابن خلكان ـ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ ١٩٤٠م .

عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد
في إعراب الحديث

تأليف:
جلال الدين السيوطي

تحقيق:
الدكتور حسن موسى الشاعر
أستاذ مشارك بكلية اللغة العربية بالجامعة

— ٤ —

مسند أنس بن مالك[1] (رضي الله عنه)

٤٩ ــ حديث الشفاعة، قوله (يُجْمَعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ القيامة فَيُلْهَمُونَ ذلك).

قال أبو البقاء[2]: «ذلك» إشارة إلى المذكور بعده، وهو حديث الشفاعة. ويجوز أن يكون قد جرى ذكره قبل، فأشار بذلك إليه، ثم ذكر بعد منه طائفة.

وقوله (فيقولون لو اسْتَشْفَعْنا على رَبِّنا).

عدّى «استشفعنا» بعلى، وهي في الأكثر تتعدّى بإلى، لأن معنى استشفعت توسلت، فتتعدى بإلى، ومعناها أيضاً استعنت، يقال: استشفعتُ إليه واستعنتُ عليه، وتحمّلت[3] عليه بمعنى واحد. ومن هذا قول الشاعر:

---

(١) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله ﷺ وأحد المكثرين من الرواية عنه. خدمه عشر سنين. شهد الفتوح ثم قطن البصرة، وكان آخر الصحابة موتاً بالبصرة. انظر: الإصابة ١/٨٤. الأعلام ٢/٢٤.

٤٩ — حديث الشفاعة حديث طويل وفيه (يجمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا على ربّنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم... فيقول لهم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصابه فيستحي ربّه عز وجل من ذلك...) انظر: البخاري: كتاب التوحيد ١٣/٤٧٧. مسلم ٣/٥٤. مسند أحمد ٣/١١٦ مشكاة المصابيح ٣/٦٩.

(٢) إعراب الحديث لأبي البقاء العكبري، رقم ٢٩

(٣) في بعض النسخ «وتحيلت عليه».

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بنو قُشَيرٍ [لَعمرُ أبيكَ أعجبني رضاها][1]

فعدّاه بعلى. قال أبو عبيدة[2]: إنما ساغ ذلك لأن معناه أقبلت عليّ. انتهى.

قلت: في رواية للبخاري «لو استشفعنا إلى ربّنا» بإلى على الأصل.

قال الكرماني[3]: وجواب «لو» محذوف، أو هي للتمني.

وقال الطيبي[4]: «لو» هي المتضمنة للتمني والطلب. وقوله (فَيُرِيحَنا) منصوب بأن المقدّرة بعد الفاء الواقعة جواباً للو[5]. وقوله (أأنت آدم) من باب:

أَنا أَبو النَّجْمِ وشِعْري شِعْري[6]

ثم قال أبو البقاء: وقوله (لَسْتُ هُنَاكُمْ): «هنا» في الأصل ظرف مكان وقد استعملت للزمان، ومعناها هاهنا عند، أي لست عند حاجتكم أنفعكم، والكاف والميم لخطاب الجماعة. وقوله (فيستحى ربَّه من ذلك) الأصل فيستحى من ربّه فحذف «من» للعلم بها، كقوله تعالى ﴿واخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعين رَجُلاً﴾[7] أي من قومه. ويجوز أن لا يكون فيه حذف، ويكون المعنى يخشى ربَّه أو يخاف ربَّه، لأن الاستحياء والخشية بمعنى واحد. وقوله (ولكن ائتوا موسى عَبْدٌ) تقديره: هو عبد. ولو نصب جاز على البدل أو على الحال، والرفع أفخم. وقوله (ائتوا عيسى عَبْدَ الله) الرفع فيه أجود كما رفع ما قبله على التعظيم، ويجوز النصب على الصفة. وقوله (ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عَبْداً غفر الله له) فنصب هاهنا على البدل أو الحال أو على إضمار أعني، ولو رفع كما رفع «عَبْدٌ كلّمه الله» لجاز. وقوله

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها القُحيف العقيلي، وهو شاعر إسلامي مقل، يمدح بها حكيم بن المسيب القشيري. انظر: المقتضب ٢/٣٢٠. مغني اللبيب ١٥٣. خزانة الأدب ١٠/١٣٢ وما بعدها.

قال ابن جني: «ذهب الكسائي إلى أنه عدّى رضيت بعلى لما كان ضد سخطت، وسخطت مما يعدّى بعلى. وكان أبو علي يستحسنه من الكسائي». الخصائص ٢/٢٨٩.

(٢) هو معمر بن المثنى اللغوي البصري، مولى بني تيم، أخذ عن يونس وأبي عمر. وهو أول من صنف في غريب الحديث. ومن مصنفاته: المجاز في غريب القرآن، معاني القرآن، نقائض جرير والفرزدق. توفي سنة ٢١٠هـ. انظر: بغية الوعاة ٢/٢٩٤.

(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٢٥/٢٠٣.

(٤) شرح مشكاة المصابيح للطيبي، مخطوط في المكتبة المحمودية جـ ٤ ورقة ٢٠١.

(٥) الفاء واقعة في جواب لو على جعل لو للطلب، فإن جعلت شرطية فجوابها مقدّر، كما أشار الكرماني.

(٦) قائله أبو النجم العجلي. انظر ديوانه ص ٩٩. همع الهوامع ١/٢٠٧. معاهد التنصيص ١/٢٦. قال البغدادي في خزانة الأدب ١/٤٣٩: استشهد به على أن عدم مغايرة الخبر للمبتدأ إنما هو للدلالة على الشهرة، أي شعري الآن هو شعري المشهور المعروف بنفسه لا شيء آخر.

(٧) الأعراف ١٥٥.

(أنتظر أُمتي تَعْبُرُ الصِّراط) التقدير: أنتظر أمتي أن تعبر، فأن والفعل في تقدير مصدر موضعه نصب بدلاً من أمتي بدل اشتمال، ولما حذف «أن» رفع الفعل، ونصبه جائز[1].

وقوله (فالخَلْقُ مُلْجَمُونَ في العَرَق) يجوز أن يكون المعنى أنهم في العرق ملجمون بغيره، فيكون «في العرق» خبراً عن الخلق، و«مُلْجَمون» خبراً آخر. ويجوز أن يكون «في» بمعنى الباء، ويكون العرق ألجمهم. هذا كلُّه كلام أبي البقاء

وقوله (فَأَحْمَدُهُ بِمَحامِدَ لا أَقْدِرُ عَلَيْه الآن).

قال النووي[2]: هكذا هو في الأصول «لا أقدر عليه» وهو صحيح، ويعود الضمير في «عليه» إلى الحمد.

وقوله في الرواية الأخرى (لستُ لها).

قال الطيبي[3]: اللام متعلقة بمحذوف. واللام هي التي في قولك: أنت لهذا الأمر، أي كائن له ومختص به. وعلى هذا قوله «أنا لها» وقوله «ليس ذلك لك».

٥٠ ــ حديث الغار، قوله (إِنَّهُ كانَ لي والدان فكُنْتُ أَحْلِبُ لَهُمُا في إنائِهما فآتيهما، فإذا وَجْدتُهما راقِدَيْن قُمْتُ عَلى رُؤُوسِهما كرَاهِيةَ أنْ أَرُدَّ سِنَتَهُما في رُؤ وسهما حتّى يستيقظان متى استيقظا).

قال أبو البقاء[4]: هكذا وقع في هذه الرواية «حتى يستيقظان» بالنون، وفيه عدة أوجه: أحدها: أن يكون ذلك من سهو الرواة، وقد وقع ذلك منهم كثيراً، والوجه حذفها

---

(١) قال ابن مالك في شرح الكافية الشافية ٣/١٥٥٩: «وأما بقاء النصب بعد حذف (أنْ) في غير ذلك فضعيف قليل، ولا يقبلُ منه إلّا ما نقله عدلٌ، ولا يقاس عليه. ومما نُقِل فقبُل قول بعض العرب: خذ اللصَّ قبل يأخذَكَ».

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/٦٢.

(٣) شرح مشكاة المصابيح جـ ٤ ورقة ٢٠٣.

٥٠ ــ حديث الغار، وأوله (إن ثلاثة نفر فيما سلف من الناس انطلقوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فدخلوا غاراً...) مسند أحمد ٣/١٤٢. البخاري: باب حديث الغار ٦/٥٠٥ باختلاف الرواية.

(٤) إعراب الحديث رقم ٣١. والرواية التي وجهها العكبري اعتمد فيها على كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي، وأما رواية المسند ٣/١٤٢ فهي (حتى يستيقظا...)، وهي متفقة مع القاعدة ولا تحتاج إلى توجيه. وبذلك نرى أن السيوطي يلفق بين الكتب دون إشارة.

بحتى، لأن معناها إلى أن يستيقظا[1]، وتتعلق بقمت.

والثاني: أن يكون ذلك على ما جاء في شذوذ الشعر، كقوله:

أَنْ تقرآنِ عَلَى أَسْماء وَيْحَكُما مِنِّيَ السَّلامَ وأَنْ لا تُخْبِرا أَحَدا[2]

والثالث: أن يكون على حذف مبتدأ، أي حتى هما يستيقظان.

وقوله «متى استيقظا» تقديره: سقيتهما. ويجوز أن يكون المعنى أؤخر أو أنتظر أي وقت استيقظا. انتهى.

٥١ ــ حديث الأوعية، قوله (فالرصاص والقارورة، قال: ما بأس بهما).

قال أبو البقاء[3]: جعل اسم «ما» نكرة والخبر جار ومجرور، والأكثر في كلامهم أن يقدّم هاهنا الخبر، فيقال: ما بهما بأس. وتقديم المبتدأ جائز[4] لأن البأس مصدر، وتعريف المصدر وتنكيره متقاربان. وقد قالوا: لا رجلٌ في الدار. فرفعوا بلا النكرة. و«ما» قريب منها. ويجوز أن يحمل «ما» على «لا».

٥٢ ــ حديث (لا تَزالُ جَهَنَّمُ تقول «هَلْ مِنْ مَزيد» حتى يَضَعَ فيها رَبُّ العِزَّةِ قَدَمه، فتقول «قَطْ قَطْ وعِزَّتِك»).

قال الأندلسي[5] في شرح المفصّل: «قَطْ» المخففة معناها حَسْب، وهي مبنية على

---

(١) ذهب الكوفيون إلى أن «حتى» تكون حرف نصب ينصب الفعل من غير تقدير أن.. وذهب البصريون إلى أن الفعل بعدها منصوب بتقدير «أن»... انظر: الإنصاف مسألة ٨٣.

(٢) هذا ثالث ثلاثة أبيات لا يعرف قائلها، والشاهد فيها قوله «أَنْ تقرآن» حيث أهمل «أَنْ» ولم تنصب. قال ابن مالك: جاء على لغة من يرفع الفعل بعد «أن» حملاً على «ما» أختها. انظر: شواهد التوضيح ص ١٨٠. شرح ابن يعيش ٧/١٥. مغني اللبيب ص ٢٨. شرح أبيات مغني اللبيب ١/١٣٥. حاشية الصبان ٣/٢٨٧. الإنصاف مسألة ٧٧.

٥١ — سُئل أنس عن الشرب في الأوعية فقال: (نهى رسول الله ﷺ عن المزفّتة، وقال كل مُسكر حرام. قال، قلت: وما المزفتة؟ قال: المقيّرة. قال، قلت: فالرصاص والقارورة؟ قال: ما بأس بهما..) مسند أحمد ٣/١١٢.

(٣) إعراب الحديث النبوي رقم ٣٤.

(٤) في النسخ «غير جائز» والصحيح أنه جائز كما علّله هنا وذكره في إعراب الحديث. ومن مسوّغات الابتداء بالنكرة أيضاً هنا غير ما ذكره وقوعها في سياق النفي.

٥٢ — الحديث في البخاري ١١/٥٤٥ كتاب الأيمان والنذور ب الحلف بعزة الله. مسلم ١٧/١٨٣.

(٥) القاسم بن أحمد بن الموفّق، علم الدين اللورقي الأندلسي، إمام في العربية، عالم بالقراءات. صنف: شرح المفصل في أربعة مجلدات، شرح الجزولية، شرح الشاطبية. مات سنة ٦٦١هـ بدمشق. انظر: بغية الوعاة ٢/٢٥٠.

السكون لوقوعها موقع فعل الأمر، وتدخلها نون الوقاية حرصاً على إبقاء سكونها. قال:

امتلأ الحَوْضُ وقال قَطْني[1]

وربما حذفت نون الوقاية منها، مثله في عني ومني[2]. وإنما لم تُبنَ حَسْب وإن كانت في معناها لأنها لم توضع في أول أحوالها وضع الفعل كما فُعل بقط، لأنك تصرفها فتقول أحسبني الشيء إحساباً، وهذا حَسْبُك أي كافيك، فلما تصرّف بهذه الوجوه دون قَطْ أُعرب ولم يُبْنَ، وتنون قَطْ هذه في التنكير لأنها بمنزلة صَهْ ومَهْ.

٥٣ ـ حديث (قوموا فلأصلّي لكم).

قال أبو البقاء[3]: لم يقل «بكم» لأنه أراد من أجلكم لتقتدوا بي. انتهى.

وقال ان مالك في التوضيح[4]: يروى قوله «فلأصلّي» بحذف الياء وبثبوتها مفتوحة وساكنة، واللام عند ثبوت الياء مفتوحة لام كي، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة، وأن الفعل في تأويل مصدر مجرور، واللام ومصحوبها خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: قوموا فقيامكم لأصلي لكم. ويجوز على مذهب الأخفش[5] أن تكون الفاء زائدة، واللام متعلقة بقوموا، واللام عند حذف الياء لام الأمر، ويجوز فتحها على لغة سُليم، وتسكينها بعد الفاء

---

(١) قال في الصحاح (مادة قطط): قط: إذا كانت بمعنى حسب وهو الاكتفاء فهي مفتوحة ساكنة الطاء، تقول: ما رأيتُه إلاّ مرة واحدة فقطْ. فإذا أضفت قلت قَطْكَ هذا الشيء، أي حسبك، وقطني وقطي وقطْ. قال الراجز:

امتلأ الحوضُ وقال قطني

مهلاً رويداً قد ملأتَ بطني

وانظر: الخصائص لابن جني ١/٣٢، الأشموني والصبان ١/١٢٥.

(٢) ومن حذف نون الوقاية منها قول الشاعر:

أيّها السائل عنهُم وعني ... لستُ من قيسٍ ولا قيسُ مِني

انظر: الأشموني والصبان ١/١٢٤.

٥٣ — عن أنس (أن جدته مُليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته له، فأكل منه ثم قال: قوموا فلأصلي لكم. . .) مسند أحمد ٣/١٣١.

وانظر: البخاري ١/٤٨٨ كتاب الصلاة ب الصلاة على الحصير. مسلم ٥/١٦٣. أبو داود ١/١٦٦ (تحقيق محيي الدين).

(٣) إعراب الحديث رقم ٣٥.

(٤) شواهد التوضيح والتصحيح ص ١٨٦.

(٥) سعيد بن مسعدة، الأخفش الأوسط، قرأ النحو على سيبويه وكان أسنّ منه، دخل بغداد لينتقم لأستاذه سيبويه من الكسائي، ولكن الكسائي قرّبه، فأقام ببغداد، ومات سنة ٢١٠هـ تقريباً ومن مصنفاته: معاني القرآن، المسائل، الأوسط في النحو. انظر: بغية الوعاة ١/٥٩٠.

والواو وثُمّ على لغة قريش، وحذف الياء علامة الجزم. وأمر المتكلم نفسه بفعل مقرون باللام[1] فيصح قليل في الاستعمال، ومنه قوله تعالى: ﴿ولْنَحْمِلْ خَطاياكُم﴾[2]. وأمّا في رواية من أثبت الياء ساكنة فيحتمل أن تكون اللام لام كي وسكنت الياء تخفيفاً، وهي لغة مشهورة، أعني تسكين الياء المفتوحة، ومنه قراءة الحسن ﴿وذروا ما بَقِيْ من الرّبا﴾[3] وقرىء ﴿فَنَسيْ﴾[4] و﴿ثانيْ اثنين﴾[5] بالسكون. ويحتمل أن تكون اللام لام الأمر وثبتت الياء في الجزم إجراء للمعتل مجرى الصحيح، كقراءة قُنْبُل[6].. ﴿إنه من يتقيْ ويصبر﴾[7].

وقال الزركشي[8]: قال ابن السّيد[9]: يرويه كثير من الناس بالياء، ومنهم من يفتح اللام ويسكن الياء ويتوهمونه قَسَماً، وذلك غلط، لأنه لا وجه للقسم، ولو كان لقال فلأصلينّ، بالنون. وإنما الرواية الصحيحة «فلأُصلّ» على معنى الأمر. والأمر إن كان للمتكلم والغائب كان باللام أبدا، وإذا كان للمخاطب كان بلام وغير لام.

قوله (وصَفَفْتُ أنا واليتيم وراءه).

---

(١) قال الأشموني ٣/٤: وأما اللام فجزمها لفعلي التكلم مبنيين للفاعل جائز في السعة لكنه قليل، ومنه «قوموا فلأصلّ لكم» «ولنحمل خطاياكم» وأقل منه جزمها فعل الفاعل المخاطب كقراءة أبي وأنس «فبذلك فلتفرحوا» وقوله عليه الصلاة والسلام «لتأخذوا مصافكم» والأكثر الاستغناء عن هذا بفعل الأمر.

(٢) العنكبوت: ١٢.

(٣) البقرة: ٢٧٨. قال العكبري: الجمهور على فتح الياء، وقد قرىء شاذا بسكونها، ووجهه أنه خفّف بحذف الحركة عن الياء بعد الكسرة. انظر: إملاء ما منّ به الرحمن ١١٧/١، الدر المصون للسمين الحلبي ٦٣٧/٢.

(٤) طه: ١١٥.

(٥) التوبة: ٤٠. وانظر: إملاء ما منّ به الرحمن ١٥/١.

(٦) هو محمد بن عبد الرحمن المكي المخزومي، روى القراءة على ابن كثير بإسناد. توفي بمكة سنة ٢٩١هـ. انظر: البدور الزاهرة ص ٨.

(٧) يوسف: ٩٠. وانظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٣٥١.

(٨) محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، بدر الدين عالم بفقه الشافعية والأصول، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، له مصنفات كثيرة منها: البرهان في علوم القرآن، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح. توفي سنة ٧٩٤هـ. انظر: البرهان في علوم القرآن ـ المقدمة ٥/١. الأعلام ٦٠/٦. وكلام الزركشي في كتابه شرح البخاري ٢٢/٢.

(٩) عبد الله بن محمد بن السِّيد البطليوسي، كان عالماً باللغات والآداب، أقرأ النحو واجتمع إليه الناس. من مصنفاته: شرح أدب الكاتب، شرح الموطأ، شرح سقط الزند، إصلاح الخلل الواقع في الجمل. توفي سنة ٥٢١هـ ببلنسية. انظر: بغية الوعاة ٥٥/٢ـ٥٦.

قال الزركشي[1]: بنصب اليتيم ورفعه. ويروى «وصففت واليتيم» من غير توكيد. والأول أفصح، إذ لا يعطف غالباً على الضمير المرفوع إلاّ مع التأكيد، كقوله تعالى: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾[2].

٥٤ ـ حديث (مرّ النبي ﷺ بتمْرَةٍ مسقوطة).

قال الكرماني[3]: القياس أن يقال سَاقطة، لكنه قد يجعل اللازم كالمتعدّي بتأويل، كقراءة من قرأ ﴿عُموا وصُمّوا﴾[4] بلفظ المجهول.

التيمي[5]: هي كلمة غريبة لأن المشهور أن «سقط» لازم، على أن العرب قد تذكر الفاعل بلفظ المفعول وبالعكس إذا كان المعنى مفهوماً. ويجوز أن يقال جاء «سُقِط» متعدياً أيضاً بدليل قوله تعالى: ﴿سُقِط في أيديهم﴾[6]. قال الخطابي[7]: يأتي المفعول بمعنى الفاعل كقوله تعالى: ﴿كان وَعْدُه مَأْتِيا﴾[8] أي آتيا. [انتهى].

وقال ابن مالك[9]: «مسقوطة» بمعنى مُسقَطة، ونظيره مرقوق بمعنى مُرَقّ أي مسترق، عن ابن جني[10]، ومثله أيضاً رجل مفؤود أي جبان، ولا فعل له، [إنما يقال فُئد

---

(١) شرح صحيح البخاري (التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح) ٢٢/٢ الطبعة الأولى.

(٢) البقرة: ٣٥.

٥٤ — عن أنس قال (مرّ النبي ﷺ بتمرةٍ مسقوطةٍ فقال: لولا أن تكون صدقة لأكلتها). البخاري: كتاب البيوع. باب ما يتنزه من الشبهات. فتح الباري ٢٩٣/٤.

(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١٨٧/٩.

(٤) المائدة: ٧١. وهي قراءة ابراهيم النخعي كما سيأتي.

(٥) شيخ الإسلام أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني الحافظ الكبير صاحب الترغيب والترهيب، رحل إلى بغداد ونيسابور، وجاورسنة. مات سنة ٥٣٥هـ. انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي ص ١٢٧٧.

(٦) الأعراف: ١٤٩.

(٧) حَمَد بن محمد بن ابراهيم أبو سليمان الخطابي، كان حجة صدوقاً، روى عنه أبو عبد الله الحاكم وغيره. ومن مصنفاته: غريب الحديث، شرح البخاري، شرح أبي داود. مات بُبست سنة ٣٨٨هـ. انظر: بغية الوعاة ٥٤٧/١.

(٨) مريم: ٦١.

(٩) شواهد التوضيح والتصحيح ص ١٩٧.

(١٠) عثمان بن جني، من أحذق العلماء بالنحو والتصريف، لزم أبا علي الفارسي، ولما مات أبو علي تصدّر ابن جني مكانه ببغداد. من مصنفاته: الخصائص، سر صناعة الإعراب، المنصف شرح تصريف المازني، المحتسب في إعراب الشواذ. مات سنة ٣٩٢هـ. انظر: بغية الوعاة ١٣٢/٢.

بمعنى مرض فؤاده لا بمعنى جبن. وكما جاء مفعول ولا فعل له جاء فُعِلَ ولا مفعول له][1] كقراءة النخعي «ثم عُمُوا وصُمُّوا» ولم يجيء مَعْمِيّ ولا مَصْمُوم استغناء بأَعْمى وأَصَمّ.

٥٥ ـ حديث (ما صَلَّيْتُ وَرَاء إمامٍ قَطّ أَخَفَّ صَلاةً).

قال الكرماني[2]: «أخفّ» صفة للإمام. و«صلاة» تمييز له. وقوله (وإنْ كانَ لَيَسْمَعُ بكاء الصبي) أصله: وإنّه كان، مخفف وفيه ضمير الشأن.

٥٦ ـ حديث (ان النبيَّ ﷺ وأَبا بكرٍ وعُمَرَ كانوا يَفْتَتِحُونَ الصَّلاةَ بالحمدُ لله ربّ العالمين).

قال الزركشي[3] والكرماني[4]: [الحمدُ] بضم الدال على سبيل الحكاية.

٥٧ ـ حديث (لقد رأَيْتُ الآنَ مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمُ الجَنَّةَ والنّار).

قال الكرماني[5]: فإن قلت «الآن» للحال، و«رأيتُ» للماضي، فكيف يجتمعان؟ قلت: دخول «قد» عليه قرّبه إلى الحال. فإن قلت: فما قولك في «صَلَّيتُ» فإنه للمضيّ البتة؟ قلت: قال ابن الحاجب: كل مخبر أو منشىء فقصده الحاضر، فمثل «صليت» يكون للماضي الملاصق للحاضر. أو أريد بالآن ما يقال عرفاً إنه الزمان الحاضر، لا اللحظة الحاضرة الغير المنقسمة المسماة بالحال. فإن قلت: «منذ»[6] حرف أو اسم؟ قلت: جاز

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من النسخ، وهو مثبت في شواهد التوضيح لابن مالك ص ١٩٧.

٥٥ ــ الحديث عن أنس (ما صليت وراء إمام قط أخفّ صلاة من النبي ﷺ، وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تفتن أمه). البخاري/ فتح الباري ٢/٢٠١.

(٢) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٥/٨٦.

٥٦ ــ البخاري: كتاب الآذان والجماعة باب ما يقال بعدالتكبير، فتح الباري ٢/٢٢٦. مسند أحمد ٣/١٠١،٢٠٣.

(٣) شرح صحيح البخاري ٢/١٧٧.

(٤) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٥/١١١.

٥٧ ــ عن أنس قال (صلى لنا النبي ﷺ ثم رقا المنبر فأشار بيديه قِبَل قبلة المسجد ثم قال: لقد رأيت الآن ـ منذ صليت لكم الصلاة ـ الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار، فلم أر كاليوم في الخير والشر ـ ثلاثاً). البخاري: كتاب الأذان. فتح الباري ٢/٢٣٢. مسند أحمد ٣/١٦٢.

(٥) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٥/١١٦.

(٦) انظر الخلاف في مذ ومنذ: الإنصاف مسألة ٥٦، شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢/٥٣.

الأمـران . فإن كان اسـماً فهـو مبتـدأ ومـا بعـده خبر ، والـزمـان مقـدّر قبـل [صليت] . وقال الزجاج[١] بعكس ذلك[٢] .

قوله (فَلَمْ أَرَ كالْيَومِ في الخير والشرّ) .

قال الطيبي[٣] : الكـاف في موضـع الحـال . وذو الحـال المفعول به ، وهو الجنة والنار . والمعنى : لم أر الجنـة والنـار في الخـير والشر يوماً من الأيام مثل ما رأيت اليوم . أي رأيتها رؤية جليّة ظاهرة مثبتاً[٤] في مثل هذا الجدار ، ظاهراً خيرها وشرّها . ونحوه قول الشاعر :

حتـى إذا الـكـلاّبُ قالَ لها كالـيـومِ مَطْـلوبـاً ولا طَلَبـا[٥]

٥٨ ـ حديث (يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القِيامةِ مِنْ أَهلِ الجَنَّة ، فيقولُ له : يابْنَ آدم كيفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فيقول : أيْ ربِّ خَيْرَ مَنْزِل) .

قال أبو البقاء[٦] : النصب هو الوجه ، أي وجدته خيرَ منزل .

٥٩ ـ حديث (ان رسول الله ﷺ صَعِدَ أُحُداً فَتَبِعَه أبو بكر وعمرُ وعثمانُ فرَجَفَ بهم ، فقال : اسكُنْ نَبيٌّ وصدّيقٌ وشَهيدان) .

---

(١) ابـراهيم بن السـرّي أبـو اسحـاق الـزجـاج ، كان يخرط الـزجـاج ثم مال إلى النحـو فلزم المبرد ، وكان يعلّم بالأجرة . من تصانيفه : معاني القرآن ، الاشتقاق ، خلق الانسان . مات سنة ٣١١هـ . انظر : بغية الوعاة ١/٤١١ .

(٢) أي إذا ولي منـذ اسم مرفـوع ، فتعـرب منـذ ظرفـاً في موضع الخبر ، والمرفوع بعدها مبتدأ . وهذا مذهب الأخفش والزجاج وطائفة من البصريين . انظر : الجني الداني ص ٤٦٥ ، مغني اللبيب ٣٧٣ .

(٣) شرح مشكاة المصابيح للطيبي جـ ٤ ورقة ٢٣٠ مخطوط في المكتبة المحمودية .

(٤) كذا في النسخ . وفي بعض نسخ شرح المشكاة «مثلها في قُبل هذا الجدار» .

(٥) قائله أوس بن حجـر . والبيت من القصيـدة الأولى في الـديـوان ص ٣ . والرواية في النسخ المخطوطة «مطلوباً ولا طالباً» . والكلاّب صاحب كلاب الصيد . واستشهد به الزمخشري على حذف الفعل جوازاً والتقدير : لم أر كاليوم . . . انظر : شرح ابن يعيش ١/١٢٥ . الإيضاح في شرح المفصل ١/٢٤٨ .

وفي أمالي ابن الشجري ١/٣٦١ : أراد قال للبقر والكلاب لم أر كاليوم مطلوباً ولا طلبا فحذف النافي والمنفي اللذين هما لم أر . فلذلـك جاء بحـرف النفي مع المعطـوف في قولـه «ولا طلبـا» لأنـه عطفه على ما عمل فيه فعل منفي . ووضع المصدر الذي هو طلب موضع اسم الفاعل الذي هو طالبا . . .

٥٨ ـــ الحديث عن أنس في مسند أحمد ٣/٢٠٨ .

(٦) إعراب الحديث برقم ٥١ .

٥٩ ـــ الحديث في البخاري ـ كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ـ باب مناقب عثمان ٧/٥٣ .

قال أبو البقاء[1]: تقديره عليك نبيٌّ. وقد جاء مفسّراً في حديث آخر[2].

٦٠ ـ حديث (لا عَدْوَى ولا طِيْرَة).

قال ابن مالك في شرح التسهيل: أكثر ما يحذف الحجازيون خبر لا مع إلّا نحو: لا إله إلّا الله. ومن حذفه دون إلّا قوله تعالى: ﴿**قالوا لا ضَيْرَ**﴾[3] وقوله ﷺ «لا ضَرَرَ ولا ضِرار»[4] و«لا عدوى ولا طيرة»[5].

٦١ ـ حديث (إنّه الإيمانُ حُبُّ الأَنْصارِ وإنَّهُ النِّفاقُ بُغْضُهم).

قال أبو البقاء[6]: «إنّ» المؤكدة، والهاء فيها ضمير الشأن مثل قوله تعالى: ﴿**فإنَّها لا تعمى الأَبْصار**﴾[7] وليست ضميراً عائداً على مذكور قبله، إذ ليس في الكلام ذلك. و«الإيمان حبّ الأنصار» مبتدأ وخبر، وهو خبر إنّ، كأنه قال: إنّ الأمر والشأن الإيمان حبّ الأنصار. ويروى «آية الإيمان» وهو ظاهر. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر[8]: «آية» بهمزة ممدودة وياء تحتية مفتوحة وهاء تأنيث. و«الإيمان» مجرورة بالاضافة. هذا هو المعتمد في ضبط هذه الكلمة في جميع الروايات في الصحيحين والسنن والمستخرجات والمسانيد. والآية العلامة.

---

(١) إعراب الحديث برقم ٥٢.

(٢) عن سهل بن سعد (ارتج أحد وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فقال النبي ﷺ: اثبت أحد ما عليك إلّا نبي وصديق وشهيدان). مسند أحمد ٥/٣٣١.

٦٠ ــ البخاري: كتاب الطب، باب الفأل ـ فتح الباري ١٠/٢١٤. مسلم ١٤/٢١٣. مسند أحمد ٣/١٣٠، ١٥٤.

(٣) الشعراء ٥٠.

(٤) مسند أحمد ٥/٣٢٧.

(٥) مسند أحمد ١/١٧٤، ٢/١٥٣، ٣/١٣٠، ١٧٣.

٦١ ــ البخاري: كتاب الايمان ١/٦٢. مسلم ٢/٦٣. مسند أحمد ٣/١٣٠، ١٣٤. وفي هذه المصادر جميعها «آية الايمان.. وآية النفاق..». أما «إنه الإيمان.. وإنّه النفاق..» فهي رواية كتاب جامع المسانيد لابن الجوزي الذي اعتمد عليه العكبري في إعراب الحديث.

(٦) إعراب الحديث رقم ٥٣.

(٧) سورة الحج: آية ٤٦.

(٨) هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ابن حجر، حافظ الإسلام في عصره، كان فصيح اللسان عارفاً بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين. له تصانيف كثيرة منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لسان الميزان، تقريب التهذيب، الإصابة، فتح الباري شرح صحيح البخاري. الأعلام ١/١٧٨.

قال: وما ذكره أبو البقاء من أنه بهمزة مكسورة ونون مشدّدة وهاء، و«الإيمان» بالرفع، تصحيف منه[1].

قلت: ويؤيد ذلك أن في رواية النسائي[2] (حبّ الأنصار آية الإيمان). و«الأنصار» أصله جمع ناصر كأصحاب وصاحب. أو جمع نصير كأشراف وشريف. صار علماً عليهم بتسمية النبي ﷺ.

٦٢ ــ حديث (إنّي لأوَّلُ الناسِ تَنْشَقُ الأَرْضُ عن جُمْجُمَتي يَوْمَ القِيامةِ ولا فَخْرُ).

كان مقتضى اللفظ «عن جمجمته» لكنه جاء على نسق الضمير في «إني» على حدّ قول الشاعر:

أنا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذي تَعْرِفُونَني[3]

وقوله (ولا فخر).

قال الطيبي[4]: حال مؤكدة، أي أقول هذا ولا فخر.

٦٣ ــ حديث (إنَّ الشَّيْطانَ يَجْري مِن ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّم).

قال الطيبي[5]: عدّى «يجري» بمن على تضمنه معنى[6] التمكن، أي يتمكن من الإنسان فى جريانه مجرى الدم. وقوله «مجرى الدم» يجوز أن يكون مصدراً ميمياً، وأن يكون اسم مكان.

---

(١) انظر: فتح الباري ١/٦٣. أقول والتصحيف إن وجد فهو من جامع المسانيد وليس من العكبري. وقد أشار العكبري إلى الرواية المشهورة.

(٢) سنن النسائي ٨/١١٦.

٦٢ ــ الحديث في مسند أحمد ٣/١٤٤.

(٣) صدر بيت لطرفة بن العبد، من معلقته المشهورة، وعجزه:

خشاش كرأس الحيةِ المتوقدّ

انظر: شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص ٢١٢، همع الهوامع ١/٢٩٨، ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم ص ٤٢. والرواية فيها «تعرفونه». والرجل الضرّب أي الخفيف من الرجال اللطيف. والخشاش: الماضي في الأمور.

(٤) شرح مشكاة المصابيح للطيبي ـ مخطوط بالمكتبة المحمودية جـ ٤ ورقة ٢٤٩.

٦٣ ــ البخاري ـ كتاب الاعتكاف باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه ـ فتح الباري ٤/٢٨٢. مسند أحمد ٣/١٥٦، ٢٨٥.

(٥) شرح مشكاة المصابيح جـ ١ ورقة ٨٤ مخطوط بالمكتبة المحمودية.

(٦) في شرح المشكاة «على التضمين بمعنى التمكن».

٦٤ ـ حديث (إن اسْتَطَعْتَ أَنْ تُصْبِحَ وتُمسِيَ لَيْسَ في قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ مِن المُسْلمين فَافْعَل).

قال الطيبي[١]: «تصبح» أي تدخل في وقت الصبح. و«ليس» حال تنازع فيه الفعلان[٦]. والمراد بهما الديمومة.

وقوله «فافعل» جزاء. كناية عما سبق في الشرط من المعنى. أي إن فعلت ما نصحتك به فقد أتيت بأمر عظيم.

٦٥ ـ حديث (قَدِمَ عَليٌّ على النبيِّ ﷺ من اليمن، فقال: بِما أَهْلَلْتَ؟).

قال ابن مالك في توضيحه[٣]: شذ ثبوت الألف في «بما أهللت» لأن «ما» استفهامية مجرورة، فحقّها أن تحذف ألفها فرقاً بينها وبين الموصولة. هذا هو الكثير نحو «لِمَ تَلْبِسُون»[٤] و«بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون»[٥] و«فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكراها»[٦]. ونظير هذا الحديث قوله ﷺ «ليأتينّ على الناس زمان لا يبالي المرء مما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»[٧]. وقول سهل بن سعد وقد امتروا في المنبر ممّ عوده «إني لأعرف مما عوده»[٨]. ونظير ثبوت الألف في الأحاديث المذكورة ثبوتها في ﴿عمّا يتساءلون﴾[٩] في قراءة عكرمة وعيسى. ومن ثبوتها في الشعر قول حسان:

على ما قام يَشْتُمُني لئيمٌ كخِنْزيرٍ تَمرّغَ في رَمادِ[١٠]

---

٦٤ ــ الترمذي ـ أبواب العلم ١٥١/٤ رقم ٢٨١٩. الجامع الكبير للسيوطي ٩٦٠/١.

(١) شرح مشكاة المصابيح جـ١ ورقة ١٥٦ ــ ١٥٧.

(٢) أي تصبح وتمسي، فذهب البصريون إلى أن الثاني أولى بالعمل من الأول لقربه، وذهب الكوفيون إلى أن الأوّل أولى بالعمل لسبقه. انظر: شرح الأشموني ١٠١/٢، الإنصاف مسألة ١٣، التبيين للعكبري ص ٢٥٢.

٦٥ ــ البخاري ـ كتاب الحج، باب من أهلّ في زمن النبي ﷺ ٤١٦/٣.

(٣) شواهد التوضيح والتصحيح ١٦٠.

(٤) آل عمران: آية ٧١.

(٥) النمل: آية ٣٥.

(٦) النازعات: آية ٤٣.

(٧) فتح الباري شرح البخاري ٣١٣/٤.

(٨) فتح الباري شرح البخاري ٣٩٧/٢.

(٩) النبأ: آية ١.

(١٠) البيت لحسان بن ثابت. قال ابن الشجري: «ومن العرب من يثبت الألف فيقول لما تفعل كذا، وفيما جئت، وعلى ما تسبني؟». انظر: ديوان حسان بن ثابت ص ٧٩، أمالي ابن الشجري ٢٣٣/٢. شرح ابن يعيش ٩/٤. مغني اللبيب ٣٣١. حاشية الصبان ٢١٦/٤.

وقول عمر بن أبي ربيعة:

عَجَبـا ما عَجِبْتُ ممّا لو ٱبْصَرْ ... تَ خَليلي ماذُونه لَعجِبْتا
لمقالِ الصَّفِيِّ فِيمَ التَجنّي ... ولما قد دعوتَنا وهَجَرْتا[1]

وفي عدول حسّان عن «علام يقوم يشتمني» وعدول عمر عن «ولماذا» مع إمكانهما دليل على أنهما مختاران لا مضطران[2].

٦٦ ـ حديث (ولا تَنْقُشُوا في خَواتيمكم عربي).

قال أبو البقاء[3]: إنما رفع «عربي» لأنه حكاية لقوله «محمد رسول الله» فهو على الحكاية. أي لا تنقشوا ما صورته عربي.

قلت: رواه النسائي[4] بلفظ «عربياً» بالنصب. ويمكن أن يكون في رواية أحمد منصوباً، ولكنه كتب بغير ألف، كما قدرناه في موضع آخر من هذا الكتاب.

٦٧ ـ حديث (وايم الذي نَفْسي بيده لو رَأَيْتُم ما رَأَيْتُ لَضحِكْتُم قليلاً ولَبكيتمُ كثيراً).

قال ابن يعيش في شرح المفصل[5]: «اَيْمُن الله» اسم مفرد موضوع للقسم مأخوذ من اليمن والبركة، كأنهم أقسموا بيمن الله وبركته، وهو مرفوع بالابتداء وخبره محذوف للعلم به، كما كان كذلك في لَعَمْرُ الله. وتقديره: آيْمن الله قسمي أويميني ونحوهما. وفتحت الهمزة منه لأنه غير متمكن، لا يستعمل إلاّ في القسم وحده، فضارع الحرف بقلة تمكنه، ففتح تشبيهاً بالهمزة اللاحقة لام التعريف، وذلك فيه دون بناء الاسم لشبه الحرف، ويؤكد

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٧٣ طبعة صادر.

(٢) مذهب ابن مالك أن الضرورة هي ما ليس للشاعر عنه مندوحة. وهذا مخالف لمذهب الجمهور في الضرورة وأنها ما وقع في الشعر دون النثر سواء كان عنه مندوحة أو لا. وقد نقل البغدادي الردّ على ابن مالك في هذا الرأي في خزانة الأدب ١/٣٠-٣٤.

٦٦ — عن أنس (لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً). مسند أحمد ٣/٩٩. أما رفع «عربي» فهي رواية جامع المسانيد لابن الجوزي التي اعتمد عليها العكبري في الإعراب. انظر: تخريج الحديث من جامع المسانيد ـ في حاشية إعراب الحديث للعكبري ـ رقم الحديث ٣٢.

(٣) إعراب الحديث للعكبري رقم ٣٢.

(٤) سنن النسائي ٨/١٧٧.

٦٧ — الحديث عن أنس، وتكملته (... قالوا: يارسول الله وما رأيت؟ قال: رأيت الجنة والنار). مسند أحمد ٣/١٠٢.

(٥) شرح المفصل لابن يعيش ٩/٩٢.

حال هذا الاسم في مضارعته الحرف أنهم قد تلاعبوا به فقالوا مرة أَيْمُن الله، بالفتح، ومرة إِيمُن الله بكسر الهمزة، ومرة أَيْمُ الله بحذف النون، ومرّة إِيمُ الله بالكسر، ومرة مُ الله، ومرة مَ الله، ومرة مُنِ ربي، ومرة مُنُ ربي[1].

وقال في النهاية[2]: «ايمُ الله» من ألفاظ القسم، كقولك: لَعمُر الله وعَهْدُ الله. وفيها لغات كثيرة: وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها همزة وصل، وقد تقطع. انتهى.

٦٨ ــ حديث (انه أنزلت عليَّ آنفا سورة) وفي حديث جرير (ذكرك آنفا).

قال أبو البقاء[3]: «آنفا» منصوب على الظرف، تقديره ذكرك زماناً آنفا، أي قريباً من وقتنا، وحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. ويجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل، أي ذكرك مستأنفاً لذكرك. ومنه قوله تعالى: ﴿**ماذا قال آنفا**﴾[4]. انتهى.

ومثله حديث «إلّا الدَّيْن سارَّني به جبريلُ آنفا»[5]. وحديث «هل قرأ أَحدُ منكم معي آنفا»[6] وحديث «عرضت علي الجنة والنار آنفا في عرض هذا الحائط»[7].

وقال أبو حيان[8]: «آنفا» منصوب على الحال، تقديره مؤتنفاً مبتدئاً. قال: وأعربه الزمخشري[9] ظرفاً، أي الساعة، ولا أعلم أحداً من النحويين عدّه من الظروف. انتهى.

---

(١) في القاموس المحيط مادة (يمن): أَيْمُنُ الله وأَيْمُ الله وبكسر أولها وأَيْمَنُ الله بفتح الميم والهمزة وتكسر، وإيم الله بكسر الهمزة والميم، وقيل ألفه ألف وصل، وهَيْمُ الله بفتح الهاء وضمّ الميم، وأَم الله مثلثة الميم، وإم الله بكسر الهمزة وضم الميم وفتحها، ومُن الله بضمّ الميم وكسر النون، ومُنُ الله مثلثة الميم والنون، ومُ الله مثلثة، ولَيْمُ الله، ولَيْمَنُ الله اسم وضع للقسم. والتقدير أَيمُنُ الله قسمي.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/٣٠٢. وانظر: الإنصاف مسألة ٥٩.

٦٨ ــ حديث أنس في مسند أحمد ٣/١٠٢. وحديث جرير في مسند أحمد ٤/٣٥٩.

(٣) إعراب الحديث رقم ٩٦.

(٤) سورة محمد: آية ١٦. قال أبو البقاء: (آنفا) ظرف أي وقتاً مؤتنفا. وقيل هو حال من الضمير في قال، أي مؤتنفا. إملاء ما منّ به الرحمن ٢/٢٣٧.

(٥) عن عبد الله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله ماذا لي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: الجنة. فلما ولّى قال إلّا الدَّين، سارني به جبريل آنفا) مسند أحمد ٤/١٣٩ـ١٤٠.

(٦) مسند أحمد ٢/٢٨٤.

(٧) مسند أحمد ٣/١٦٢.

(٨) البحر المحيط ٨/٧٩.

(٩) تفسير الكشاف ٣/٥٣٤.

٦٩ ــ حديث (تلك صلاةُ المُنافقِ، يَجْلسُ يرقُبُ الشَّمْسَ حتى إذا اصْفَرَّتْ قام فنَقر أَرْبَعاً لا يذكر الله فيها إلّا قليلا).

قال الطيبي: «تلك» إشارة إلى ما في الذهن من الصلاة المخصوصة، والخبر بيان ما في الذهن. و«يجلس...» إلى آخره جملة مستأنفة بيان للجملة السابقة. ويجوز أن تكون حالاً. و«الشمس» مفعول «يرقب»، و«إذا» ظرف معمول بدل اشتمال من الشمس، كقوله تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت**﴾[1]. يعني يرقب وقت اصفرار الشمس. وعلى هذا «قام» استئناف. ويجوز أن يكون «إذا» للشرط، و«قام» جزاؤه. والشرطية استئنافية.

وقال الشيخ ولي الدين العراقي[2]: الإشارة بـ«تلك» إلى صلاة العصر التي تؤخر إلى اصفرار الشمس، وكأنه كان تقدم ذكرها من لفظ النبي ﷺ أو بحضرته، فأعاد الإشارة إليه.

٧٠ ــ حديث (يَتْبَعُ المَيِّتَ ثلاثٌ أَهْلُه ومالهُ وعَملُه، فيرجعُ اثنان ويبقى واحد).

قال أبو البقاء[3]: الوجه أن يقال «ثلاثة»، لأن الأشياء المذكورة مذكرات كلها، ولذلك قال «فيرجع اثنان ويبقى واحد» فذكرّ. والأشبه أنه من تغيير الرواة من هذا الطريق. ويحتمل أن يكون الوجه فيه ثلاث عُلَق، والواحدة عُلْقة، لأن كلًّا من هذه المذكورات علقة، ثم إنّه ذكرّ بعد ذلك حملاً على اللفظ بعد أن حمل الأوّل على المعنى. ومنه قوله تعالى: ﴿**ومن تقنُتْ منكنَّ لله ورسوله ويَعْمَلْ صالِحاً**﴾[4] بتأنيث الأول وتذكير الثاني.

---

٦٩ ــ مسلم بشرح النووي ١٢٣/٥. مسند أحمد ١٨٥/٣. وفي مشكاة المصابيح: كتاب الصلاة ـ باب تعجيل الصلوات.

(١) مريم: آية ١٦.

(٢) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الأصولي أبو زرعة أحمد بن الحافظ الكبير أبي الفضل عبدالرحيم بن الحسين، ولد سنة ٧٦٢هـ واعتنى به والده، وكان إماماً. من مصنفاته: شرح سنن أبي داود ـ ولم يتم، شرح البهجة في الفقه، حاشية على الكشاف. مات سنة ٨٢٦هـ. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٤٣. ذيل تذكرة الحفاظ ٢٨٤ـ٢٩١.

٧٠ ــ البخاري: كتاب الرقاق ـ باب سكرات الموت ٣٦٢/١١. مسلم ٩٥/١٨. الترمذي: أبواب الزهد ١٧/٤. مسند أحمد ١١٠/٣ والرواية فيه «ثلاث» وهي متفقة مع إعراب العكبري.

(٣) إعراب الحديث للعكبري رقم ٣٣.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٣١. قال العكبري «ومن يقنت» يقرأ بالياء حملاً على لفظ مَنْ، وبالتاء على معناها ومثله «وتعمل صالحاً». ومنهم من قرأ الأولى بالتاء والثانية بالياء. انظر: إملاء ما منّ به الرحمن ١٩٢/٢.

قلت: رواه البُخاري ومسلم والترمذي والنسائي بلفظ «ثلاثة»، وكذا هو في النسخة التي عندي من المسند[1].

٧١ ــ حديث (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لِنَفْسِه).

قال الحافظ ابن حجر[2]: «يحبَّ» بالنصب، لأن «حتى» جارة، فأَنْ بعدها مضمرة، ولا يجوز الرفع على أن «حتى» عاطفة، لأن المعنى غير صحيح، إذ عدم الإيمان ليس سبباً للمحبّة.

٧٢ ــ حديث (سألتُ الله عز وجل أيّما إنسانٍ مِنْ أُمّتي دَعَوْتُ عليه أن يَجْعلَها له مغفرة).

قال أبو البقاء[3]: «أيّما» يجوز النصب على معنى سببته، وما بعده تفسيرٌ له، والرفع على الابتداء وما بعده خبر.

٧٣ ــ حديث (كان يَدْخُلُ الخَلاء).

قال ابن الحاجب وغيره[4] هو منصوب على الظرفية، لأن «دخل» من الأفعال اللازمة، بدليل أن مصدره على فُعول، وما كان مصدره على فُعول فهو لازم. ولأنه نقيض خرج، وهو لازم فيكون هو أيضاً كذلك.

واختار قومٌ أنه مفعول به. وعن سيبويه[5] أنه منصوب بإسقاط الخافض. وجعله

---

(١) الرواية في النسخة المطبوعة من المسند ٣/ ١١٠ «ثلاث».

٧١ ــ البخاري: كتاب الإيمان ـ باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبّ لنفسه.

(٢) فتح الباري ١/ ٥٧.

٧٢ ــ مسند أحمد ٣/ ١٤١.

(٣) إعراب الحديث رقم ٣٧.

٧٣ ــ عن أنس (كان رسول الله ﷺ يدخل الخلاء فأحمل أنا وغلام نحوي إداوة من ماء وعنزة فيستنجي بالماء) مسند أحمد ٣/ ١٧١. وفي البخاري: كتاب الوضوء (كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث) فتح الباري ١/ ٢٤٢.

(٤) قال الرضي: اعلم أن دخلت وسكنت ونزلت تنصب على الظرفية كل مكان دخلت عليه، مبهماً كان أو لا، نحو: دخلت الدار... انظر: شرح الكافية ١/ ١٨٦.

(٥) قال سيبويه: وأما دخلته دخولاً وولجته ولوجاً فإنما هي ولجْتُ فيه ودخلتُ فيه، ولكنه ألقى «في» استخفافاً... انظر: الكتاب ٤/ ١٠.

الجرمي[1] من الأفعال المتعدية تارة بنفسها وتارة بحرف الجر.

وقال أبو حيان: «دخل» يتعدّى عند سيبويه لظرف الزمان المختص الحقيقي بغير واسطة في، فإن كان مجازياً تعدّى إليه بواسطة في، نحو: دخلتُ في الأمر[2].

٧٤ ــ حديث (لَغَدْوةٌ في سَبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها).

قال الزركشي: «الغدوة» بالفتح المرة من غدا يغدو. و«الروحة» بالفتح المرة من راح يروح. أي الخرجة الواحدة في هذا الوقت من أول النهار وآخره في الجهاد. أي ثواب ذلك في الجنة خير من الدنيا.

٧٥ ــ حديث (مَنْ نَسِيَ صَلاةً أَوْ نام عَنْها).

قال الطيبي[3]: ضمن «نام» معنى غفل، أي غفل عنها في حال نومه.

قوله (فكفّارتها).

قال الطيبي: الكفارة عبارة عن الفعلة أو الخصلة التي من شأنها أن تكفّر الخطيئة، وهي فعّالة للمبالغة كقتّالة وضرّابة، وهي من الصفات الغالبة في الاسمية.

٧٦ ــ حديث (العيادَةُ فُواقُ ناقَة).

---

(١) صالح بن اسحاق أبو عمر الجرمي البصري. كان فقيهاً عالماً بالنحو واللغة، ديّناً ورعاً أخذ النحو عن الأخفش ويونس واللغة عن الأصمعي وأبي عبيدة. له من التصانيف: التنبيه وكتاب السِّيَر، وغريب سيبويه. مات سنة ٢٢٥هـ. بغية الوعاة ٢/٨ـ٩.

(٢) قال الأشموني ٢/١٢٦ في نحو دخلت البيت وسكنتُ الدار: انتصابه على المفعول به بعد التوسع بإسقاط الخافض، هذا مذهب الفارسي والناظم، ونسبه لسيبويه. وقيل منصوب على المفعول به حقيقة، وأن نحو دخل متعدّ بنفسه، وهو مذهب الأخفش. وقيل على الظرفية تشبيهاً له بالمبهم، ونسبه الشلوبين إلى الجمهور.

٧٤ ــ البخاري: كتاب الجهاد ـ باب الغدوة والروحة ٦/١٣. مسلم: كتاب الامارة ـ باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله ١٣/٢٦. مسند أحمد ٣/١٣٢ـ١٤١.

٧٥ ــ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (من نسي صلاة أو نام عنها فكفّارتها أن يصليها إذا ذكرها). مسلم بشرح النووي ٥/١٩٣. مسند أحمد ٣/١٠٠. البخاري: كتاب المواقيت ٢/٧٠.

(٣) شرح مشكاة المصابيح ـ مخطوط المحمودية جـ١ ورقة ٢٤٢.

٧٦ ــ الحديث في ضعيف الجامع الصغير للسيوطي برقم ٣٩٠٣. وفي مشكاة المصابيح: كتاب الجنائز ـ باب عيادة المريض برقم ١٥٩٠.

قال الطيبي[1]: «فُواق» خبر المبتدأ، أي زمان العيادة مقدار فواق[2] ناقة.

٧٧ ــ حديث (لَبَّيْكَ عُمْرةً وحَجًّا).

قال أبو البقاء[3]: النصب بفعل محذوف تقديره أريد عمرةً وحجا، أو نويت عمرةً وحجا.

٧٨ ــ حديث (كان النبي ﷺ يُصَلّي في نَعْلَيه).

قال ابن مالك[4]: «في» هنا بمعنى باء المصاحبة، كقوله تعالى: ﴿**فَخَرجَ على قَوْمِه في زِينَتِه**﴾[5].

٧٩ ــ حديث الإسراء، قوله (قالوا مَرْحَباً بِه وأَهْلاً).

هما منصوبان بفعل مضمر وجوباً، أي صادفت رُحباً، بضم الراء، أي سعة، ووجدت أهلاً، فاستأنس.

وقال القاضي عياض[6] والنووي: «مرحبا» نصب على المصدر، وهو لفظ استعملته العرب وأكثرت منه، تريد به البرّ وحسن اللقاء. ومعناه صادفت رُحباً وسعةً وبِرّاً.

وقال الزركشي[7]: هو منصوب بفعل لا يظهر. وقيل على المصدر. وقال الفراء: معناه رحب الله بك، كأنه وضع موضع الترحيب[8].

---

(١) شرح مشكاة المصابيح جـ ٢ ورقة ٦٠.

(٢) الفُواق ما بين الحلبتين من الوقت، أو ما بين فتح يدك وقبضها على الضرع (القاموس المحيط).

٧٧ ــ مسند أحمد ٣/٩٩. مسلم ٨/٢١٦.

(٣) إعراب الحديث النبوي برقم ٣٨.

٧٨ ــ البخاري: كتاب الصلاة ـ باب الصلاة في النعال ١/٤٩٤. مسند أحمد ٣/١٠٠.

(٤) شواهد التوضيح ص ١٩٦.

(٥) القصص: آية ٧٩.

٧٩ ــ حديث طويل ورد بروايات مختلفة. انظر: البخاري: كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٦/٣٠٢، كتاب مناقب الأنصار ـ باب المعراج ٧/٢٠١، كتاب الصلاة ـ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ١/٤٥٨. مسلم بشرح النووي ٢/٢١٠ وما بعدها.

(٦) قال القاضي عياض: .. معناها صادفت رحباً أي سعة. نصبت على المفعول، وقيل على المصدر، أي رحب الله بك مرحباً، ووضع موضع الترحيب ـ وهو مذهب الفراء. انظر: مشارق الأنوار ١/٢٨٥ طبع المكتبة العتيقة ـ دار التراث.

(٧) شرح صحيح البخاري للزركشي جـ ٢ ص ٣.

(٨) في بعض النسخ «الرحب».

قوله (فلمّا مرَّ جِبْريلُ بالنبي ﷺ بإدريس).

قال الكرماني[1]: الباء الأولى للمصاحبة، والثانية للإلصاق.

قوله (ونِعْمَ المَجيء جاء).

قال المظهري[2]: المخصوص بالمدح محذوف، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: جاء فنعم المجيء مجيئه.

وقال ابن مالك في توضيحه[3]: فيه شاهد على الاستغناء بالصلة عن الموصول، أو بالصفة عن الموصوف، في باب نِعْمَ، لأنها تحتاج إلى فاعل هو المجيء، وإلى مخصوص معناها، وهو مبتدأ مخبر عنه بنِعْم وفاعلها، وهو في هذا الكلام وشبهه موصول أو موصوف بجاء، والتقدير: ونِعْمَ المجيء الذي جاء، أو نعم مجيء جاء. وكونه موصولاً أجود لأنه مخبر عنه، وكون المخبر عنه معرفة أولى من كونه نكرة.

قوله (أَصَبْتَ الفِطْرةَ أَنْتَ وأُمَّتُك)[4].

قال الكرماني[5]: فإن قلت كيف تقدّر العامل هنا، إذ لا يصح أن يقال أصبت أمتُك؟ قلت: يقدر على وجه ينصبُّ إلى صحة المعنى، كما يقال في قوله تعالى: ﴿**اسكنْ أَنْتُ وزَوْجُك**﴾[6] إن تقديره: ولتسكن زوجُك.

قوله (قَدْ والله راوَدْتُ بني إسرائيل).

قال الكرماني[7]: فإن قلت «قد» حرف لازم دخوله على الفعل. قلت: هو داخل عليه، والقسم مقحم بينهما لتأكيده.

قوله (بيت المقدس).

---

(١) صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ ٤ ص ٥.

(٢) هو مظهر الدين الحسين بن محمود بن الحسن الزيداني المتوفي سنة ٧٢٧هـ، له شرح على مصابيح السنة سماه «المفاتيح في شرح المصابيح». انظر: كشف الظنون ٢/١٦٩٩.

(٣) شواهد التوضيح ص ١١٠.

(٤) البخاري: كتاب الأشربة ـ باب شرب اللبن.

(٥) البخاري بشرح الكرماني ٢٠/١٥٨.

(٦) البقرة: آية ٣٥.

(٧) البخاري بشرح الكرماني ٢٥/٢٠٨.

قال أبو علي الفارسي: لا يخلو إما أن يكون مصدراً أو مكاناً؛ فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى: ﴿إليه مرجعكم﴾[1] ونحوه من المصادر. وإن كان مكاناً فمعناه بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة، أو بيت مكان الطهارة.

وقال الزجاج: أي بيت المكان الذي يطهر فيه من الذنوب.

قوله (فإذا أنا بابني الخالة).

قال الأزهري[2]: قال ابن السكيت[3]: يقال هما ابنا عمّ ولا يقال ابنا خال، ويقال هما ابنا خالة ولا يقال ابنا عمة[4].

قوله (إذا هو قد أُعطي شَطر الحسن).

قال الطيبي[5]: بدل من الأول في معنى بدل الاشتمال.

قوله (مسنداً ظهره).

قال الطيبي[5]: منصوب على الحال. وروي بالرفع على حذف المبتدأ.

قوله (يدخلُه كلَّ يَوْمٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم).

قال النووي[6]: قال صاحب المطالع[7]: «آخر» برفع الراء ونصبها، فالنصب على الظرف، والرفع على تقدير ذلك آخرِ ما عليهم من دخوله. قال: والرفع أَوْجَه.

قوله (كُتبت له حسنة).

قال الطيبي[8]: «كتبت» مبني للمفعول، والضمير فيه راجع إلى قوله «حسنة». و«حسنةً» وضعت موضع المصدر، أي كتبت الحسنة كتابة واحدة، وكذا «عشرا» وكذا «شيئاً» منصوبان على المصدر.

---

(١) الأنعام: آية ٦٠. يونس: آية ٤.

(٢) تهذيب اللغة ٧/٥٥٩.

(٣) إصلاح المنطق ص ٣١٢.

(٤) من قوله «بيت المقدس» إلى هنا، الكلام كلُّه في مسلم بشرح النووي ٢/٢١١ وما بعدها.

(٥) شرح مشكاة المصابيح جـ ٤ ورقة ٢٦٦ مخطوط.

(٦) مسلم بشرح النووي ٢/٢٢٥.

(٧) مطالع الأنوار على صحاح الآثار: في فتح ما استغلق من كتاب الموطأ ومسلم والبخاري، في غريب الحديث، لابن قرقول إبراهيم بن يوسف المتوفى سنة ٥٦٩هـ، وضعه على منوال مشارق الأنوار للقاضي عياض. انظر: كشف الظنون ٢/١٧١٥.

(٨) شرح مشكاة المصابيح للطيبي ـ مخطوط جـ ٤ ورقة ٢٦٦.

قوله (فشُقّ من النَّحرْ إلى مَراقِّ البطن).

قال الجوهري[1]: [مراقّ] لا واحد لها.

وقال الواحدي[2]: واحدها مَرَقّ.

٨٠ ـ حديث (رُصُّوا صُفُوفَكُم وقاربوا بَيْنَها وحاذُوا بالأَعْناق، فوالذي نَفْسي بيده إني لأَرى الشَّيطانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفّ كأَنَّها الحَذَف)[3].

قال المظهري في شرح المصابيح: الضمير في «كأنها» راجع إلى مقدر، أي جعل نفسه شاة أو ماعزة كأنها الحذف.

وقال الطيبي في شرح المشكاة[4]: الضمير إذا وقع بين شيئين أحدهما مذكر والآخر مؤنث يجوز تذكيره وتأنيثه، كما في قولهم: من كانت أمَّك، ومن كان أمَّك[5]. وهنا الحَذَف مؤنث، والشيطان شُبّه بها، فيجوز تأنيث الضمير باعتبار الحَذَف وتذكيره باعتبار الشيطان.

٨١ ـ حديث (ما مِنْ أَحدٍ يومَ القِيامة غَنِيّ ولا فَقير إلاّ وَدَّ أَنما كان أُوتي مِنَ الدّنيا قوتا).

قال أبو البقاء[6]: «مِنْ» زائدة. و«غني» بالرفع صفة لأحد على الموضع، لأن الجار والمجرور[7] في موضع رفع. ونظيره قوله تعالى: ﴿**ما لكُم مِنْ إلهٍ غيره**﴾[8] بالرفع على الموضع وبالجر على اللفظ. ويجوز في الحديث «غنيٍ ولا فقيرٍ» بالجر على اللفظ أيضاً.

---

(١) الصحاح (مادة رقّ): مراقُّ البطن ما رقّ منه ولان، ولا واحد له.

(٢) علي بن أحمد الإمام أبو الحسن الواحدي، إمام مصنف مفسرّ نحوي، أتقن الأصول على الأئمة، صنّف: البسيط والوسيط والوجيز في التفسير، أسباب النزول، شرح ديوان المتنبي. مات سنة ٤٦٨هـ. انظر: بغية الوعاة ٢/١٤٥.

٨٠ ــ مسند أحمد ٣/٢٦٠. سنن أبي داود: تسوية الصفوف برقم ٦٦٧ (تحقيق الشيخ محيي الدين).

(٣) قال في النهاية ١/٣٥٦: الحَذَف هي الغنم الصّغار الحجازية، واحدتها حَذَفة بالتحريك. وقيل: هي صغارٌ جُرْدٌ ليس لها آذان ولا أذناب يجُاء بها من جُرَش اليمن.

(٤) شرح مشكاة المصابيح للطيبي جـ ٢ ورقة ٦.

(٥) قال بعض العرب: من كانت أُمَّك. حيث أوقع مَنْ على مؤنث... قالوا: من كان أُمَّك... انظر: الكتاب لسيبويه ١/٥١ تحقيق هارون.

٨١ ــ مسند أحمد ٣/١١٧.

(٦) إعراب الحديث النبوي برقم ٤٤.

(٧) الصحيح ان المجرور وحده في محل رفع.

(٨) الأعراف: آية ٥٩. قرأ الكسائي وحده «ما لكم من إله غيره» خفضاً، وقرأ الباقون رفعاً. انظر: السبعة في القراءات ص ٢٨٤.

٨٢ ـ حديث (كان لا تشاء أَنْ تَراه مِنَ الليل مُصَلِّياً إلاّ رأَيْتَه).

قال المظهـري: «لا» بمعنى ليس، أوبمعنى لم، أي لست تشـاء أولم تكن تشـاء، أو تقديره لا زمان تشاء.

وقـال الطيبي[1]: لعـل هذا الـتركيب من باب الاستثنـاء على البدل، وتقديره على الإثبات أن يقال: إن تشأ رؤ يته متهجداً رأيته متهجداً، وإن تشأ رؤ يته نائماً رأيته نائماً، يعني كان أمره قصداً لا إسراف ولا تقصير.

٨٣ ـ حديث (**الصَّلاةَ** وما مَلكَتْ أَيْمانكُم).

هو منصوب على الإغراء.

قال ابن مالـك في شرح الكـافيـة[2]: معنى الإغـراء إلزام المخاطب العكوف على ما يحمد العكوف عليه من مواصلة ذوي القربى والمحافظة على عهود المعاهدين، ونحو ذلك. كقولك لمن تغريه برعاية الخلة وهي المودّة: الخَلّةَ الخَلَّةَ. أي إلزم الخلة. والثاني من الاسمين بدل من اللفظ بالفعل. وكذا المعطوف كقولك لمن تغريه بالذبّ والحميّة: الأهلَ والولدَ. أي الزم الذبّ عنهم. وقد يجاء باسم المغرى به مع التكرار مرفوعاً، قال الشاعر:

إن قَوْمـاً مِنْهـمُ عُمـيرٌ وأشـبـا ... هُ عُمَـيرْ ومـنهُـمُ الـسَّـفّـاحُ
لَجَديـرونَ بِالـوفـاء إذا قا ... ل أَخُـوالـنَّجـدةِ الـسِّـلاحُ السِّلاحُ[3]

٨٤ ـ حديث (اللهُمَّ إنّي أَشْهَدُ أَنَّك أَنْتَ الله لا إِلهَ إلاّ أَنْتَ أَحَداً صَمَدا).

قال الطيبي[4]: «أحداً صمداً» منصوبان على الاختصاص، كقوله ﴿**شهد الله أنه لا**

---

٨٢ — عن أنس (كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلاّ رأيته، ولا نائماً إلاّ رأيته). البخاري: كتاب التهجد ١٢/٣.

(١) شرح مشكاة المصابيح للطيبي جـ ٢ ورقة ٢٤.

٨٣ — عن أنس (كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاة وما ملكت أيمانكم . . .) مسند أحمد ١١٧/٣. ابن ماجه ٦١٨/١، ٩٠١/٢.

(٢) شرح الكافية الشافية لابن مالك ١٣٨٠/٣.

(٣) البيتان من البحر الخفيف، ولم يعرف قائلها. انظر: الأشموني مع الصبان ١٩٣/٣. همع الهوامع ٢٨/٣. معاني القرآن للفراء ٢٦٩/٣.

٨٤ — الحديث في مشكاة المصابيح: كتاب الدعوات ـ باب أسماء الله تعالى ـ برقم ٢٢٩٣.

(٤) شرح مشكاة المصابيح جـ ٢ ورقة ١٨٦.

إله إلّا هو﴾ إلى قوله ﴿قائماً بالقسط﴾[1]. ورُوي مرفوعان معرّفان صفتان لله[2].

٨٥ ـ حديث (إنَّ الحَمْدَ لله وسُبْحانَ الله ولا إله إلّا الله والله أَكْبَرُ تُساقِطُ ذُنُوبَ العَبْدِ كما يتساقطُ وَرَقُ الشجَّرَ).

قال الطيبي[3]: «تُساقط» بضم التاء. وقوله «كما يتساقط» إن جعل صفة مصدر محذوف لم تبق المطابقة بين المصدرين[4]، وإن جعل حالاً من الذنوب استقام، ويكون تقديره: تساقط الذنوب، مشبهاً تساقطها بتساقط الورق.

٨٦ ـ حديث (قُلت: يارسولَ الله وَلَدَتْ أُمُّ سُلَيم، قال: الله أكبر، ما وَلَدَت؟ قلت: غُلاماً. قال: الحَمْدُ لله، هاتِه).

سئل أبو محمد بن السِّيد البطليوسي عن قولهم: ما ولد لفلان؟ ولم يقولوا: مَنْ ولد لفلان؟ فأجاب بأن هذا توهمّ من السائل، وأن «مَنْ» أكثر استعمالاً وأذهب في القياس. انتهى.

وقوله «غلاماً» بالنصب لأنه جواب ما المنصوبة بولدت، على حدّ قوله تعالى ﴿ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: خيرا﴾[5].

وقوله «هاته» يحتمل أن تكون هاء السكت، وأن تكون هاء المفعول، فيستدل به على أن «هات» فعل.

وقوله في الطريق الآخر (لعلّ أم سُلَيم ولدت)[6].

---

(١) آل عمران: آية ١٨.

(٢) كذا ورد النص في النسخ المخطوطة، وفيه إشارة إلى الحديث عن بريدة قال سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهمّ إنّي أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلّا أنت الأحدُ الصمدُ...). مسند أحمد ٥/٣٥٠، ٣٦٠.

٨٥ — الترمذي: أبواب الدعوات ٥/٢٠٣ برقم ٣٥٩٩. مشكاة المصابيح: كتاب الدعوات ـ باب ثواب التسبيح. برقم ٢٣١٨.

(٣) شرح مشكاة المصابيح ٢/١٩١.

(٤) أي مصدر تُساقط مساقطة ومصدر يتساقط تساقط فالتقدير يكون: تُساقط الذنوبُ مساقطةً مشبهةً تساقط ورق الشجر. فتخالف المصدران.

٨٦ — مسند أحمد ٣/١٨١.

(٥) سورة النحل: آية ٣٠.

(٦) الطريق الآخر للحديث في مسند أحمد ٣/١٩٦.

الظاهر أن «لعل» للاستفهام كقوله تعالى ﴿وما يُدْريكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾[١]. وقال النبي ﷺ لبعض الأنصار وقد خرج إليه مستعجلاً «لعلّنا أعجلناك»[٢].

٨٧ ـ حديث (إنّ رَجُلَين مِنْ أَصْحابِ النبيِّ ﷺ خرَجا مِنْ عند رسول الله ﷺ في ليلة مُظلمة ومعهما مِثلُ المِصْباحَيْنِ يُضيئانِ بَينَ أيديهما).

قال الكرماني[٣]: قال الزمخشري[٤]: «أضاء» إما متعدّ بمعنى نوّر، وإما غير متعدّ بمعنى لَمعَ. قال[٥]: فقوله «بين أيديهما» مفعول فيه إن كان فعل الإضاءة لازماً، ومفعول به إن كان متعدياً.

٨٨ ـ حديث (أَما تَرْضَى أَنْ تكونَ لَهُم الدُّنيا ولَنا الآخِرة).

ليست «أما» هذه الاستفتاحية، وإنما هي «ما» النافية دخلت عليها همزة الاستفهام. ولهذا قال عمر في الجواب: بلى.

ومثله حديث «أما يخشى أحدُكم إذا رفع رأسه في الصلاة أن لا يرجع إليه بصره»[٦].

وحديث «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار»[٧].

وحديث «انه رأى رجلاً شعثاً فقال: أما كان يجد هذا ما يسكّن به رأسه»[٨].

قال ابن هشام في المغني[٩]: زاد المالقي[١٠] لِـ«أَمَا» معنى ثالثاً، وهو أن تكون حرف عرض بمنزلة لولا، فتختص بالفعل، نحو: أما تقوم، أما تقعد، وقد يُدّعى في ذلك أن

---

(١) عبس: آية ٣.
(٢) البخاري ١/٢٨٤. مسند أحمد ٣/٢١.
٨٧ — البخاري: كتاب الصلاة ١/٥٧.
(٣) صحيح البخاري بشرح الكرماني ٤/١٢٦.
(٤) الكشاف ١/٤٢.
(٥) أي الكرماني.
٨٨ — مسند أحمد ٣/١٤٠، مسلم بشرح النووي ١٠/٨٧، وهذا جزء من حديث قاله النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٦) مسند أحمد ٥/٩٢.
(٧) البخاري ٢/١٨٢. مسلم ٤/١٥١. مسند أحمد ٢/٤٧٢.
(٨) مسند أحمد ٣/٣٥٧.
(٩) مغني اللبيب لابن هشام ص ٥٧.
(١٠) رصف المباني للمالقي ص ٩٦.

الهمزة للاستفهام التقريري مثلها في: ألم، وألا، وأنّ «ما» نافية.

٨٩ ـ حديث (لما ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ جَعلَ يتغشّاه الكَرْب. فقالت فاطمة: واكَرْبَ أَبَتاه. فلما مات قالت: ياأبتاه، أجاب ربّاً دَعاه، ياأبتاه مِنْ رّبه ما أدناه).

قال الزركشي: رواه مبارك بن فضالة عن ثابت «واكرباه».

وقال الطيبي[1]: «يا أبتاه» أصله يا أبي، فالتاء بدل من الياء لأنهما من حروف الزوائد، والألف للندبة لمدّ الصوت، والهاء للسكت.

قال: وقوله (مَنْ جَنّةُ الفِرْدَوس) وقع مَنْ موصولة، وفي بعض النسخ وقعت جارة. والأول أنسب لأنه من وادي قولهم: وامَنْ حفر بئر زمزماه[2].

٩٠ ـ حديث (لمّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ أتاه المهاجرون فقالوا: يارسولَ الله ما رأينا قوماً أَبْذَلَ مِنْ كثيرٍ ولا أَحْسَنَ مواساةً من قليلٍ من قَوْمٍ نَزَلْنا بَيْنَ أَظْهُرِهم).

قال الطيبي: الجاران والمجروران ـ أعنى قوله «من كثير ومن قليل» ـ متعلقان بالبذل والمواساة. وقوله «من قوم» صلة لأبذل وأحسنَ على سبيل التنازع، وقوم هو المفضّل.

٩١ ـ حديث (إذا تَزَوَّجَ الْعَبْدُ فَقَد اسْتَكْمَلَ نِصْفَ دينه فَلْيَتَّقِ الله في النِّصفِ الآخَرِ).

قال الطيبي: قوله «فقد استكمل» يحتمل أن يكون جواباً للشرط، و«فليتق الله» عطف عليه. ويجوز أن يكون الجواب الثاني والأول عطف على الشرط، فعلى هذا السبب مركب والمسبب مفرد. فالمعنى أنه معلوم أن التزوج نصف الدين، فمن حصّل هذا فعليه بالنصف الباقي. وهذا أبلغ لما يؤذن أنه مقرر ومعلوم أن التزوج يحصّن نصف الدين.

وعلى الوجه الآخر إعلام بذلك فلا يكون مقرراً. وعلى الأوّل السبب مفرد والمسبب مركب. وفيه إعلام أن التزوج سبب لاستكمال نصف الدين المترتب عليه تقوى الله تعالى.

---

٨٩ ـ البخاري: كتاب المغازي ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته ٨/١٤٩ وفيه «يا أبتاه مَنْ جنة الفردوس مأواه...».

(١) شرح مشكاة المصابيح للطيبي جـ ٤ ورقة ٢٨٧.

(٢) المندوب وهو المتفجع عليه أو المتوجع منه لا يكون نكرة كرجل، ولا مبهماً كأيّ واسم الإشارة والموصول، إلّا ما صلته مشهورة فيندب نحو: وامَنْ حفر بئر زمزماه، فإنه بمنزلة «واعبد المطلباه»... انظر: أوضح المسالك ٤/٥٢ـ٥٣.

٩٠ ـ الترمذي: أبواب صفة القيامة ٤/٦٥.

٩١ ـ صحيح الجامع الصغير ١/١٧٦ برقم ٤٤٣. مشكاة المصابيح: كتاب النكاح برقم ٣٠٩٦.

٩٢ ـ حديث (اللهُمَّ إِنَّكَ إنْ تَشأْ لا تُعْبَد بَعْدَ اليوم).

قلت: الفصيح في مثل هذا جزم «تعبدْ» جواباً للشرط، وجملة الشرط وجوابه خبر إنّ. ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إنْ تَذرْهم يُضِلّوا عِبادَك ولا يلدوا﴾[1]. وقد يرفع[2] كقول الشاعر:

يا أقرعُ بْنَ حابسٍ يا أقرعُ   إنّك إنّ يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ[3]

وقال الكرماني[4]: مفعول «إن تشأْ» محذوف، وهو نحو: إنّ تشأْ هلاكَ المؤمنين. إذ «لا تعُبدْ» في حكم المفعول، والجزاء محذوف.

٩٣ ـ حديث (مَنْ يَشْتري العبد؟ فقال: يارسول الله، إذن والله تجِدَني كاسدا).

فيه الفصل بين إذن والفعل بالقسم وهو شائع مغتفر[5].

٩٤ ـ حديث (لَوخَرَجْتُم إِلى ذَوْدٍ لَنا فَشَرِبْتُم مِنْ أَلْبانِها).

قلت: فيه حذف جواب لو، أي لنفعكم أو لشفيتم.

قال ابن يعيش[6]: قد يحذف جواب «لو» كثيراً. قال تعالى: ﴿ولو ترى إذْ وُقِفوا

---

٩٢ ـ مسند أحمد ٣/١٥٢. البخاري: كتاب التفسير ـ باب قوله «سيهزم الجمع ويولون الدّبر» ٨/٦١٩. مسلم بشرح النووي ١٢/٤٨.

(١) نوح: آية ٢٧.

(٢) وعليه قراءة طلحة بن سليمان وهي قراءة شاذة «أينما تكونوا يدركُكُم الموت». الأشموني ٤/١٩. التصريح ٢/٢٤٩.

(٣) قاله جرير بن عبد الله البجلي وقيل عمر بن خثارم البجلي. والشاهد فيه «تصرعُ» الثاني حيث جاء مرفوعاً، وهو ساد مسدّ جواب الشرط. انظر: الكتاب لسيبويه ١/٦٧. شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ٢/١٢١-١٢٢. العيني على الأشموني ٤/١٨. شرح الكافية الشافية لابن مالك جـ ٣ ص ١٥٩٠.

(٤) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١٥/١٥٧ ببعض اختلاف.

٩٣ ـ مسند أحمد ٣/١٦١.

(٥) «إذن» تنصب الفعل المضارع بثلاثة شروط: كونه مستقبلاً، أن تكون مصدرّة، أن يليها الفعل. ويغتفر الفصل بالقسم وبلا النافية خاصة، لأن القسم تأكيد لربط إذن... انظر: همع الهوامع ٤/١٠٥.

٩٤ ـ عن أنس قال: (أسلم ناس من عرينة فاجتووا المدينة فقال لهم رسول الله ﷺ: لوخرجتم إلى ذود لنا فشربتم من ألبانها...) مسند أحمد ٣/٢٠٥. وفي البخاري بروايات مختلفة: كتاب الوضوء ـ باب أبواب أبوال الإبل ١/٣٣٥. وفي ابن ماجه: باب أبوال الإبل رقم ٣٥٠٣.

(٦) شرح المفصل لابن يعيش جـ ٩ ص ٧-٩.

عَلى النّار﴾[1]. الجواب محذوف تقديره أي لرأيت سوء منقلبهم، ﴿ولَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال﴾[2] أي لكان هذا القرآن. ومن ذلك «لَوْ ذاتُ سِوارٍ لَطَمْتني»[3] لم يأت بجواب، والمراد لانتصفْتُ. وذلك كلّه للعلم بموضعه. وقال أصحابنا إن حذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره، لأن الإبهام أوقع في النفس.

٩٥ ـ حديث (انه ﷺ أُتي بالبُراقِ فاسْتَصْعَبَ عليه، فقال له جبريل: أبمحمدٍ تفعلُ هذا؟ فوالله مَا رِكِبَكَ أَحدٌ قطُّ أكرم على الله منه. قال: فارْفَضَّ عَرَقا).

[عرقا] هو منصوب على التمييز المحوّل عن الفاعل.

٩٦ ـ حديث (آتي بابَ الجنَّةِ فأَسْتَفتحُ، فيقولُ الخازِنُ: مَنْ؟ فأقول: مُحَمّد. فيقول: بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أفتح لأحدٍ قَبْلَك).

قال الطيبي[4]: «بك» متعلق بأمرت، والباء للسببيّة قدّمت للتخصيص.

المعنى: بسببك أمرت بأن لا أفتح لغيرك لا بشيء آخر. ويجوز أن يكون صلة للفعل، و«أن لا أفتح» بدلاً من الضمير المجرور، أي أمرت بأن لا أفتح لأحدٍ غيرك. اهـ.

٩٧ ـ حديث (وإذا صلَّى جالِساً فصلُّوا جُلوساً **أجمعون**).

قال الزركشي[5]: [أجمعون] هو تأكيد لضمير الفاعل في قوله «فصلوا». ويروى «أجمعين» وفيه وجهان، أحدهما: أن يكون حالاً أي مجتمعين، أوتأكيداً لقوله «جلوساً». ولا يجيء عند البصريين لأن ألفاظ التأكيد معارف.

---

(١) الأنعام: آية ٢٧.

(٢) الرعد: آية ٣١.

(٣) مثل قاله حاتم الطائي حين لطمته جارية وهو مأسور في بعض أحياء العرب. انظر: التصريح ٢/٢٥٩، الصبان والأشموني ٤/٣٩. ويروى أيضاً «لو غير ذات سوار لطمتني» انظر: مجمع الأمثال ٢/١٧٤، ٢٠٢.

٩٥ ــ مسند أحمد ٣/١٦٤.

٩٦ ــ مسند أحمد ٣/١٣٦. مسلم بشرح النووي ٣/٧٣.

(٤) شرح مشكاة المصابيح للطيبي جـ ٤ ورقة ٢٤٤.

٩٧ ــ مسند أحمد ٣/١١٠، ١٦٢. البخاري: كتاب الصلاة ـ باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ٢/١٧٣. مسلم بشرح النووي ٤/١٣١. أبو داود: الإمام يصلي من قعود.

(٥) شرح صحيح البخاري للزركشي ٢/١٥٥.

٩٨ ـ حديث (مَنْ صَلَّى الضُّحى ثنْتَي عَشْرةَ رَكْعَةً بَنَى الله له قَصْراً في الجنّة).

قال الحافظ زين الدين العراقي[١] في شرح الترمذي: يحتمل أن يكون «الضحى» مفعول صلَّى، أي صلاة الضحى. و«ثنتي عشرة» تمييز. ويحتمل أن يكون مفعول صلّى قوله «ثنتي عشرة ركعة» وأن يكون «الضحى» ظرفاً، أي من صلّى وقت الضُّحى.

٩٩ ـ حديث (إنّي لأَخْشاكُم لله).

قال الطيبي[٢]: «لله» مفعول لأخشاكم. وأفْعَلَ لا يعمل في الظاهر إلّا في الظرف.

قال: وقوله (ولكنّي أصومُ وأُفْطِر) المستدرك منه مقدّر، أي أخشاكم لله فينبغي أن أقوم في العبادة إلى أقصى غايتها، لكني أقصد فيها فأصوم وأفطر وأصلي وأنام. وقوله (فَمَنْ رَغِبَ عن سُنّتي) الفاء متعلقة بمحذوف، أي لكني أفعل ذلك لأبيّنَ للناس الطريقة المثلى والسنة العظمى، فمن رغب عنها فليس مني. و«مِنْ» في «مِنّي» إيصالية كما في قوله تعالى: ﴿المنافِقُونَ والمنافِقاتُ بعضهمُ مِنْ بعض﴾[٣]. وقوله «مَنْ لم يوتر فليس منّا»[٤] أي فليس بمتصل بنا وبهدينا وطريقتنا. وقول الشاعر:

فإني لستُ منك ولستَ منّي[٥]

انتهى.

---

٩٨ — الترمذي: باب ما جاء في صلاة الضُّحى ١/٢٩٥ برقم ٤٧١.

(١) هو الحافظ أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين زين الدين العراقي المتوفى سنة ٨٠٦هـ من مؤلفاته: التقييد والايضاح على مقدمة ابن الصلاح. وقد مرت ترجمته في الحلقة السابقة.

٩٩ — عن أنس (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبروا كأنهم تقالّوها... فجاء رسول الله ﷺ فقال... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّي أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني). البخاري: كتاب النكاح ـ باب الترغيب في النكاح ٩/١٠٤. وانظر: مسند أحمد ٣/٢٨٥ باختلاف.

(٢) شرح مشكاة المصابيح جـ ١ ورقة ١٣٩.

(٣) التوبة: آية ٦٧.

(٤) مسند أحمد ٢/٤٤٣، ٥/٣٥٧.

(٥) عجز بيت للنابغة الذبياني، وصدره:

إذا حاولتَ في أسد فجوراً...

وبعده:

فهم درعي التي استلأمتُ فيها ... إلى يوم النِّسار وهم مجنّي

من قصيدة قالها النابغة لما قتلت بَنو عبس نضلة الأسدي، وقتلت بنو أسد منهم رجلين. والمخاطب بهذا الشعر عينية بن حصن الفزاري، لأنه أراد أن يقطع الحلف الذي بين بني أسد وبني ذبيان، والفجور أراد به نقض ما بين عيينة وبني أسد من الأمان والحلف. =

١٠٠ ــ حديث (انه ﷺ قال: يا **معاذ** بْنَ جَبَل).

هو بنصب «ابن» لا غير، ويجوز في «معاذ» الضمّ والفتح.

قال ابن مالـك في شرح الكـافيـة(١): يجوز في العلم المضمـوم في النـداء أن يفتـح إذا وصف بابن متصل مضافاً إلى علم نحو: يا زَيْدَ بْنَ عَمْرو. ولا يمتنع الضمّ، وهو عند المبرّد أولى من الفتح.

وقـال الأُبَّـدَي(٢) في شرح الجزولية: الضمّ على أصله في النداء، ونصب الابن على النعت، لأنـه لا يستعمـل في الخـبر إلّا نعتـاً فكـذا يكـون في النداء، والفتح على التركيب وجعلهما اسماً واحداً، وكأن حرف الإعراب على هذا في آخر النعت.

وقـولـه (مـا مِنْ أحـدٍ يَشْهَـدُ أَنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله صِدْقا مِنْ قلبه إلّا حرَّمَه الله على النار).

قال الكـرمـاني(٣): هو استثنـاء من أعمّ الصفـات، أي ما أحد يشهد كائناً بصفة إلّا بصفة التحريم.

وقوله (أَفَلا أُخبرُ بِه الناسَ **فَيَسْتَبْشِروا**).

= واللأمة: الدرع. واستلأمت: لبست الدرع. والمجن: الترس.

انظـر: ديـوان النـابغة الذبياني ص ١٢٣ ـ طبعة دار صادر ـ بيروت. شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ـ تحقيق د. محمد علي سلطاني ٢ /٣٣٥. وقد استشهد سيبويه بالبيت على حذف ياء المتكلم تشبيهاً بياء القاضي، قال سيبويه ٤ /١٨٦: «وذلك قولك هذا غلامْ وأنت تريد هذا غلامي، . . . وقال النابغة:

إذا حاولت في أسدٍ فجورا   فإني لستُ منكَ ولستَ مِنْ

يريد منّي. وقال النابغة:

وهم وردوا الجفار على تميمٍ   وهم أصحابُ يوم عكاظ إنْ

يريد: إنّي. سمعنا ذلك ممن يرويه عن العرب الموثوق بهم. وترك الحذف أقيس. . ».

١٠٠ ــ الحديث عن أنس (أن نبي الله ﷺ كان في بعض أسفاره، ورديفه معاذ بن جبل، ليس بينهما غير أخرة الرحل، إذ قال نبي الله ﷺ: يا معاذ بن جبل. . .). مسند أحمد ٣ /٢٦٠. البخاري: كتاب العلم ـ باب من خصّ بالعلم قوماً ١ /٢٢٦. مسلم بشرح النووي ١ /٢٣٠.

(١) شرح الكافية الشافية لابن مالك ٣ /١٢٩٧.

(٢) هو علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحيم الخشني الأبّذي أبو الحسن، كان نحوياً ذاكراً للخلاف في النحو، من أهل المعرفة بكتاب سيبويه، أقرأ بمالقة ثم انتقل إلى غرناطة فأقرأ بها إلى أن مات سنة ٦٨٠هـ. انظر: بغية الوعاة ٢ /١٩٩.

(٣) البخاري بشرح الكرماني ٢ /١٥٥.

هو منصوب في جواب العرض. وروي «فيستبشرون» بالرفع، أي فهم يستبشرون، كقوله تعالى: ﴿ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون﴾[1].

[مسند أنس بن مالك يتبع في العدد القادم. . .]

(١) المرسلات: آية ٣٦.

مراجـــع الحلقـــة

— الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، دار الكتاب العربي، بيروت.
— إصلاح المنطق: ابن السكيت، تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
— إعراب الحديث النبوي: العكبري، تحقيق د. حسن موسى الشاعر.
— الأعلام: الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ط ٦ عام ١٩٨٤م.
— أمالي ابن الشجري: مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية ١٣٤٩هـ.
— إملاء ما منّ به الرحمن: العكبري، تحقيق ابراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
— الإنصاف في مسائل الخلاف: الأنباري، تحقيق المرحوم الشيخ محيى الدين عبدالحميد.
— أوضح المسالك: ابن هشام الأنصارى، تحقيق المرحوم الشيخ محيى الدين عبدالحميد.
— الايضاح في شرح المفصل: ابن الحاجب، تحقيق د. موسى بناى العليلي.
— البحر المحيط: أبو حيان، مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ.
— البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: المرحوم عبدالفتاح القاضي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
— البرهان في علوم القرآن: الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.
— بغية الوعاة: السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
— التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين: العكبري، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
— تذكرة الحفاظ: الذهبي، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.
— التصريح على التوضيح: الشيخ خالد الأزهري، دار إحياء الكتب العربية.
— تهذيب اللغة: الأزهري، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.
— الجامع الكبير: السيوطي، نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
— الجنى الداني: المرادي ـ تحقيق طه محسن، بغداد ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م.
— حاشية الصبان على شرح الأشموني ـ دار إحياء الكتب العربية.

— خزانة الأدب: البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون.
— الخصائص: ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية.
— الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون: السمين الحلبي، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق.
— ديوان أبي النجم العجلي: شرح علاء الدين أغا، النادي الأدبي - الرياض ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
— ديوان أوس بن حجر: تحقيق د. محمد يوسف نجم، دار صادر - بيروت ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
— ديوان حسان بن ثابت: بيروت.
— ديوان طرفة بن العبد بشرح الأعلم الشنتمري: تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
— ديوان عمر بن أبي ربيعة: دار صادر - بيروت.
— ديوان النابغة الذبياني: طبعة صادر - بيروت.
— ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي: تأليف أبي المحاسن الحسيني.
— رصف المباني في شرح حروف المعاني: المالقي، تحقيق د. أحمد الخراط، دمشق، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
— السبعة في القراءات: ابن مجاهد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
— سنن أبي داود: تحقيق المرحوم محيي الدين عبدالحميد.
— سنن النسائي «المجتبي» ومعه زهر الرّبى للسيوطي، المكتبة التجارية.
— شرح أبيات سيبويه: ابن السيرافي، تحقيق د. محمد علي سلطاني - دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٧٩م.
— شرح أبيات مغني اللبيب: عبدالقادر البغدادي، تحقيق عبدالعزيز رباح وزميله، دار المأمون للتراث - دمشق.
— شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: تحقيق محيي الدين عبدالحميد ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م.
— شرح جمل الزجاجي: ابن عصفور، تحقيق د. صاحب أبو جناح.
— شرح القصائد السبع الطوال: ابن الأنباري، تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
— شرح الكافية الشافية: ابن مالك، تحقيق د. عبدالمنعم هريدي، منشورات جامعة أم القرى.
— شرح مكشاة المصابيح: الطيبي، مخطوط بالمكتبة المحمودية في المدينة المنورة.

— شرح المفصل: ابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية.

— شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: ابن مالك، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، القاهرة ١٣٧٦هـ ١٩٧٥م.

— شواهد العيني على شرح الأشموني.

— الصحاح: الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

— صحيح البخاري بشرح الزركشي «التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح»: الزركشي، المطبعة المصرية، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ ١٩٣٢م.

— صحيح البخاري «فتح الباري»: ابن حجر، دار المعرفة ـ بيروت.

— صحيح البخاري بشرح الكرماني: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

— صحيح مسلم بشرح النووي: دار إحياء التراث العربي.

— صحيح الجامع الصغير: السيوطي، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي، ط ٢ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

— ضعيف الجامع الصغير: السيوطي، تحقيق ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي.

— القاموس المحيط: الفيروز آبادي.

— الكتاب: سيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون.

— الكشاف: الزمخشري ـ طبعة الحلبي.

— كشف الظنون: حاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى ـ بيروت.

— مجمع الأمثال: الميداني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد.

— مسند الإمام أحمد بن حنبل ـ وبهامشه منتخب كنز العمال.

— مشارق الأنوار: القاضي عياض، طبع المكتبة العتيقة بتونس.

— مشكاة المصابيح: التبريزي، تحقيق ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق.

— معاهد التنصيص: العباسي، تحقيق محيي الدين عبدالحميد.

— مغني اللبيب: ابن هشام ـ تحقيق د. مازن المبارك وزميله، الطبعة الأولى، دمشق.

— المقتضب: المبرد، تحقيق الشيخ عبدالخالق عضيمة.

— النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، تحقيق طاهر الزاوي وزميله.



أختى العزيزة : (هـل) :

سوف أحـدثـك فى هذه الـرسـالـة السـادسة عشرة عن همزة الاستفهام الداخلة على الفعل الماضى (رأى) :

لقـد وردت فى القـرآن الكـريم على أربعـة أسـاليب : أسلوب (**أرايتَ**) وأسلوب (**أرأيتَكَ**)، وأسلوب (**أرأيتم**)، وأسلوب (**أرأيتَكم**).

وقد ذهب سيبويه[1] وجماعة من النحاة إلى أن أرأيت فى أساليبها المختلفة إذا جاءت بمعنى أخـبرنى كانت علميـة تنصب مفعولين : المفعول الأول ملتزم فيه النصب، ولا يجوز فيه الرفع على اعتبار تعليق أرأيت، لأن أرأيت بمعنى أخبرنى، وأخبرنى لا تعلّق، فكذلك ما كان بمعناها، أما المفعول الثانى فجملة استفهامية.

وتفسير (أرأيت) بمعنى أخبرنى تفسير معنى لا تفسير إعراب، لأن أخبرنى تتعدى بعن فتقول أخبرنى عن زيد، أما أرأيت فتتعدى بنفسها إلى مفعول به صريح، وإلى جملة استفهامية هى فى موضع المفعول الثانى.

وقد اعترض على سيبويه كثير من النحاة وخالفوه وقالوا كثيرا ما تعلق (أرأيت)، وفى القرآن الكريم كثير منه، كقوله تعالى : ﴿**قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين**﴾ (٤٠) الأنعام.

وذهب أبو الحسن الأخفش[2] إلى أن (أرأيت) قد تخرج عن معنى أخبرنى فى بعض أسـاليبهـا، فتكـون بمعنى أَمّـا، أوتنبّه، ولا تنصب مفعولا به ولا مفعولين، ومن ذلك قوله تعـالى : ﴿**قـال أرأيت إذا أوينـا إلى الصخـرة فإنى نسيت الحوت**﴾ (الآية ٦٣) الكهف. فأرأيت هنا (على رأى أبى الحسن) بمعنى أمّا أو تنبّه.

وسوف ألتزم فى حديثى عن (أرأيت) فى أساليبها المختلفة مذهب سيبويه، فأفسرها بمعنى أخبرنى، وأعربها على أنها علمية تنصب مفعولين : الأول منصوب، والثانى جملة استفهامية، وإذا لم يذكر أحدهما فى الكلام أو لم يذكرا معا قدّرت ما لم يذكر.

والآن أبدأ، وأنا أسأل الله تعالى العون والتوفيق ـ بالحديث عن أسلوب (أرأيتم) لأنه أكثر ورودا، فقد ورد فى إحدى وعشرين آية من آيات القرآن الكريم :

الآية الأولى : قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إلــه غير الله يأتيكم به أنظــر كيف نصــرّف الآيـات ثم هم يصـدفـون﴾** (الآية ٤٦) من سورة الأنعام.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخــبرونى أيهــا المشــركــون إن ذهب الله بسمعكم فأصمّكم، وذهب بأبصـاركم فأعماكم، وختم على قلوبكم فأماتها، فصرتم لا تفقهون حجة، ولا تفهمون حديثا، أيّ إله غير الله يستطيع أن يردّ إليكم ما أخذه الله منكم.

ما أعجب أمـرهم يا محمـد !! نتـابـع عليهم الحجـج الكثـيرة، ونضرب لهم الأمثال والعبر المختلفة، ولكنهم مع هذا كله يعرضون عن الاعتبار والادّكار والإنابة إلى الله.

هذا، و (أرأيتم) هنــا بمعنى أخــبرونى، والمستخــبر عنــه هو السمـع والأبصـار والقلوب، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : **﴿مَن إله غير الله يأتيكم به﴾**.

وتقدير الكلام : أخبرونى أيها المشركون عن سمعكم وأبصاركم وقلوبكم مَن إله غير الله يأتيكم بها إن أخذها الله منكم.

أمـا إعـراب (أرأيتم) فهي علمية تنصب مفعولين : الأول محذوف، وتقديره : أرأيتم سمعكم وأبصـاركم وقلوبكم، وقـد تنـازعـه (أرأيتم) و(أخـذ) تنـازعـا سمعكم وأبصاركم وقلوبكم، فأعملَ الثانى وحذف فى الأول. أما المفعول الثانى فالجملة الاستفهامية : **﴿مَن إلـه غير الله يأتيكم به﴾**، وأمـا جواب الشـرط (إن أخـذ) فمحـذوف لدلالـة ما قبله عليـه، والتقـديـر : إن أخـذ الله سمعكم وأبصاركم وقلوبكم فأخبرونى من يأتيكم بها. أما إعراب **﴿مَن إلــه غير الله يأتيكم به﴾** : فـ(مَن) اسم استفهـام فى محل رفـع مبتـدأ، و(إلـه) خبره، و(غـير الله) صفـة للخـبر، وجملة (يأتيكم به) فى محلٍ رفـع صفة ثانية للخبر، والضمير (به)

يعود على ما ذكر سابقا، وقد أُفرد وذُكِّر لأنه اجرى مجرى اسم الإشارة المفرد : (ذاك).

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التقريع والتوبيخ والتهديد، والتنبيه :

تقريع المشركين وتوبيخهم على عبادتهم الأصنام وعلى إعراضهم عن عبادة الله المنعم عليهم بالسمع والأبصار والأفئدة.

وتهديدهم بأن يأخذ الله منهم هذه النعم التى أنعم بها عليهم، أن يأخذها منهم جزاء كفرهم، ولن تستطيع أصنامهم أن تردّ عليهم هذه النعم، فالأخذ والعطاء بيد الله وحده.

وتنبيههم على أنه ليس هناك إله غير الله يقدر على أن ينعم عليهم بهذه النعم، وأن يأخذها منهم حين يشاء، فالتعلق بغيره لا ينفع ولا يشفع.

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون**﴾ (الآية ٥٠) من سورة يونس.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخبرونى أيها المشركون الذين تستعجلون العذاب، أخبرونى عن عذاب الله إن أتاكم ليلا وأنتم نائمون غافلون، أونهارا وأنتم فى طلب المعاش مشغولون، أي شيء تستعجلون منه أيها المجرمون وليس شيء من العذاب يستعجله عاقل ؟! فالعذاب كله مرّ المذاق مفزع تنفر منه الطباع، والمجرمون أحق بأن يخافوا التعذيب على إجرامهم، وأن يهلكوا فزعا من ذكره ومن مجيئه وإن أبطأ عليهم، فكيف يستعجلونه ؟!

و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه عذاب الله، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : ﴿**ماذا يستعجل منه المجرمون**﴾.

أما الإعراب فـ (أرأيتم) علمية تنصب مفعولين : الأول محذوف تقديره عذاب الله وقد تنازعه (أرأيتم) و(أتاكم) : أرأيتم يطلبه على أنه مفعول به، وأتاكم يطلبه على أنه فاعل، فأعمل الثانى وحذف فى الأول، والمفعول الثانى لأرأيتم هوالجملة الاستفهامية : ﴿**ماذا يستعجل منه المجرمون**﴾ والرابط الذى ربطها بالمفعول الأول هوضمير (منه)، و(بياتا) و(نهارا) منصوبان على الظرفية الزمانية متعلقان بأتاكم، وإعراب (**ماذا يستعجل منه المجرمون**) : (ما) استفهامية فى محل رفع مبتدأ، و(ذا) بمعنى الذى خبره، وجملة (يستعجل منه المجرمون) صلته، وقد حذف الضمير العائد على الموصول، والتقدير : ما الذى

يستعجله من العذاب المجرمون. ويجوز أن تكون (ماذا) كلمة واحدة وتكون فى محل نصب مفعولا مقدما، ويكون التقدير: أيّ شيء من العذاب يستعجل المجرمون. وجواب الشرط (إن أتاكم) محذوف دلّ عليه ما قبله وهو أرأيتم ومعمولها، والتقدير: إن أتاكم عذابه فأخبرونى ماذا تستعجلون منه أيها المجرمون.

هذا، وقال الزمخشري فى تفسيره الكشاف[3]: «وجواب الشرط (إن أتاكم عذابه) محذوف، وهو تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه» اهـ. وقد ردّ أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط[4] قول الزمخشري هذا وقال: «وما قدّره الزمخشري غير سائغ، لأنه لا يُقدَّر الجواب إلا مما تقدمه لفظا أو تقديرا، تقول أنت ظالم إن فعلت، فالتقدير إن فعلت فأنت ظالم وكذلك (أي مما تقدمه تقديرا) (وإنا إن شاء الله لمهتدون) التقدير: إن شاء الله نهتد»اهـ. وقال الزمخشري أيضا عند تفسيره هذه الآية: «ويجوز أن يكون (ماذا يستعجل منه المجرمون) جوابا للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمني»اهـ. وقد ردّ أبو حيان هذا الرأي أيضا بقوله: «وأما تجويزه أن يكون ماذا جوابا للشرط فلا يصحّ، لأن جواب الشرط إذا كان استفهاما فلابد فيه من الفاء، والمثال الذى ذكره وهو إن أتيتك ماذا تطعمني، هو من تمثيله لا من كلام العرب»اهـ.

وقد أفاد استفهام (أرأيتم) هنا تقريع المشركين وتوبيخهم على استعجالهم العذاب مع أنهم قوم مجرمون، فهم أحقاء أن يخشوه وأن يفزعوا من ذكره، فكيف يستعجلونه. وأفاد أيضا تهديد المشركين بأن الله تعالى قادر على أن ينزل بهم العذاب فى أي وقت يشاء.

الآية الثالثة: قوله تعالى: **﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾** (الآية **٥٩**) من سورة يونس.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن:

أخبرونى أيها المشركون عما خلق الله لكم من رزق فحرّمتم بعضه على أنفسكم وحلّلتم بعضه لها، آلله أذن لكم أن تحرّموا ما حرّمتم من هذا الرزق، وأن تحلّلوا ما حلّلتم منه، أم لم يأذن الله لكم فأنتم تكذبون على الله وتفترون.

و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية: **﴿آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾**.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تنصب مفعولين : الأول اسم الموصول (ما) والجملة بعد (ما) صلتها، والعائد محذوف، والتقدير : ما أنزله، والمفعول الثانى الجملة الاستفهامية : ﴿آلله أذن لكم﴾، والرابط الذى ربط جملة المفعول الثانى بالأول محذوف، والتقدير : آلله أذن لكم فيه.

وجوّز الزمخشري فى تفسيره الكشاف[٥]، جوّز فى (ما) الموصولة هذه وجها ثانيا وهو أن تكون استفهامية منصوبة المحل على أنها مفعول مقدم لأنزل، وهي حينئذ معلّقة لأرأيتم، والجملة فى محل نصب سدّت مسدّ مفعوليها.

وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط[٦]: «والوجه الأول وهو أن تكون (ما) موصولة أولى، لأن فيه إبقاء (أرايت) على بابها من كونها تتعدى إلى الأول فتؤثر فيه، بخلاف جعلها استفهامية، فإن أرأيت إذ ذاك تكون معلّقة، وتكون (ما) قد سدّت مسدّ المفعولين» اهـ.

و (قل) الثانية توكيد لفظي للأولى، و(أم) الظاهر فيها أنها متصلة عطفت ما بعدها على ما قبلها، والتقدير : آلله أذن لكم فيه أم لم يأذن.

وجوّز الزمخشري أن تكون منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله، أي أنتم تفترون على الله.

وجملة ﴿وجعلتم منه حراما وحلالا﴾ معطوفة على جملة ﴿أنزل الله لكم من رزق﴾ و(حراما) مفعول ثان لجعلتم، والمفعول الأول هو (منه) باعتبار معناه أي بعضه، والتقدير : فجعلتم بعضه حراما وجعلتم بعضه حلالا.

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا تقريع المشركين وتوبيخهم على تحريمهم بعض ما رزقهم الله، وتحليلهم بعضا آخر، يفعلون ذلك من عند أنفسهم، ثم ينسبونه إلى الله كذبا وافتراء.

وقد أفاد الإنكار أيضا بمعنى لا ينبغى لكم أن تحرموا ما تحرمون وأن تحلّلوا ما تحلّلون كذبا وافتراء على الله تعالى.

الآية الرابعة : فى قوله تعالى : **﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين (٢٥) أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم (٢٦) فقال الملأ الذين**

كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنُلزِمُكمُوها وأنتم لها كارهون (٢٨)﴾ الآيات (٢٥ ـ ٢٨) من سورة هود.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل نوحا إلى قومه فقال لهم إنى رسول الله إليكم أخوفكم من عذاب الله وعقابه، وأبيّن لكم أن لا تعبدوا إلا الله، وأن لا تشركوا به شيئا، وإنى لأخشى عليكم أن يعذبكم الله عذابا أليما يوم القيامة إن لم تؤمنوا به وحده وتخلصوا له العبادة.

فقال الكبراء والأشراف الذين كفروا بالله من قوم نوح وجحدوا أنه نبي مرسل : ما نراك يا نوح إلا بشرا آدميا مثلنا، فكيف أُوحي إليك من دوننا ؟! وما نراك اتبعك إلا أراذلنا، وما كان اتباعهم لك عن تروٍّ وتدبر وإنعام نظر، وإنما كان رأيا عارضا ابتدرهم أول ما دعوتهم، ثم ما نرى لكم بعد أن تركتم عبادة الأوثان وصرتم إلى عبادة الله، ما نرى لكم فضلا علينا يغرينا باتباعكم ويحبّب إلينا دينكم الجديد، وما نظنكم إلا كاذبين فيما تدّعونه لأنفسكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الآخرة التى تتحدثون عنها وتصفون.

وقد ردّ نوح على قومه ردّاً رفيقا ليّنا بعيدا عن الفظاظة والغلظة، فذلك أبعث على تخفيف ما فى قلوبهم من حقد وغلّ وعداوة، وأدعى إلى ترقيق قلوبهم وحسن إصغائهم وتخلّيهم عن التمادى فى العناد والمكابرة، قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى وآتانى النبوة من عنده رحمة منه تعالى بى وبكم، أنلزمكم قبولها وأنتم لها كارهون ؟! لا، لا نفعل ذلك، بل نكل أمركم إلى الله عزّ وجلّ يقضى فيكم بما يشاء، إنه الهادى إلى سواء السبيل.

هذا، و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى والمستخبر عنه هو البيّنة، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية، والتقدير : أخبرونى عن البينة من ربى إن كنت عليها أنلزمكم قبولها وأنتم لها كارهون.

أما إعراب أرأيتم فهي علمية تنصب مفعولين : وقد تنازع (أرأيتم) وفعل الشرط (كنت)، تنازعا (بيّنة) فأرأيتم يطلبها منصوبة على أنها مفعول به، وفعل الشرط يطلبها مجرورة بعلى، فأعمل الثانى وحذف فى الأول، والجملة الاستفهامية : ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾ هى المفعول الثانى لأرأيتم، وجواب (إنْ) الشرطية محذوف دلّ عليه وأغنى عنه

أرأيتم ومفعولاها، والتقدير : إن كنت على بيّنة من ربى وآتانى رحمة من عنده فأخبرونى عنها أنلزمكموها وأنتم لها كارهون.

وإعراب ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾ : الهمزة حرف استفهام، ونُلزم مضارع ألزم وهو متعد إلى مفعولين : الأول ضمير المخاطبين (كمو)، والثانى الضمير (ها) العائد على البيّنة، وجملة (وأنتم لها كارهون) فى محل نصب على الحال من ضمير المخاطبين (كمو)، والجملة الاستفهامية كلها سبق القول إنها المفعول الثانى لأرأيتم.

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التنبيه : تنبيه نوح قومه على أن النبوة التى آتاه الله تعالى إياها رحمة به وبهم لا يُلزمهم قبولها ولا يُكرههم على الإيمان بها، وإنما عليه أن يبلغها إليهم، والله تعالى وحده هو الذى يتولى حسابهم وهو الهادى إلى سبيل الرشاد.

الآية الخامسة : فى قوله تعالى : ﴿**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب (٦١) قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب (٦٢) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير (٦٣)**﴾ الآيات : (٦١-٦٣) من سورة هود.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أرسل النبيّ صالحا إلى قومه ثمود فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، وليس هناك من إله يستحق العبادة غيره، فهو الذى خلقكم من الأرض وجعلكم قادرين على عمارتها، فاطلبوا منه تعالى أن يغفر لكم ذنوبكم بالإيمان به وإخلاص العبادة له، واتباع ما أرسلت به إليكم، ثم اطلبوا منه أن يتوب عليكم بترك ما يكرهه من الأعمال إلى ما يرضاه ويحبه، إن الله قريب ممن أخلص له العبادة ورغب إليه فى التوبة، مجيب له إذا دعاه.

فقالت ثمود لصالح : يا صالح لقد كنا نرجو أن تكون فينا مقدّماً مسوَّداً قبل أن تقول لنا : ما لكم من إله غيره، أما بعد هذا فلا، أتنهانا أن نعبد الآلهة التى كان آباؤنا يعبدونها من قبل ؟!

ولكن صالحا ردَّ على قومه ردًّا ليّنا بعيدا عن الفظاظة والغلظة، دون أن يستفزّه ما فى جوابهم من جفوة وتكذيب :

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى وآتانى منه النبوة، فمن ذا الذى يدفع

عنى عقابه إن أنا عصيته فلم أبلغكموها واتبعتكم فيما تدعوننى إليه من الكفر، إنكم لا تزيدوننى حين اتباعكم إلا خسرانا وضياعا لما أنعم الله عليّ من رحمته.

والتعبير بحرف الشك (إنْ) فى قول صالح لقومه : ﴿إن كنت على بينة من ربى﴾ وفى قول نوح لقومه فى الآية السابقة : ﴿إن كنت على بيّنة من ربى﴾ وفى قول شعيب لقومه فى الآية التالية : ﴿إن كنت على بينة من ربى﴾، تعبير هؤلاء الأنبياء بهذا الحرف (إنْ) الذى كثيرا ما يستعمل فى شك المتكلم فى الفعل الواقع بعده، تعبير هؤلاء الأنبياء بهذا الحرف فى مخاطبتهم لأقوامهم مع أنهم كانوا على يقين من أنهم على بينة من ربهم، لأنهم كانوا يخاطبون قوما جاحدين، ففيه رعاية لحسن المحاورة، واستنزال عن العناد والمكابرة، واستدراج لطيف لهؤلاء المشركين لعلهم يذّكرون.

و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه هو البينة، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : ﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته﴾، والتقدير : أخبرونى عن البينة من ربى إن كنت عليها فمن ينصرنى من الله إن عصيته فلم أبلغكموها وكتمتها عنكم.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تنصب مفعولين : الأول هو البينة، على نحو ما مرّ فى قول نوح لقومه : ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربى﴾ فى الآية الثامنة والعشرين من سورة هود. وأما المفعول الثانى فهو الجملة الاستفهامية : ﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته﴾ والرابط الذى ربط المفعول الثانى بالأول مقدر، والتقدير : فمن ينصرنى من الله إن عصيته بكتمانها.

وكون الجملة الاستفهامية هذه هى المفعول الثاني لـ (أرأيتم) رأي نقله صاحب الفتوحات الإلهية[٧]، وعلى هذا الرأي تكون الفاء الداخلة على الجملة الاستفهامية زائدة للتوكيد، وعلى هذا الرأي أيضا يكون جواب الشرط (إن كنت) محذوفا دل عليه ما قبله، والتقدير : إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فأخبرونى عنها من ينصرنى من الله إن عصيته بكتمانها.

وقد ذهب أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط[٨] إلى أن الجملة الاستفهامية : ﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته﴾ واقعة فى جواب الشرط، وليست هى المفعول الثانى لأرأيتم، وفى رأيه أن المفعول الثانى محذوف دل عليه هذه الجملة الاستفهامية وقدّره : أأعصيه فى ترك ما أنا عليه من البينة.

أما الرأي القائل : إن الشرط والجملة الاستفهامية الواقعة فى جوابه، يسدّان مسدّ مفعولي أرأيتم.

فقد ردّه أبو حيان، وقال : إن الشرط وجوابه لا يقعان ولا يسدّان مسدّ مفعولى (أرأيتم).

وذهب أبو الحسن الأخفش إلى أن (أرأيت) إذا جاء بعدها الشرط، وجاء بعد الشرط جملة استفهامية مقترنة بالفاء كما فى هذه الآية ــ تكون حينئذ بمعنى أمّا ولا يكون لها مفعولان ولا مفعول واحد.

وقد ردّ أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط هذا الرأي بأنه إخراج لأرأيت عن مدلولها بالكلية.

الآية السادسة : فى قوله تعالى : ﴿**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط (٨٤) ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين (٨٥) بقيت الله خير لكم وما أنا عليكم بحفيظ (٨٦) قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد (٨٧) قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب(٨٨)**﴾ الآيات : (٨٤-٨٨) من سورة هود.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى قوم مدين أخاهم شعيبا فقال : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له وانبذوا عبادة الأصنام، فليس لكم من إله يستحق العبادة سوى الله. ولا تنقصوا الناس حقوقهم إذا كلتم لهم أو وزنتم، إنى أراكم فى سعة من العيش وكثرة من المال تغنيكم عن هذا التطفيف فى المكيال والميزان.

وإنى أخاف عليكم من جراء عبادتكم الأصنام وهذا التطفيف أن ينزل الله بكم عذاب يوم يحيط بكم من كل جانب فلا ينجو منه أحد.

ويا قوم أوفوا الكيل والميزان حقهما بالعدل والقسط، سواء أكان الكيل والوزن لكم أم عليكم، ولا تبخسوا الناس أشياءهم سواء أكانت هذه الأشياء مما يكال أو يوزن أو يذرع أو يعدّ أم كانت غير ذلك. ويا قوم لا تسعوا فى الأرض مفسدين مصالح الآخرين. هذه البقية

التى تبقى لكم من الكسب الحلال - وإن قلّت - خير لكم من كثير تبقونه لأنفسكم بالتطفيف، خير لكم عند الله ثوابا، وأحسن عقبى إن كنتم مؤمنين. ويا قوم ما أنا عليكم بحفيظ أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها، وإنما عليّ أن أبلغكم رسالة ربى وأن أنصح لكم بما يرضى الله، وقد فعلت وأعذرت حين أنذرت.

فقال قوم شعيب : أصلاتك يا شعيب تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤ نا من الأوثان والأصنام، وتأمرك أن لا نتصرف فى أموالنا كما نشاء ؟! إنك لأنت الحليم الذى لا يستفزه الغضب، وإنك لأنت الرشيد الذى لا يركبه الجهل والطيش !! وما كنّا لنتوقع أن تأمرنا بأن نخرج على دين آبائك وأجدادك، وتنهانا عما نهيت فلا نربح فى تجاراتنا إلا القليل !!

فقال لهم شعيب : يا قوم أرأيتم إن كنت نبيًّا مرسلا من الله تعالى إليكم لأدعوكم إلى عبادته تعالى وحده وأنهاكم عن عبادة الأصنام، وأحذركم التطفيف وكسب أموال الناس بالباطل، ورزقنى الله رزقا حلالا طيبا، أيحق لى بعد ذلك أن أكتم الرسالة وأن أترك تبليغ ما أمرنى ربى عزّ وجل أن أبلغكموه، وأن أضل ضلالكم فأعبد ما تعبدون وأكسب الحرام كما تكسبون، لا، لا يحق لى ذلك، إنى أخاف الله رب العالمين، فما كنت لأنهاكم عن أمر أركبه وآتيه، وما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه إلا إصلاحكم وإصلاح أموركم ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وما توفيقى فيما أحاول من هذا الإصلاح إلا بالله، فهو المعين على ذلك، وعلى الله أتوكل وإليه أنيب.

هذا ، وأرأيتم بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه هو البينة، ومتعلق الاستخبار ومناطه جملة استفهامية مقدرة، والتقدير : أخبرونى عن البينة الواضحة والنبوة الصادقة التى آتانيها الله أيحق لى أن لا أبلغكموها وأن لا أعمل بمقتضاها ؟!

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تنصب مفعولين : المفعول الأول محذوف وهو البيّنة (وقد سبق بيان ذلك فى الآية الثامنة والعشرين من سورة هود وهى الآية الرابعة من آيات هذه الرسالة). والمفعول الثانى محذوف أيضا وهو جملة استفهامية يدل عليها المعنى والسياق وتقديرها : أيحق لى أن أكتمها وأن لا أبلغكموها.

أما جواب الشرط (إن كنت) فمحذوف، وقد دلّ عليه وأغنى عن ذكره ما تقدم عليه وهو أرأيتم ومعمولها والتقدير : إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا فأخبرونى أيحق لى أن أكتمها وأن لا أبلغكموها.

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التنبيه : تنبيه شعيب قومه على أن النبوة التى

آتاه الله إياها وأن الرسالة التى أمره الله بتبليغها بأن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك عبـادة الأصنـام، وإلى الكف عن تطفيف الكيـل والميـزان، لا يحق له أن يكتمهـا وأن يترك تبليغها، وأن يضل ضلالهم الذى ليس وراءه ضلال.

الآيـة السـابعـة : فى قولـه تعـالى : ﴿**واتل عليهم نبأ إبراهيم (٦٩) إذ قال لأبيه وقـومـه ما تعبـدون (٧٠) قالـوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين (٧١) قال هل يسمعونكم إذ تدعـون (٧٢) أو ينفعـونكم أو يضـرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٧٤) قال أفـرأيتم ما كنتم تعبـدون (٧٥) أنتم وآبـاؤكم الأقـدمـون (٧٦) فإنهم عدوّلى إلا رب العـالمين (٧٧) الذى خلقنى فهو يهدين (٧٨) والذى يطعمنى ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهـو يشفـين (٨٠) والـذى يميتنى ثم يحيـين (٨١) والـذى أطمـع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (٨٢)**﴾ الآيات : (٦٩-٨٢) من سورة الشعراء.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيّه محمدا ﷺ أن يقص على قومه المشركين نبأ إبراهيم الذى تضمنته هذه الآيات الكريمة، وقد تضمنت :

قال إبـراهيم لأبيـه وقـومـه : أي شيء تعبدون ؟ فقالوا له : **نعبد** أصناما فنظل على عبـادتهـا عاكفـين، فقـال لهم إبـراهيم : أتسمـع هذه الأصنـام التى **تعبـدونهـا** دعاءكم إذ تدعـون ؟ وهـل تستطيـع هذه الأصنام أن تنفعكم أو تضركم إن أرادت لكم النفع أو أرادت بكم الضـر ؟ فأجـابـوا : هم لا يسمعوننا إذا دعوناهم ولا ينفعوننا شيئا ولا يضرون، ولكننا عبدناهم لأننا وجدنا آباءنا من قبلنا يعبدون هذه الأصنام فاتبعناهم واقتدينا بهم وفعلنا مثل ما كانوا يفعلون.

فقـال لهم إبـراهيم : أفـرأيتم هذه الأصنام التى تعبدونها أنتم وآباؤكم الأولون، إنها عدوّلى وأنا بريء مما تعبدون، ولا أعبد إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهديني، وهو الذى يطعمنى ويسقينى، وإذا مرضت فهـو يشفينى، وهـو الـذى يميتنى ثم يحيينى، وهـو الـذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الحساب. إن الذى يفعل هذه الأفعال هو الذى يستحق أن يكون إلها يعبد، أما أصنامكم هذه التى اتخذتموها آلهة فلا تستحق العبادة، إنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تستطيع شيئا.

هـذا، و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه هو اسم الموصول : (ما كنتم تعبـدون)، ومتعلق الاستخبـار ومنـاطـه جملة استفهـامية مقدرة يدل عليها المعنى والسياق،

والتقدير : أخبرونى عن الأصنام التى تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون أيستحقون أن تعبدوهم.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين : الأول اسم الموصول (ما كنتم تعبدون) والثانى جملة استفهامية مقدرة : (أيستحقون أن تعبدوهم).

وقد أفاد استفهام (أرأيتم) التنبيه : تنبيه إبراهيم أباه وقومه على أنهم يعبدون آلهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعقل ولا تسمع، ولذلك فهو لا يحبها وإنما يجب أن يعبد إلها قادرا على كل شيء هو رب العالمين. نبههم على ذلك لعلهم يتبيّنون أنهم على خطأ وأن آباءهم من قبلهم كانوا على خطأ.

ولا يخلو هذا الاستفهام من تودّد وملاطفة واستدراج للوصول إلى الغرض وهو الإيمان بالله والإعراض عن عبادة الأصنام. وقد كان هذا سبيل الأنبياء نوح وهود وشعيب فى الآيات المتقدمة حين خاطبوا أقوامهم بـ (أرأيتم)...

الآية الثامنة : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون**﴾ الآية (٧١) من سورة القصص.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخبرونى أيها المشركون عن الليل إن جعله الله عليكم مستمرا متواصلا لا يعقبه نهار إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء بعده تبصرون فيه معايشكم ويصلح فيه نباتكم وثماركم.

أفلا تسمعون هذا الكلام سماع فهم وتدبّر فتدركوا أن لا إله يستحق العبادة إلا الله.

و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه هو الليل، ومتعلق الاستخبار ومناطه هو الجملة الاستفهامية : ﴿**مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء**﴾. وتقدير الكلام : أخبرونى - أيها المشركون - عن الليل إن جعله الله عليكم مستمرا لا ينقطع إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء بعده تصلح به حياتكم.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين : الأول محذوف وهو الليل، وقد تنازعه (أرأيتم) و(جعل)، فكل منهما يطلبه على أنه مفعول به، فأعمل الثانى وهو (**جعل**) وحذف فى الأول، والمفعول الثانى لـ (أرأيتم) هو الجملة الاستفهامية : ﴿**مَنْ إله غير الله يأتيكم**

بضياء﴾ والرابط الذى يربط هذه الجملة الاستفهامية بالمفعول الأول ضمير محذوف، والتقدير : من إله غير الله يأتيكم بضياء بعده.

و (جعل) إذا كانت بمعنى صيّر أخذت مفعولين، فيكون الليل هو المفعول الأول، وسرمدا هو المفعول الثانى، وإذا كانت بمعنى خلق وأنشأ أخذت مفعولا به واحدا هو الليل، ويكون (سرمدا) حالا منه. وجواب الشرط (إن جعل) محذوف دلّ عليه (أرأيتم) ومعمولها، والتقدير : إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة فأخبرونى عنه مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء بعده. وإعراب (مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء) : (مَنْ) اسم استفهام فى محل رفع مبتدأ، و(إله) خبره، و(غير الله) صفة أولى لإله، وجملة (يأتيكم بضياء) فى محل رفع صفة ثانية لإله. وقد سبق أن هذه الجملة الاستفهامية كلها فى محل نصب مفعول ثان لـ (أرأيتم).

واستفهام (أرأيتم) فى هذه الآية الكريمة يفيد التوبيخ : توبيخ المشركين على عبادتهم غير الله وتركهم عبادة الله الذى يعلمون أنه هو الذى يأتيهم بالضياء بعد الليل ليبتغوا فيه من فضله.

ويفيد أيضا التنبيه : تنبيه المشركين على أن الله وحده هو الذى يقدر على أن يأتى بالنهار بعد الليل ليبتغوا فيه من فضله، وأن أصنامهم التى يعبدونها من دون الله لا تقدر على ذلك. فعليهم أن يسمعوا آية الله هذه وأن يتدبروها فينصرفوا عن عبادة الأصنام، ويجعلوا عبادتهم خالصة لله الذى أنعم عليهم بهذه النعمة العظمى.

الآية التاسعة : قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾** الآية (٧٢) سورة القصص.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخبرونى أيها المشركون عن النهار إن جعله الله عليكم مستمرًّا متواصلا لا يعقبه ليل إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه وتستريحون من عناء طلب المعاش الذى كان فى النهار، أفلا تبصرون فى اختلاف الليل والنهار عليكم رحمة من الله لكم، وحجة منه عليكم، فتعلموا أن العبادة لا تجب إلا لمن أنعم عليكم بذلكم، ولمن هو القادر عليه.

و(أرأيتم) بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه هو النهار، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية، وتقدير الكلام : أخبرونى - أيها المشركون عن النهار إن جعله الله عليكم سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل بعده تسكنون فيه.

أما إعراب (أرأيتم) وما بعدها فقد سبق مثله فى الآية التى قبل هذه.

وأما استفهام (أرأيتم) هنا فيفيد التوبيخ : توبيخ المشركين على عبادتهم غير الله وتركهم عبادة الله الذى يعلمون أنه هو الذى يأتيهم بالليل من بعد النهار ليجدوا فيه السكينة والطمأنينة، فالله وحده هو الذى يستحق العبادة.

ويفيد أيضا التنبيه : تنبيه المشركين على أن الله وحده هو الذى يقدر على أن يأتيهم بالليل من بعد النهار ليسكنوا فيه ويذوقوا طعم الراحة، فعليهم أن يبصروا آية الله هذه وأن يتدبروها، فيعرضوا عن عبادة الأصنام، ويخلصوا العبادة لله الذى أنعم عليهم بهذه المنة الكبرى.

الآية العاشرة : قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا﴾** الآية (٤٠) من سورة فاطر.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخبرونى - أيها المشركون - عن هؤلاء الذين تزعمونهم شركاء لله وتدعونهم من دونه، أخبرونى أي شيء من الأرض استبدوا بخلقه، أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات، أم أن الله تعالى آتاهم كتابا من عنده فهم على حجة وبرهان منه بأنه تعالى قد اتخذهم شركاء له.

إن رؤساء الكفر والشرك حين يقولون لأتباعهم إن هذه الأصنام التى نعبدها شفعاء لنا عند الله، حين يقولون لهم ذلك إنما يقولون أباطيل تغرّ وتخدع.

و (أرأيتم) بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه شركاؤ هم الذين يدعونهم من دون الله، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : **﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾**، وتقدير الكلام : أخبرونى عن هؤلاء الشركاء الذين تدعونهم من دون الله ماذا خلقوا من الأرض.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تتعدى إلى مفعولين : الأول شركاءكم، والثانى

الجملة الاستفهامية ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾، وعلى هذا الإعراب تكون جملة (أرونى) معترضة بين المفعولين لتأكيد الكلام وتقويته، ويحتمل أن يكون (أرأيتم) و(أرونى) قد تنازعا الجملة الاستفهامية فأعمل الثانى وحذف الأول.

وقد ذهب الزمخشرى فى تفسيره الكشاف إلى أن (أرونى) بدل من (أرأيتم). ولم يرتض أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط هذا الرأي وردّه من وجوه عدة، وقد حاول الألوسي فى تفسير روح المعانى الانتصار لرأي الزمخشري هذا، ولكن هذه الرسالة لا تتسع لذاك الردّ وهذا الانتصار.

واستفهام (أرأيتم) فى هذه الآية الكريمة يفيد التنبيه والتوبيخ: تنبيه المشركين على خطئهم فى اتخاذهم الأصنام شركاء لله، فالاستفهام يلفت أنظارهم إلى أن هذه الأصنام لم تكن شريكا لله فى خلق شيء من الأرض، ولا فى خلق شيء فى السموات، ولم ينزل كتاب من عند الله يثبت هذه الشركة، فأنَّى يكونون شركاء لله ؟!!

ويفيد أيضا توبيخ هؤلاء المشركين وتقريعهم على اتخاذهم الأصنام شركاء لله تعالى وهم لا يقدرون على شيء، مع أن الله جل جلاله على كل شيء قدير.

الآية الحادية عشرة : قوله تعالى : **﴿ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضرّ هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادنى برحمة هل هن كاشفات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون﴾** الآية (٣٨) من سورة الزمر.

تتضمن هذه الآية الكريمة : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام : مَنْ خلق السموات والأرض، ليقولن خلقهن الله.

وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن : أخبرونى - أيها المشركون - عن هذه الأصنام التى تدعونها من دون الله وتعبدونها هل هن قادرات - إن أرادنى الله بضر - أن يكشفن ذلك الضر وهل هن قادرات - إن أرادنى الله برحمة - أن يمسكن عنى تلك الرحمة.

وإذا كانت هذه الأصنام لا تملك نفعا ولا ضرا، فالله الذى خلق السموات والأرض وهو القادر على كل شيء هو وحده الذى يستحق أن يفرد بالعبادة، وهو حسبى فى إصابة الخير ودفع الضر، وعليه وحده يتوكل كل متوكل، لأن الأمر كله بيده جل وعلا.

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه (ما تدعون من دون الله) ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : (هل هنّ كاشفات ضره، هل هن ممسكات رحمته)، وتقدير الكلام : أخبرونى - أيها المشركون - عن هذه الأصنام التى تدعونها من دون الله، هل هن كاشفات الضر عنى إن أرادنى الله بضر، وهل هنّ ممسكات الرحمة عنى إن أرادنى الله برحمة.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تتعدى إلى مفعولين : المفعول الأول اسم الموصول (ما تدعون)، والمفعول الثانى الجملة الاستفهامية : هل هن كاشفات ضره، هل هن ممسكات رحمته. والرابط الذى يربط المفعول الثانى بالأول ضمير (هنّ) وقد أُنث بالنظر إلى المعنى المراد من (ما تدعون) وهو الأصنام، وكثيرا ما كانوا يسمونها بأسماء الإناث كاللات والعزى ومناة.

وجواب الشرط (إن أرادنى الله بضر، أو أرادنى الله برحمة) محذوف يدل عليه (أرأيتم) ومعمولها وتقديره : فأخبرونى هل هن كاشفات ضره أو ممسكات رحمته.

واستفهام (أفرأيتم) هنا يفيد التنبيه والتوبيخ :

تنبيه المشركين على خطئهم فى اتخاذهم الأصنام آلهة تعبد من دون الله، فالاستفهام يلفت أنظارهم إلى أن أصنامهم التى يعبدونها لا تدفع ضرا ولا تجلب نفعا، وإذن فهي لا تستحق العبادة ولا الألوهية، وأن الذى يستحق العبادة دون غيره هو الله وحده.

ويفيد تقريع المشركين وتوبيخهم على عبادتهم أصناما لا قدرة لها على الخير ولا على الشر، على حين يكفرون بوحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له وهو القادر على كل شيء القاهر فوق عباده.

الآية الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به مَنْ أضل ممن هو فى شقاق بعيد**﴾ الآية (٥٢) من سورة فصلت.

تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله ﷺ أن يقول للمشركين المكذبين بالقرآن الكريم ما يتضمن :

أرأيتم إن كان هذا القرآن الذى تكذبون به قد جئتكم به من عند الله ثم كفرتم به من غير نظر ولا اتباع دليل، أرأيتم أحدا أضل منكم، لا أحد أضل منكم أيها المكذبون الذين أبعدتم فى الشقاق وأوغلتم فى العداوة.

و (أرأيتم) بمعنى أخبرونى ، والمستخبر عنه هم المخاطبون المكذبون بالقرآن، ومتعلق الاستخبار ومناطه هو الجملة الاستفهامية : **﴿من أضل ممن هو فى شقاق بعيد﴾** . وتقدير الكلام : أخبرونى - أيها المشركون - عن حالكم إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به - من أضل منكم .

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين : المفعول الأول - في رأي أبى حيان - محذوف، وتقديره : أرأيتم أنفسكم، والمفعول الثانى الجملة الاستفهامية : **﴿من أضل ممن هو فى شقاق بعيد﴾** ، والرابط الذى ربط المفعول الثانى بالمفعول الأول هو اسم الموصول (مَنْ) الذى خلف الضمير، إذ المعنى مَنْ أضل منكم .

أما جواب الشرط (إن كان) فمحذوف يدل عليه (أرأيتم) ومعمولها، والتقدير : إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبرونى من أضل منكم .

ويفيد استفهام (أرأيتم) هنا توبيخ المشركين وتقريعهم على كفرهم بالقرآن أن يكون من عند الله دونما تبصر وتدبر، ودونما دليل عقلى أو نقلي .

ويفيد أيضا تنبيه المشركين على أن إنكارهم أن يكون القرآن من عند الله لم يكن مبنيا على دليل عقلي أو نقلي أو ناشئا عن بعد نظر وطول تدبر وإنما كان ضلالا وعنادا .

الآية الثالثة عشرة : قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾** الآية (٤) من سورة الأحقاف .

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن : .

أخبرونى - أيها المشركون - عن هذه الأوثان التى تعبدونها من دون الله ، أخبرونى أيّ شيء خلقوا من الأرض فيكون لكم بذلك حجة فى عبادتكم إياها ، أم كان لهذه الأصنام مشاركة فى خلق السموات فيكون لكم بذلك حجة فى تلك العبادة ؟!!

ائتونى أيها المشركون بكتاب من عند الله جاء قبل هذا القرآن يشهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير الله ، أو ائتونى ببقية من علم الأولين تثبت ذلك .

إن كنتم أيها المشركون صادقين فيما تدعون فهاتوا برهانكم فإن الدعوى بدون دليل لا تغنى من الحق شيئا .

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه ﴿**ما تدعون من دون الله**﴾، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : ﴿**ماذا خلقوا من الأرض**﴾. والمعنى : أخبرونى أيها المشركون عن هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله، أي شيء خلقت من الأرض فاستحقت به أن تعبد.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين : الأول اسم الموصول (ما) فى (ما تدعون من دون الله)، والثانى الجملة الاستفهامية : (ماذا خلقوا من الأرض)، و(أرونى) جملة معترضة بين المفعولين مؤكدة لأرأيتم، لأنهما على معنى واحد : فأرأيتم بمعنى أخبرونى، وأرونى بمعنى أخبرونى.

ويجوز فى (أرونى) أن لا تكون معترضة، وحينئذ تكون المسألة من باب التنازع : فأرأيتم وأرونى تنازعا الجملة الاستفهامية : (ماذا خلقوا من الأرض) فأرأيتم تطلبها على أنها مفعولها الثانى، وأرونى تطلبها كذلك على أنها المفعول الثانى لها، فأعمل الثانى، وحذف فى الأول. وأما إعراب (ماذا خلقوا من الأرض) فقد مرّ فى إعراب الآية العاشرة.

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التقريع والتوبيخ ومفيدا التنبيه :

تقريع المشركين وتوبيخهم على عبادتهم غير الله مع علمهم أن الأصنام وغير الأصنام مما يعبد من دون الله ليست على شيء تستحق به أن تعبد، فهي لم تخلق شيئا فى الأرض ولا شيئا فى السماء، ولم يُنزَّل بصحة عبادتها كتاب من عند الله، ولم يؤثر عن الأولين ما يثبت صحة تلك العبادة.

وقد نبّه هذا الاستفهام المشركين ولفت أنظارهم إلى أن هذه الأصنام التى يعبدونها لم تخلق شيئا فى الأرض ولا شيئا فى السموات، ولم تثبت صحة عبادتها فى كتاب منزل ولا فى علم أثِر عن الأولين، فكيف تصح عبادتها، وبأي شيء تستحق هذه العبادة ؟!

الذى يستحق العبادة هو الذى خلق الأرض والسموات وحده، والذى أُنزلت الكتب من لدنه تثبت وحدانيته جلّ وعلا.

الآية الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾ الآية (١٠) من سورة الأحقاف.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى نبيّه محمدا ﷺ أن يقول للمشركين

الكافرين بالقرآن ما يتضمن :

أخبرونى أيها الكافرون - إن كان هذا القرآن من عند الله وكذبتم به وشهد شاهد عظيم الشأن من بنى إسرائيل على التوراة التى هى مثل القرآن فى أنها من عند الله، فآمن هذا الشاهد بالقرآن أنه من عند الله، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به، أخبرونى من أظلم منكم ؟! إن الله لا يهدى القوم الظالمين الذين يظلمون أنفسهم فيكذبون بالقرآن وبمن أنزل عليه هذا القرآن.

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه محذوف، ومتعلق الاستخبار ومناطه جملة استفهامية محذوفة أيضا، والتقدير : أخبرونى عن حالكم - إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم - **ألستم ظالمين**.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تنصب مفعولين، وقد حذفا لدلالة المعنى عليهما، وتقديرهما : أرأيتم **حالكم** . . . **ألستم ظالمين**، فحالكم هو المفعول الأول، والجملة الاستفهامية : (ألستم ظالمين) هى المفعول الثانى. وجواب الشرط (إن كان) محذوف، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿**إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾. وقدّره أبو حيان : فقد ظلمتم.

وفى جواب الشرط هذا آراء أخرى ذكرها أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط[٩]، وذكرها صاحب الفتوحات الإلهية فى حاشيته على تفسير الجلالين[١٠]، ولكن هذه الرسالة لا تتسع لذكرها، ولا طائل تحتها.

وجيء فى الشرط (إن كان من عند الله) بحرف (إنْ) الذى من شأنه أن يكون فى الشرط غير المجزوم بوقوعه مراعاة لحال المخاطبين على نحو ما سبق بيانه (فى الآية الخامسة من آيات هذه الرسالة) فى قول الأنبياء : نوح وصالح وشعيب لأقوامهم : ﴿**إن كنت على بينة من ربى**﴾ مع أنهم كانوا على يقين من تلك البينة.

واستفهام (أرأيتم) هنا يفيد توبيخ المشركين على كفرهم بالقرآن أن يكون من عند الله مع أنه قد شهد شاهد عظيم الشأن من علماء بنى إسرائيل على كتاب آخر مماثل للقرآن وهو التوراة بأنه من عند الله.

وكانت شهادة علماء بنى إسرائيل حجة لأن هؤلاء المشركين كانوا يثقون فيهم ويصدقونهم.

ويفيد أيضا التنبيه تنبيه المشركين على أن كفرهم بالقرآن لا يقوم على حجة، وفيه مخالفة لشهادة شاهد من بنى إسرائيل الذين كانوا يظنون فيهم الصدق.

الآية الخامسة عشرة : فى قوله تعالى : **﴿أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الأخرى (٢٠) ألكم الذكر وله الأنثى (٢١) تلك إذاً قسمة ضيزى (٢٢) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٣)﴾** الآيات : **(١٩-٢٣)** من سورة النجم .

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآيات الكريمة ما ملخصه :

كان للمشركين العرب أصنام وطواغيت كثيرة يعظمونها ويتخذون لها البيوت والحجاب والسدنة ، ويطوفون بها ، ويجعلونها أندادا وشركاء لله تعالى ، ويعبدونها من دونه عزّ وجلّ ، وقد أفرد القرآن الكريم هذه الأصنام الثلاثة : اللات والعزى ومناة ، أفردها بالذكر لأنها كانت أشهر من غيرها ، وقد أنث المشركون هذه الأصنام وسموها بأسماء الإناث وجعلوها بنات الله سبحانه وتعالى ، وقد قرّع الله تعالى هؤلاء المشركين ووبّخهم بما يتضمن : أتجعلون لله أولادا وتجعلون هؤلاء الأولاد إناثا ، والإناث فى زعمكم نوع مذموم ، وتختارون لأنفسكم النوع الذى تستحسنونه وتفضلونه وهو الذكور، فلو كانت هذه القسمة بينكم وبين مخلوقين مثلكم لكانت قسمة جائرة فيها جهالة وسفاهة ، فكيف وقد جعلتموها بينكم وبين ربكم !!

ثم قال تعالى منكرا عليهم ما ابتدعوه من الكذب والافتراء والكفر فى عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ، وقد تضمن قوله تعالى : ما هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤ كم من تلقاء أنفسكم ، ما أنزل الله بها من حجة ، وإنما تعتمدون فى ذلك على حسن ظنكم بآبائكم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل من قبلكم ، وعلى حب أنفسكم للرئاسة وتعظيم آبائكم الأقدمين ، ولقد أرسل الله إليكم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة ، ولكنكم لم تتبعوها ولم تهتدوا بهديها . اهـ .

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبر ونى ، والمستخبر عنه هو اللات والعزى ومناة ، ومتعلق الاستخبار، ومناطه هو الجملة الاستفهامية : **﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾** ، والمعنى :

أخبر ونى ـ أيها المشركون ـ عن هذه الأصنام الثلاثة ، كيف جعلتموهن بنات الله ، والبنات فى زعمكم معرّة وذم ، ثم خصصتم أنفسكم بالنوع الأفضل فيما تزعمون وهم الذكور، والله سبحانه وتعالى منزّه عن الولد ذكراً كان أم أنثى ؟!!

إن هذه القسمة لو كانت بينكم وبين مخلوقين أمثالكم لكانت قسمة جائرة فيها ظلم

وسفاهة، فكيف وقد جعلتموها بينكم وبين ربكم ذى الجلال والإكرام ؟!

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين : الأول : اللات وما عطف عليها، الثانى : الجملة الاستفهامية : (ألكم الذكر وله الأنثى) - وهذا رأي أبى حيان فى تفسيره البحر المحيط، والرابط الذى يربط المفعول الثانى بالأول قوله (الأنثى) لأن المعنى : ألكم الذكر وله هنَّ أي تلك الأصنام، فأغنى هذا الاسم الظاهر عن الضمير، وإنما أوثر هذا الاسم الظاهر لوقوعه رأس فاصلة روعي فيها الفواصل الأخرى(١١).

وهناك آراء أخرى كثيرة فى تقدير المفعول الثانى المحذوف ذكرها الألوسى فى تفسير روح المعانى، ولكن هذه الرسالة لا تتسع لذكرها.

واستفهام (أرأيتم) هنا جاء مفيدا الإنكار والتوبيخ :

فالله سبحانه وتعالى ينكر على المشركين ويوبخهم أن يجعلوا اللات والعزى ومناة بنات الله، مع أن البنات فى زعمهم مذمومات يستنكفون منهن، فكيف يخصون الله خالقهم بهن، ويخصون أنفسهم بمن هم أفضل فى زعمهم وهم الذكور، مع أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الولد سواء أكان ذكرا أم أنثى.

الآية السادسة عشرة : فى قوله تعالى : ﴿**نحن خلقناكم فلو لا تصدقون(٥٧) أفرأيتم ما تمنون(٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون(٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين(٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون(٦١) ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكرون(٦٢)**﴾ الآيات : (٥٧-٦٢) من سورة الواقعة.

تتضمن هذه الآيات الكريمة الردّ على أهل الزيغ والإلحاد الذين كانوا يكذبون بالبعث، (وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو آباؤ نا الأولون).

والردّ الذى تضمنته هذه الآيات : أن الله سبحانه وتعالى قد خلقكم أيها الكافرون ابتداء بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، والذى يقدر على البدء يقدر على الإعادة، فهلا تصدقون بالإعادة وتقرون بها كما أقررتم بالنشأة الأولى.

أخبرونى عن المنيّ الذى تريقونه فى الأرحام أأنتم تخلقونه وتنشئونه أم الله ؟ ولا مفر من أن تقروا بأن الله هو خالق هذا المني، فكيف تنكرون قدرته على البعث ؟!

والله هو الذى يصرّف الموت بينكم كيف يشاء، فيجعل لموت كل إنسان موعدا لا يتقدم عليه ولا يتأخر، ولا يستطيع أحد أن يغلب الله تعالى على هذا التصريف فيطيل عمر

من يقصر الله عمره، أو يقصر عمر من يطيل الله عمره، أو يهرب من الموت فيكون من الخالدين.

والله تعالى قادر على أن يميتكم وينشىء بدلا منكم آخرين أمثالكم، وقادر على أن يغيركم خَلْقاً وخُلُقاً وينشئكم فى صفات لا تعلمونها ولا تخطر لكم على بال.

ولقد علمتم النشأة الأولى وهى خلق آدم من طين، فهلا تتذكرون وتعتبرون فتعلموا أن الذى أنشأكم النشأة الأولى قادر على أن يعيدكم أحياء من بعد الممات والفناء.

هذا، و(أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه (ما تمنون)، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية: ﴿أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾، والمعنى: أخبرونى عن المنيّ الذى تمنونه فى الأرحام، أأنتم تخلقونه أم الله.

أما إعراب (أرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون): فأرأيتم علمية تأخذ مفعولين: الأول اسم الموصول (ما) وجملة تمنون صلته، والعائد محذوف تقديره ما تمنونه، والمفعول الثانى الجملة الاستفهامية: (أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون)، و(أنتم) مبتدأ وجملة تخلقونه خبره، و(أم) عاطفة متصلة، وقد اعترض على كونها متصلة بأن المتصلة هى التى تعطف المفردات، وهنا جاء بعدها جملة من مبتدأ وخبر، وأجيب عن هذا بأن (الخالقون) جاء توكيدا للفعل السابق وهو (تخلقون)، وجاء أيضا لمراعاة الفواصل، فلو قيل أأنتم تخلقونه أم نحن لاكتفي به وتمّ المعنى المراد، وعلى هذا فالجملة بعد أم فى تأويل المفرد[١٢].

وجَوّز بعض العلماء أن تكون (أم) منقطعة بمعنى بل، والكلام معها يفيد التقرير، والمعنى: بل نحن الخالقون. وفى رأيى أن هذا لا يخلو من بعد وتكلف، وهو خلاف المعنى المتبادر.

واستفهام (أرأيتم) هنا يفيد التقرير والتوبيخ: التقرير بمعنى طلب الاعتراف بالإجابة عن السؤال الذى تضمنته (أرأيتم) مع معمولها وهو: أخبرونى مَنْ خالق المني الذي تمنونه فى الأرحام: أأنتم أم الله؟

ولما كانت إجابتهم عن هذا السؤال معلومة لا يشك فيها، وهي أن الله هو الخالق - استغنى عن ذكرها.

ويفيد توبيخ هؤلاء المشركين على إنكارهم البعث، وتكذيبهم بقدرة الله تعالى عليه، مع أنهم يعترفون بأنه تعالى هو الذى خلقهم وأنشأهم أول مرة، وكان مقتضى

اعترافهم هذا أن يؤمنوا بالبعث، لأن القادر على الخلق ابتداء قادر على الإعادة.

الآيـة السـابعة عشرة : فى قوله تعالى : **﴿أفرأيتم ما تحرثون(٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الـزارعـون(٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون(٦٥) إنا لمغرمون(٦٦) بل نحن محرومون(٦٧)﴾** الآيات : (٦٣-٦٧) من سورة الواقعة.

يردّ الله سبحانه وتعالى على المشركين الذين ينكرون البعث فيقول لهم ما يتضمن :

أخبرونى عن البذر اليابس الميت الذى تبذرونه فى الأرض التى تحرثون، أأنتم تنبتونه وتجعلونه زرعا حيًّا ناميا يزهو ويرفّ، أم نحن ؟ فإذا أقررتم بأن الله هو الذى يفعل ذلك - ولا محيص لكم عن هذا الإقـرار - فكيف تنكـرون قدرتـه على إخـراج الأمـوات من الأرض وإعادتهم أحياء ؟!!

لو يشـاء الله لجعـل هذا الـزرع الأخضـر اليانع حطاما لا خير فيه، فتصيبكم الحسرة والندم مما نزل به، وتظلون على ذلك تقولون إنّا لمهلكون، قد ذهب الذى بذرناه فى الأرض سدى من غير عوض، وحُرمنا ما كنّا نرجوه من رزق وغلال وطعام.

و(أرأيتم) هنـا بمعنى أخـبرونى والمستخـبر عنـه البذر الذى يبذرونه فى الأرض التى يحرثون، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون.

والمعنى : أخـبرونى أيهـا المشركون عن البذر الذى تبذرونه فى الأرض التى تحرثون، أأنتم تنبتونه وتجعلونه زرعا أخضر ينمو ويرفّ ويُعجب أم الله ؟

وقد جاء استفهام (أرأيتم) مفيدا التقرير والتوبيخ :

التقـريـر بمعنى طلب الاعـتراف بالإجـابـة عن السؤال الـذى تضمنتـه أرأيتم مع معمـولهـا، وهـو أخبرونى عن البذر اليابس الميت الذى تلقونه فى الأرض التى تحرثونها، من يُنبته لكم فيجعله زرعا حيًّا ناميا زاهيا ؟ أأنتم أم الله ؟

ولمـا كانت الإجـابـة عن هذا السؤال معلومـة لا يشـك فيها، وهي اعترافهم بأن الله جلّت قدرته هو الذى يفعل ذلك - استغنى عن ذكر هذه الإجابة.

ويفيـد التـوبيـخ توبيخ هؤلاء المشركين على إنكارهم البعث وتكذيبهم بقدرة الله عزّ وجـلّ على إحيـائهم بعـد المـوت، مع أنهم يشـاهـدون الـدلائـل والـبراهـين تملأ عليهم أبصـارهم، ومنهـا هذا البـذر الـذى يلقونه فى الأرض ميتا يابسا فيجعله الله تعالى زرعا حيًّا ناميا زاهيا.

وإعـراب (أرأيتم) ومعمـولهـا هنا قد مضى مثله فى قوله تعالى : ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ من سورة الواقعة.

الآيـة الثـامنـة عشرة : فى قوله تعالى : **﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون(٦٨) أأنتم أنـزلتمـوه من المـزن أم نحن المنـزلـون(٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلو لا تشكرون(٧٠)﴾** الآيات : (٦٨-٧٠) من سورة الواقعة.

يخاطب الله جلّ وعلا فى هذه الآيات الكريمة المشركين الذين كانوا ينكرون البعث، يخاطبهم بما يتضمن : أخـبرونى عن هذا المـاء الـذى تشربون، أأنتم خلقتموه عذبا صالحا للشرب وأنزلتموه من السحاب أم نحن الخالقون المنزلون ؟

إنّا نحن الخالقون المنزلون، وهذا ما لا سبيل إلى إنكاره، ولو شئنا لأمسكناه عنكم، أو جعلناه مِلْحا زُعاقا لا تنتفعون منه فى شرب ولا زرع ولا فى شيء غير ذلك.

فهـلّا تشكـرون الله الـذى أنشأ لكم هذا الماء وأنزله عليكم عذبا فُراتا سائغا تشربون منه وتحيون ويحيا به كل شيء حيّ.

فهـلّا تشكـرون الله وتنبـذون هذا الكفر الذى أنتم فيه وهذا الشرك الذى أنتم عليه، وهلا تعترفون بقدرة الله تعالى على أن يخلقكم مرة ثانية كما تعترفون بأنه الذى يخلق الماء فى السحاب وينزله عليكم فيكون سببا فى حياتكم وحياة ما حولكم من زرع وحيوان ونبات !!

و(أرأيتم) هنـا بمعنى أخـبرونى، والمستخـبر عنـه المـاء الـذى يشـربـونـه، ومتعلق الاستخبـار ومنـاطـه الجملة الاستفهـاميـة : **﴿أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾**، والمعنى : أخـبرونى أيهـا المشـركـون الـذين تنكـرون البعث وقـدرة الله على هذا البعث، أخـبرونى عن هذا المـاء الـذى تشـربـونـه عذبـا فُراتـا فيكون به حياتكم، أأنتم أنشأتموه فى السحاب وأنزلتموه منه أم نحن المنشئون المنزلون ؟!!

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التقرير والتوبيخ :

التقـريـر على معنى طلب الاعـتراف بالإجـابـة عن السؤال الذى تضمنته (أرأيتم) ومعمـولهـا وهـو : أخـبرونى عن المـاء الـذى تشـربونه، أأنتم خلقتموه عذبا صالحا للشرب وأنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون ؟

ولما كانت الإجابة عن هذا السؤال معروفة لا يشك فيها وهي اعترافهم بأن الله تعالى هو الذى يفعل ذلك - استغنى عن ذكر هذه الإجابة.

ويفيد توبيخ هؤلاء المشركين على إنكارهم قدرة الله تعالى على بعثهم بعد الممات، على حين يعترفون بقدرته تعالى على خلق الماء فى السحاب وإنزاله عليهم فيكون سببا فى حياتهم.

وقد سبق إعراب مثل هذا الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم ما تمنون**﴾.

الآية التاسعة عشرة: فى قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم النار التى تورون(٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون(٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين(٧٣) فسبح باسم ربك العظيم(٧٤)**﴾ الآيات: (٧١-٧٤) من سورة الواقعة.

فى هذه الآيات الكريمة يردّ الله سبحانه وتعالى على المشركين الذين ينكرون البعث ويكذبون بقدرة الله تعالى عليه، يردّ عليهم بما يتضمن:

أخبرونى أيها المشركون عن هذه النار التى تخرج من الشجر الأخضر بحكّ بعضه ببعض، أأنتم أنشأتم شجرتها وخلقتم النار التى فيها أم نحن المنشئون الخالقون؟

نحن جعلنا تلك النار تذكرة وتبصرة لمن يذّكّر ويعتبر ويفكر فيدرك أن القادر على أن يجعل النار تخرج من الشجر الأخضر المضادّ لها قادر على أن يجعل الأموات أحياء يوم القيامة.

ونحن جعلناها أيضا نافعة ومتاعا لأولئك الذين هم فى أشد الحاجة إليها، أولئك الذين يعيشون فى القفار بعيدين عن حياة الحضر والاستقرار.

وبعد أن ذكر الله جلّ جلاله الأمور الأربعة السابقة وهى: (أفرأيتم ما تمنون، أفرأيتم ما تحرثون، أفرأيتم الماء الذى تشربون، أفرأيتم النار التى تورون). هذه الأمور المتضمنة أمر خلقهم والنعم التى بها قوام حياتهم، هذه الأمور الدالة على قدرته تعالى على الإبداع والإنشاء والخلق، وعلى قدرته تعالى على بعث الأموات أحياء يوم القيامة، بعد ذلك أمر رسوله ﷺ (وكل من كان له أسوة حسنة برسوله مأمور كذلك) أمره بالاستمرار والمداومة على تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله، وعما يزعمه الكافرون من الأنداد والشركاء والعجز عن البعث، فقال تعالى: ﴿**فسبح باسم ربك العظيم**﴾.

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه النار التى يورونها، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية: ﴿**أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون**﴾.

وقد أفاد استفهام (أرأيتم) التقرير والتوبيخ:

التقرير بمعنى طلب الاعتراف بالإجابة عن السؤال الذى تضمنته (أرأيتم) مع معمولها وهو : أخبرونى عن النار التى تخرج من الشجر الأخضر، أأنتم أنشأتم شجرتها وخلقتم النار فيها أم نحن الخالقون المنشئون ؟

ولما كانت إجابتهم عن هذا السؤال معلومة لا يشك فيها، وهي الاعتراف بأن الخالق المنشىء هو الله - استغنى عن ذكرها.

ويفيد التوبيخ أيضا : توبيخ المشركين على إنكارهم البعث وتكذيبهم بقدرة الله تعالى على إحيائهم بعد مماتهم مع اعترافهم بقدرة الله تعالى على إخراج النار من الشجر الأخضر الرطب المضادّ لها، وهو من الدلائل العظيمة على انفراده تعالى بالخلق والإنشاء.

أما إعراب (أرأيتم) هنا فقد مضى إعراب مثله فى قوله تعالى المتقدم : ﴿**أفرأيتم ما تمنون**﴾.

الآية العشرون : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم**﴾ الآية: (٢٨) من سورة الملك.

يُروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى من آمن به، يدعون عليهم بالهلاك، فأمر الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا ﷺ أن يقول لهم ما يتضمن :

أخبرونى - أيها الكافرون - إن أهلكنى الله تعالى ومن آمن بى فأماتنا أو رحمنا فأخّر آجالنا فمن ذا الذى يستطيع أن يجيركم من عذاب الله الأليم، ومن ذا الذى يستطيع أن يمنعكم من عقابه جزاء كفركم.

و (أرأيتم) هنا بمعنى أخبرونى، والمستخبر عنه محذوف، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهامية : ﴿**فمن يجير الكافرين من عذاب أليم**﴾، والتقدير : أخبرونى أيها الكافرون عن أنفسكم من يحميكم من عذاب الله الأليم إن أماتني الله ومن معي أو رحمنا فأخّر آجالنا.

أما إعراب (أرأيتم) فهي علمية تأخذ مفعولين، وهما هنا محذوفان دلّ عليهما الشرط وجوابه، وتقديرها : أرأيتم **أنفسكم أينجيكم أحد من العذاب** إن أهلكنا الله أو أبقانا. أما الجملة الاستفهامية : ﴿**فمن يجير الكافرين من عذاب أليم**﴾ فقد أعربها أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط واقعة فى جواب الشرط : (إن أهلكنى الله)، وقد اعترض فى حاشية الفتوحات - على هذا الرأي بأن تسبب الجواب على الشرط فيه بُعد.

والـذى يبـدولى - والله أعلم - أن جملة (فمن يجير الكـافـرين من عذاب أليم) هي المفعـول الثـانى لأرأيتم، وأن الـرابـط الـذى يربطهـا بالمفعول الأول هو الضمير الذى أقيم الاسم الظاهر وهو (الكافرين) مقامه، والتقدير : أرأيتم أنفسكم من يجيركم من عذاب الله الأليم، وتكون الفاء على هذا زائدة للتوكيد، ويكون جواب الشرط محذوفا، دلّ عليه وأغنى عن ذكره أرأيتم ومعمولها، والتقدير : إن أهلكنى الله ومن معي أو رحمنا فأخبرونى أي فائدة لكم فى ذلك وهل ينجيكم هذا من العذاب.

وقد أفاد استفهام (أرأيتم) هنا التنبيه، والإنكار والتوبيخ :

تنبيه المشركين على أن إماتة الرسول ﷺ ومن آمن به لا تفيدهم شيئا ولا تحميهم من عذاب كفرهم، وأن عليهم بدل هذا الدعاء أن يوحدوا الله وأن يؤمنوا برسوله.

ويفيـد الإنكـار على المشـركـين وتـوبيخهم أن يدعوا على رسول الله ﷺ ومن آمن به - بالهلاك، وأن يتربصوا به ريب المنون، مع أن هذا الهلاك لا ينفعهم شيئا، ولا يحميهم من عذاب الله تعالى جزاء كفرهم، ولا يضرّ برسول الله ﷺ.

الآية الحادية والعشرون : قوله تعالى : ﴿**قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين**﴾ الآية : (٣٠) من سورة الملك.

فى هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ أن يقول للمشركين ما يتضمن :

أخبرونى أيها المشركون عن مائكم إن أصبح متواريا فى جوف الأرض، لا تستطيعون أن تنالوا منه شيئا، أخبرونى من يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون، تشربون منه وتحيون.

و(أرأيتم) هنـا بمعنى أخبـرونى، والمستخبر عنه محذوف، ومتعلق الاستخبار ومناطه الجملة الاستفهـاميـة : ﴿**فمن يأتيكم بماء معـين**﴾. والتقـديـر : أخبرونى عن مائكم - إن أصبح غائرا فى جوف الأرض - من غير الله يستطيع أن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ومنه تشربون.

أمـا إعـراب (أرأيتم) فهي علميـة تنصب مفعولين : الأول ضمير محذوف يعود على (مـاؤكم) وتكـون المسألـة من باب التنـازع : تنازع (أرأيتم) و(أصبح) فى (ماؤكم) فأرأيتم تطلبه على أنه مفعول به، وأصبح تطلبه على أنه اسم لها، فأعمل الثانى وأضمر فى الأول وحـذف. وأمـا المفعـول الثـانى لـ (أرأيتم) فجملة استفهـامية محذوفة دلّ عليها جملة جواب

الشـرط : (فمن يأتيكم بماء معـين). وتقـديـر المفعـولـين : أرأيتم **ماءكم** (إن أصبح غائرا) **أيستطيع أحد غير الله أن يأتيكم ببدل منه.**

وقد جاء استفهام (أرأيتم) هنا مفيدا التنبيه والتوبيخ :

تنبيـه المشـركـين على أن الله تعـالى هو وحـده الـذى يأتيهم بالمـاء الذى منه يشربون ويحيون، وأن الأصنام لا تستطيع ذلك، فكان عليهم أن يؤمنوا بالله تعالى وأن يفردوه بالعبادة.

وتـوبيـخ هؤلاء المشـركين على تركهم عبادة الله الذى يأتيهم بالماء الذى منه يشربون ويحيون، وتوبيخهم على عبادتهم أصناما لا تستطيع أن تأتيهم بالماء إن أصبح ماؤهم غورا.

أختى العزيزة :

أرى رسـالتى إليـك قد طالت، ومـا كان لى يد فى أن تطـول، لقد آن لها أن تنتهى، وسـوف أحـدثـك - إن شاء الله تعـالى - عن بقيـة أساليب (أرأيت) فى الرسالة التالية، وعن خصائص ومزايا جاءت فى هذه الأساليب.

اللهم سدّد خطاي، ووفقني إلى الصواب، فعليك أتوكل، وبك أستعين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أختك

همزة الاستفهام

مراجع هذه الرسالة

أ — المراجع على وجه الإجمال :

١ ـ تفسير الطبرى، الطبعة الثالثة، الناشر: شركة الحلبى بمصر.
٢ ـ البحر المحيط لأبى حيان، الناشر: مكتبة ومطابع النصر الحديثة بالرياض.
٣ ـ تفسير أبى السعود، الناشر: مكتبة ومطبعة عبدالرحمن محمد بالقاهرة.
٤ ـ الفتوحات الإلهية المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين، الناشر: الحلبى بمصر.
٥ ـ تفسير الجلالين المطبوع على هامش الفتوحات الإلهية.
٦ ـ تفسير الفخر الرازى، الناشر: دار الكتب العلمية بطهران، الطبعة الثانية.
٧ ـ تفسير القرطبى، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة.
٨ ـ تفسير ابن كثير، الناشر: الحلبى بمصر.
٩ ـ تفسير الكشاف للزمخشرى، الناشر: الحلبى بمصر.
١٠ ـ تفسير البيضاوى، الناشر: الحلبى بمصر.
١١ ـ تفسير روح المعانى للألوسى، الناشر: المطبعة المنيرية بالقاهرة.
١٢ ـ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر.
١٣ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم، الطبعة الثانية، الناشر: الحلبى بمصر.
١٤ ـ حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية بن مالك، الناشر: الحلبى بمصر.

ب — المراجع التى أشير إليها بالأرقام المسلسلة :

١ ـ البحر المحيط: جـ ٤ ص ١٢٦، ١٢٧.
٢ ـ البحر المحيط: جـ ٦ ص ١٤٦.
٣ ، ٥ ـ الكشاف للزمخشري: جـ ٢ ص ٢٤٠.
٤ ، ٦ ـ البحر المحيط: جـ ٥ ص ١٦٦.
٧ ـ الفتوحات الإلهية: جـ ٢ ص ٤٠٧.
٨ ـ البحر المحيط: جـ ٥ ص ٢٣٩.
٩ ـ البحر المحيط: جـ ٨ ص ٥٧.

١٠ ـ الفتوحات الإلهية: جـ ٤ ص ٥٧.
١١ـ البحر المحيط: جـ ٨ ص ١٦١.
١٢ ـ البحر المحيط: جـ ٨ ص ٢١١.

الـزَّلَّاقَـة

مَعركة من معارك الإسلام الحاسمة في الأندلس

للدكتور جميل عبدالله محمد المصري
أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية

الحمد لله الذي جعل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، أمة جهاد في سبيله، وأمة رحمة وهداية للعالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، النموذج العملي لرسالة الإسلام وعقيدته، جعله الله سبحانه وتعالى شهيداً على أمته، وجعل أمته شهداء على الناس، ورضي الله عن صحابته الطاهرين، ومن قام بهديه إلى يوم الدين وبعد:

فإن المعارك العالمية التي سجلها التاريخ كثيرة، تلك التي تمخضت عنها تغييرات شاملة، ذات نتائج خطيرة، وتبقى معارك الإسلام من أشهرها وأهمها، ذلك لأن المعركة في الإسلام ليست غاية في ذاتها، فهي محصلة لأمور كثيرة، إذا وصلت إلى حدّ معينّ لابد من معركة حربية، ومفهوم الجهاد واضح المعنى وواضح الهدف، هو قتال في سبيل الله، يهدف إلى تبليغ الدعوة، ومدّها، أو تثبيتها والدفاع عنها، فإذا وصلت الأمور حاجزاً لا مجال لاختراقه بوسيلة أخرى كانت المعركة، ولابد من الصبر عليها، ومن هنا فإن معارك الإسلام تخدم الدعوة في الدرجة الأولى إمتداداً أو دفاعاً أو تثبيتاً.

ومنذ معركة بدر الفاصلة ـ الفرقان ـ التي قادها سيد الخلق محمد ﷺ، والمسلمون يحاولون الوصول في معاركهم إلى مستواها في أهدافها ومعانيها، وتنظيمها، ونتائجها. فكانت معركة خيبر في عهده ﷺ، التي وضعت حداً نهائياً لتسلط اليهود في بلاد العرب، ثم كانت اليرموك التي قررت مصير بلاد الشام ومصير الأمبراطورية الرومانية كله، والقادسية التي قررت مصير العراق وبلاد فارس وامبراطورية الفرس.

وهكذا تتابعت معارك الإسلام وتتالت، إلى أن كانت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري معركتان: ملاذكرد (منزكرت) في آسيا الصغرى التى قررت مصير آسيا

الصغرى عام ٤٦٣هـ، والزلاقة على أرض الأندلس الشهيدة التى أوقفت الزحف الصليبي النامي إلى حين، عام ٤٧٩هـ.

فقد ساءت حالة العالم الإسلامي في بداية القرن الخامس الهجري شرقاً وغرْباً، فعم الرفض، وفشا التفرق في المغرب بسقوط الخلافة الأموية وتمزق الدولة العامرية، ولكن الله سبحانه وتعالى هيأ للمسلمين : السلاجقة في المشرق، حيث بلغت دولتهم ذروة القوة في منتصف القرن الخامس الهجري. والمرابطين في المغرب، وبلغت ذروتها في الوقت ذاته. وكلتا القوتين اتخذ الجهاد سبيلاً لإعزاز الإسلام والمسلمين ونصرة الدين. وكلتاهما مدّ الإسلام إلى آفاق واسعة. فقد مدّ السلاجقة الإسلام في آسيا الصغرى وأصبحت من ديار الإسلام، ومدّ المرابطون الإسلام إلى أفريقية الغربية وعبر الصحراء إلى السودان، وقاموا بواجبهم في نصرة إخوانهم في الأندلس، وحماية الإسلام.

حالة المغرب والأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري التي هيأت لمعركة الزلاقة :

أولاً : شمال أفريقيا ودولة المرابطين في المغرب :

انتثر ملك الخلافة بالمغرب[١]، وانقسم إلى إمارات صغيرة متفرقة، فقد أقام المعزّ بن باديس سنة ٤٤٠هـ الدعوة للقائم بالله الخليفة العباسي وخلع طاعة المستنصر العبيدي، (وكان قبل ذلك يسب بنى عبيد سرّاً)، فبعث المستنصر القبائل العربية من بنى هلال ورياح وزغبة لمحاربته، فكانت الحروب الهائلة بين ابن باديس والعرب الذين دخلوا القيروان[٢]. وكثر المتغلّبون على الشمال الأفريقي بأجمعه، فاستولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى المغرب، وظل بنوزيري يحتفظون بالمهدية وما يليها، واستقر أمر بني حماد في بجاية، واستقل حموبن ومليل البرغواطي في صفاقس بعد أن حالف العرب، واستقل ابن خراسان بتونس سنة ٤٥٨هـ، واستقل موسى بن يحيى بفاس، وحاكم قفصة الزيري بعد أن استعان بالعرب مقابل جزية سنوية[٣].

كما تعرض الشمال الأفريقي لغارات النورمان يدفعهم الحقد الصليبي، فقد تملكوا

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٤١٣.
(٢) المؤنس في أخبار افريقية وتونس ص ٨٤ ـ ٨٥/ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٨٨.
(٣) المغرب الكبير ـ السيد عبد العزيز ـ ص ٦٧٣.

صقلية من المسلمين بقيادة رجار سنة ٤٦٤هـ[١]، ماعدا مدينتي قصريانه وجرجنت، اللتين حاصروها حصاراً شديداً، واستسلمت جرجنت سنة ٤٨١هـ، وتبعتها قصريانه سنة ٤٨٤هـ[٢]. وشجع البابا فكتور الثالث على تكوين طائفة من رجال البحر من بيزة وجنوة للإغارة على السواحل الإسلامية الأفريقية، فهاجموا مدينة المهدية وزويلة، وعادوا بعدد عظيم من أسارى المسلمين رجالاً ونساء[٣] وبمبلغ عظيم من الذهب والفضة مقابل رحيلهم وذلك سنة ٤٨٠هـ.

وفي هذه الظروف الحالكة انبعثت من قلب الصحراء الكبرى الافريقية، قوة إسلامية، تدعو إلى التمسك بالإسلام، مصدر قوة المسلمين، وتجدد جريان الحياة في تياره، باتخاذه دستوراً يحكم حياة الإنسان في جميع نواحي الحياة.

فقد توجه يحيى بن ابراهيم الجدالي - أمير جدالة - في جماعة إلى الحج[٤]. عام ٤٤٠هـ، وعرجوا في عودتهم على القيروان، واستمعوا إلى علمائها، وكانت في هذه الفترة قد نبذت المذهب الشيعي، وعادت إلى أهل السنة والجماعة، فاسترجعت مكانتها كقاعدة للمذهب المالكي في المغرب، فاتصلوا بأبي عمران موسى الفاسي شيخ المذهب المالكي[٥]، وطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يعلمهم الدين، فأرسل معهم الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي[٦] وكان من حذاق الطلبة ومن أهل العلم والصلاح، واعتبر عمل هذا جهاداً لنشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين الذين حرموا من نعمة المعرفة والعلم. فقام بدوره، فأخذ يفقه الناس ويعلمهم الشريعة، وأقام رباطاً يرجح ان مكانه فى السنغال[٧] أو النيجر، والتف حوله جماعة من لمتونة إحدى بطون صنهاجه كجدالة من البرانس البربر؛ بلغ عددهم حوالي الألف رجل، أطلق عليهم اسم «المرابطون» نسبة إلى رباط عبدالله بن ياسين، حيث تلقوا فيه تكوينهم الديني والجهادي، وحوّلهم من رعاة إبل إلى جماعة من المجاهدين، يحملون

---

(١) ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٥٠/ المؤنس ص ٨٩.
(٢) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٥٧.
(٣) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٨.
(٤) المؤنس جـ ١٠٤، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٦.
(٥) ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٧٣/ البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٤٢ وأبوعمران أصله فاسي استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم، أخذ عن كثير من علماء المشرق والمغرب، رحل إلى قرطبة والمشرق وحج ودخل العراق، أخذ عنه الكثير من أهل العلم. وتوفي عام ٤٣٠هـ (المؤنس - حاشية ص ١٠٤).
(٦) المؤنس ص ١٠٤ - ١٠٥.
(٧) د. عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ص ٦٩٣.

عبء تبليغ الدعوة الإسلامية، وتصحيح مفاهيم العقيدة. وسمّوا بالملثمين أو الملثمة لاتخاذهم لثاماً داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجّهوهم[١]. وكان على رأسهم المجاهد يحيى بن عمر بن ابراهيم اللمتونى الذي توفي سنة ٤٤٦هـ أو٤٤٧هـ[٢]، فخلفه أخوه: أبو بكر بن عمر اللمتوني، وكان كأخيه مثال الإخلاص والتضحية والقيادة الناجحة، فمدّ الإسلام في إفريقية وبلاد السودان، وأمضى حياته في الجهاد، وتنازل لابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أثبت مقدرة ومهارة أكسبته مكانة عالية بجانب شهرته العسكرية[٣]، واستمر أبو بكر في جهاده إلى أن استشهد في الصحراء عام ٤٨٠هـ[٤].

اتخذت الدولة المرابطية أغمات عاصمة وهي على بعد ٣٥ كم جنوب شرقي مدينة مراكش، ثم اختط يوسف مدينة مراكش عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م أو بعدها بقليل، وأسس قصبة ومسجداً، وكان يشارك العمال بنفسه في بناء المسجد تواضعاً لله وتورعاً[٥].

تمكن المرابطون بقيادة يوسف من توحيد المغرب وانقاذه من الفرقة وأزالوا المنكرات، ورفعوا المكوس الجائرة، وفرقوا الأخماس على المرابطين والفقهاء، وطبقوا أحكام الدين، وقضوا على الروافض، ورجع من بقي منهم إلى أهل السنة والجماعة، كما قضوا على مذهب صالح بن طريف الإباحي، وكان يهودي الأصل نشر مذهبه بين قبيلة برغواطه[٦]. وأصبحت دولتهم تستعد للامتداد إلى الأندلس، وهمّ يوسف بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها[٧].

ثانياً: الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية:

نعمت الأندلس الإسلامية بالأمن والرفاهية في ظلّ الدولة الأموية وفي عهد الدولة العامرية، ومدّت نفوذها على جميع شبه الجزيرة الأندلسية والمغرب، وركدت حركات

---

(١) وقيل إن سبب اتخاذ لمتونة للثام: اتخاذهم في اعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم إن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن بذلك في عداد الرجال (انظر السلاوي ـ الاستقصا جـ ١ ص ٩٨و٩٩، عنان ـ دول الطوائف ص ٢٩٩).

(٢) الاستقصا جـ ٢ ص ١٣.

(٣) انظر البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٤.

(٤) المؤنس ص ١٠٧.

(٥) البيان المغرب جـ ٤ ص ١٢٣ / الاستقصا جـ ٢ ص ٢٤.

(٦) ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٣، ٢٠٩ / انظر: عنان ـ دول الطوائف ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٧) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤.

النصارى، وامتلأت قلوبهم رعباً، فقلّ عبثهم، وخطب ملوكهم ودّ الدولة الإسلامية في أكثر عهودها.

ولما انقطعت تلك الدولة قام الطوائف بعد الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خططها، وتغلّب بعض على بعض[1]، وكثرت الفتن وانبسط عدو الدين في الجزيرة وبلغ منهم كلّ مبلغ ما بين قتل وأسر، وهم (أي ملوك الطوائف) فى تحاسد واختلاف الكلمة وانتحال الأوصاف، واقتسام ألقاب الخلافة، فتلقّبوا بالناصر، والمنصور، والمعتمد، والمظفر، والمتوكل، والقادر، والمؤتمن، وغير ذلك، فقال شاعر الأندلس أبو بكر محمد بن عمار أو غيره[2]:

مما يزهدني في أرض أندلس	أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها	كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

واستعان بعضهم على بعض بأعدائهم من نصارى الشمال، فوجد النصارى الفرصة للقضاء على المسلمين جميعاً في شبه الجزيرة، فأخذوا يضربونهم، بعضهم ببعض، ويدفعون كلاً منهم للصراع، ويغرونهم بشتّى الإعانات، والخداع، والمكر، والكيد، حتى يتمكّنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطّارف والتّلاد[3]. كما نشروا الجواسيس لايجاد الصدع في صفوف المسلمين[4]، وتنازع الإخوة من ملوك الطوائف على الملك[5]، واستعان كلّ منهم بالعدوّ الصّليبي على أخيه، ولبّى النّصارى الاستغاثات لأنهم وجدوها فرصة لتصفية الحساب مع المسلمين، فكانوا يقدمون الضّمانات الزّائفة، والوعود الكاذبة للجانب الذي ظهر رجحان كفته، حتى إذا أوشك على النّصر قلبوا له ظهر المجنّ وعملوا على ترجيح كفّة منافسه[6]. كما أخذت الكنيسة في روما تتحرّك بقوّة بما لاحظته من ضعف المسلمين، فعملت على تكتّل نصارى أسبانيا، وعلى تكتّل النّصارى في أوربا لتوحيد العمل ضد الإسلام والمسلمين. والحقّ ان الأفرنج ما طمعت في الأندلس إلّا عندما تفرقت

---

(١) نفسه جـ ١ ص ٤١٣.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣ / نفح الطيب جـ ١ ص ٢١٤، جـ ٤ ص ٢٥٥ / ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٤٢٨ / المؤنس ص ١٠١.

(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٠٧ عن جنة الرضى لابن عاصم.

(٤) وقصة المنصور مع الشيخ الهرم، واكتشاف جاسوسيته مثال على هؤلاء الجواسيس / نفح الطيب جـ ١ ص ٣٧٨.

(٥) كما حصل فى أمراء بنى هود بين الاخوين المقتدر بن هود والمظفر بن هود. وكما حصل لأبناء المقتدر: المؤتمن، والمنذر (الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٣٥٦).

(٦) كما حدث مع أبي بكر بن عبد العزيز الذي ثار على القادر واحتمى بالفونسو السادس.

البلاد، وصار كلّ بلد بيد ملك، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم[1]، وأنهكوا قوى المسلمين واستنزفوها. فاتخذت الحرب في الأندلس وجهة الحرب الصليبية قبل أن تعلن بصفة رسمية في الشرق. إذ قرّر البابا الأسكندر الثاني عام ٤٥٦هـ/١٠٦٣م منح مغفرة خاصة لكل من يشدّ الرّحال لقتال المسلمين في أسبانيا، فهب عدد كبير من فرسان فرنسا وأوربا لمساعدة إخوانهم في ما وراء الجبال[2]. فقويت الممالك النصرانية في شمال الأندلس، وتوالت غاراتها على المسلمين، وطمع فردلند (فرناندو الأول) ملك قشتالة وليون فاستولى على بعض المناطق القاصية من الشمال الغربي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وحاصر مدينة بازو جنوب دويرة، واقتحمها بعد دفاع مجيد من المسلمين وعاث فيها قتلاً وأسراً، كما هاجم واحتل مناطق من مملكة بطليوس الخاضعة لبني الأفطس، وعاث عام ٤٥٤هـ في الانحاء الشمالية لمنطقة طليطلة وحكامها بنو ذي النّون، وفي بعض مناطق اشبيلية حيث بنو عباد، وسقطت بيده مدينة قلمرية (قلنبيره) عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م[3]. وهاجم النورمان مدينة بربشتر وتقع على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة وإحدى القواعد الأندلسية المنيعة، وتغلّبوا عليها بعد حصار أربعين يوماً سنة ٤٥٦هـ وارتكب النصارى فيها جرائم مذهلة مثيرة بقيادة جيوم دى مونري من أكابر فرسان عصره. وكان في خدمة الجيوش الرومانية والبابوية[4]، فقد استباحوا المدينة بعد أن أمّنوا سكانها بكلّ ما فيها ومن فيها، وقدّر عدد القتلى والأسرى بين أربعين ألف ومائة ألف، ثم أعطى قائد الحملة الأمان لكنه ـ حين رأى كثرة أهل المدينة ـ أمر جنده أن تقلّل أعدادهم حصاداً بالسّيف، فأطيح أرضاً بستّة آلاف من الرؤوس، ثم انتهبوا المدينة، واحتلّوا دورها لأنفسهم وارتكبوا أبشع الجرائم قتلاً وهتكاً للأعراض. وكان «الخطب أعظم من أن يوصف أويُستقصى» كما يقول ابن حيّان[5]. فأثر الخطب في المسلمين وتداعوا إلى الجهاد، فتمكّنوا من استرجاعها عام ٤٥٧هـ ومُزّق المعتدون بعد أن دام احتلالها تسعة شهور[6].

وتوفي فردلند (فرناندو الأول) ملك قشتالة وليون عام ٤٥٨هـ/١٠٦٥م بعد أن قسّم دولته بين أولاده الثلاثة، حيث تحارب الأخوة حرباً لم يستغلها المسلمون لتفرقهم ولتمكّن

---

(١) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٣٨.

(٢) اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ـ تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة جـ ٢ ص ١١١.

(٣) الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٣٢٨.

(٤) عنان ـ دول الطوائف ص ٢٧٤.

(٥) الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٣٦١.

(٦) الروض المعطار ص ٤١.

الـروح الانهـزاميـة في نفـوسهم ، وانتصـر في هذه الحـروب شانجـه وهـرب أخـوه الفـونسـو (الاذفـونش) ولجأ إلى طليطلة عنـد ملكها يحيى بن اسماعيل بن ذي النون الملقب بالمأمون ، فقـابله بالـترّحـاب وبـالغ في إكرامه ، وأنزله داراً مجاورة لقصره ، وجعل له داراً أخرى خارج المـدينـة ذات حدائق تكـون متنـزّهـاً له ولمرافقيه ، حيث قضى تسعة شهور درس فيها أحوال المدينة تمهيداً للاستيلاء عليها . وكان الأخ الثالث غرسيه قد لجأ إلى اشبيلية عند بني عباد .

واغتيل شانجه عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م فاستدعي الفونسو لتولّي الحكم ، بعد أن قطع الـوعـود للمأمـون ، وأصبح ملكاً لقشتالة وليون وجيليقية باسم الفونسو السادس (الاذفونش عنـد المسلمـين) فتـوحـدّت اسبـانيا النصرانية حيث قضى غرسيه الأخ الثالث بقيّة عمره في السجن لمدة سبعة عشر عاماً[١] .

من هذا العـرض لأوضـاع المغـرب والأندلس نرى أن المغرب الإسلامي كان يمر في حركة تغيير شاملة على أسس إسلامية ، وعلى يد المرابطين ، وتنبعث فيه حياة جديدة ، وقوة وثّابة ، كالحركة التي شهدها المشرق الإسلامي على يد السلاجقة . في حين كانت الأندلس الإسـلاميـة تشهد حركة عكسية ، حركة يتوالى فيها تمزّق المسلمين ، وتتوالى الانتكاسات ، وتسـرّبت إلى زعـمائهم الـروح الانهـزاميـة أمـام القـوى النّصـرانية الصّاعدة الحاقدة على الإسلام وأهله ، والتي تجنّدها البابويّة من نصارى اسبانيا وأوربا .

وأمـام فقـدان المسلمـين في الأنـدلس قوتهم الـذاتيـة تلمّسوا حولهم ، فوجدوا القوى الإسلامية في العدوة الأخرى ، فاندفعوا للعمل للاتّصال بالأخوة ، وخاصة بعد قمة الفاجعة الأندلسية ـ سقوط طليطلة بيد النصارى .

ثالثاً : سقوط طليطلة ـ زلزلة الأندلس الإسلامية ـ :

كانت طليطلة من أجلّ المدن الإسلامية وأعظمها خطراً[٢] ، ومن أكبر بلاد الأندلس وأحصنها[٣] ، حكمها من الطوائف بنو ذي النون الهواري ، وأوّلهم الأمير اسماعيل عام ٤٢٠هـ ، ثم تملّك المأمون بعد أبيه عام ٤٣٥هـ[٤] ، فعكف على اللذات والخلاعة ، وصادر

---

(١) الحجى ـ التاريخ الأندلسي ص ٣٣٠ .
(٢) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٠ .
(٣) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٣٨ .
(٤) سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ٢٢١ / الكامل في التاريخ جـ ٩ ص ٢٨٨ .

الرعيّة، وهادن العدوّ، فطمعت فيه الفرنجة بل في الأندلس، وأخذت عدّة حصون، وكان قد استعـان بهم على تملّك مدائن الأنـدلس، وغدر به ملكهم، وأخذه رهينة حتّى أعطاه ما طلب من الحصون، وقرّر عليه مالاً كلّ سنة، وعاد ذليلاً مخذولاً وذلك بما قدّمت يداه، إلى أن توفي عام ٤٦٠ هـ[١] مقتولاً بيد القاضي ابن جحّاف، فخلفه القادر بن يحيى في الحكم[٢] الـذي لجأ إلى بلاطـه الفـونسـو السـادس، وأقـام فيـه تسعة شهور، ولاقى الإكرام الزائد، والمجـامـلات الكثـيرة إلى أن غادرها حاكماً للنّصارى، بعد أن ارتبط ببني ذي النون بروابط الصداقة وأعطى العهود والمواثيق.

أصبـح شغـل الفونسو الشاّغل الاستيلاء على هذا البلد الذي آواه وأكرمه، وكان قد درس وسائل احتلالها أثناء لجوئه، بل وتذكر بعض الروايات أنه استمع ذات يوم وهو متظاهر بالنوم إلى حديث المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة إذا هاجمها النصارى، وقد أجـاب بعضهم : أن النّصـارى لا يستطيعـون الاستيلاء عليها وهي المدينة الحصينة إلاّ إذا أنفقـوا سبعـة أعـوام على الأقـلّ في تخريب أحـوازهـا وانتساف قوتها[٣]، وتمكن الفونسو من الاطلاع على عوراتها[٤]. فأخذ بالإغارة على أراضيها وعاث فيها سفكاً وتخريباً، وانتسف مزارعهـا، بالاتفـاق (يـاللأسف) مع ابن عباد أمير اشبيلية، وأعظم ملوك الطوائف، الذي تحالف معه وتعهّد بمعاونته بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين مقابل ألاّ يتعرض لمشروعه في مهـاجمـة طليطلة، فضحّى المعتمـد بمعقـل الأنـدلس المسلمـة مقـابل وعود خدّاعة، ودفع للادفونش الجزية[٥].

استمـرّ الفـونسـو في غاراتـه على أراضي طليطلة دون أن يجد من يردعـه، وبعـد أن أنهكها تقدّم لحصارها، واستمرّ في حصارها سبع سنوات[٦]. وارتكب بها وبأهلها الأفاعيل وأنـزلت الآثـام، وتمثّلت النـزّعـة الصّليبيّـة واضحـة في هذا الحصـار، فقـد ضمّت القوات النّصرانيّة جنوداً من جميع أسبانيا النّصرانية من قشتاله وليون وارغون، ومتطوعين نصارى من المغـامـرين من فرنسـا والمـانيا وانكلترا وغيرها من أوربا النصرانية[٧]، تباركهم الكنيسة. في

(١ - ٢) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٢.

(٣) دول الطـوائف ص ٣٩١، وهي قصـة لا تخلو من الخيـال، ولكنهـا ذات مغـزى يرمي إلى تصوير مدى غفلة الأمير، وثقته بأعدائه، وركونه إليهم.

(٤) ابن الخطيب - أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٣٣٠.

(٥) الذهبي - العبر جـ ٢ ص ٣٣٨.

(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٣ / العبر جـ ٢ ص ٣٣٩ / الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٣٨.

(٧) عنان - دول الطوائف ص ٣٩٦.

حين بقيت طليطلة المسلمة وحيدة تصارع هذه القوى، وأمراء الطوائف جامدون لا يتحرّكون، وكأن الأمر لا يخصّهم، بل ارتمى بعضهم كزعيمهم ابن عباد على اعتاب الفونسو، وتغافلوا عن الحقيقة: «ان النصارى لا يفرّقون بين طليطلة وغيرها من القواعد الإسلامية» ولم يقم بواجب نجدتها إلا المتوكّل على الله عمر بن محمد بن الافطس أمير بطليوس الذي وقف مجاهداً عن الإسلام وأهله كوالده الذي كان قد دعا إلى وحدة الأندلس للوقوف فى وجه النصارى، وأنحى باللائمة على ابن عباد الذي مالأ الاذفونش، وبيّن أن سبب تكالب الأفرنج على بلاد المسلمين يكمن في ذنوبهم وتفرّقهم[١]، واستمرّ في جهاده إلى وفاته سنة ٤٧٠هـ. فكان ابنه المتوكل هذا لا يقلّ عنه جهاداً، وقد ثار أهل طليطلة عام ٤٧٢هـ ضد القادر وخلعوه لتعاونه مع الاذفونش وخياناته، واستدعوا المتوكّل ليتولىّ أمرها، فقبل مكرهاً، وأقام عندهم نحواً من عشرة أشهر ليعود إلى بطليوس حين علم باستعانة القادر بالاذفونش وتقدّمهما نحو طليطلة[٢].

يئس أهل طليطلة من نجدات المسلمين، ففاوضوا الاذفونش من أجل التّسليم، وكالعادة أعطى لأهلها الأمان لضمان حرّياتهم، واحترام شعائر دينهم، وحقوقهم، وحرمة مساجدهم، وكعادته أيضاً نقض هذه العهود بعد شهرين فقط، وحوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وحطّم المحراب ليقام الهيكل مكانه[٣]، وارتكب بأهلها الأفاعيل وأنزل بها الآثام[٤]، تباركه الكنيسة في ذلك، واتّخذها عاصمة لاسبانيا النّصرانيّة. وكان سقوطها في منتصف المحرم سنة ٤٧٨هـ[٥].

وأسفر سقوط طليطلة عن نتائج هامة:

فقد اشتدّ طمع النّصارى في بلاد الأندلس الإسلامية، فشنّ الاذفونش الغارات على جميع الأندلس المسلمة، وفاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها، وذلك

(١) انظر رسالته للأذفونش بهذه المعاني / سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ٥٩٥ ـ ٥٩٦ وفيها تظهر عزة المسلم حينما يلجأ إلى الله سبحانه ويستمد منه قوته.

(٢) انظر: الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٣٣٧.

(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٤٧ / عنان ـ دول الطوائف ص ١١٣.

(٤) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤.

(٥) نفح الطيب جـ٤ ص٣٥٤/ العبر جـ٢ ص٣٣٨ / الكامل جـ٨ ص١٣٨.

ثمانون منبراً، سوى البُنيّات والقرى المعمورات، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة، وفحص اللجّ، وأعمال شنترية كلّها، وتسمّى «بالامبراطور» أو «الامبراطور ذي الملتين الإسلامية والنّصرانية». وطمع في ملوك الطوائف، وعاملهم معاملة الأتباع الأذلّاء[1]، وتصوّر أنهم غدوا كافّة رهن إشارته، وطوع بنانه، وانّه سيقضي عليهم الواحد بعد الآخر، ورفض جزيتهم وردّها كما فعل مع ابن عباد، ووصفهم بالحمقى الذين تلقبوا بأسماء الخليفة وهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً[2].

وتسلل اليأس إلى نفوس المسلمين من ملوك الطوائف، وغدت الأصوات اليائسة ترتفع، وفي ذلك يقول عبدالله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسّال أو غيره[3]:

يا أهل أندلس حثّوا مطيّكم	فما المقام بها إلّا من الغلط
الثّوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدوّ لا يفارقنا	كيف الحياة مع الحيّات في سفط

هذا وقد نُظّمت قصائد كثيرة في سقوط طليطلة وغيرها من المدن والحصون يظهر فيها الأسى والحزن.

وأدرك ملوك الطوائف عزلتهم عن أمّتهم، وانّ النّصارى لا يفرّقون بينهم في المعاملة، وينظرون إليهم نظرتهم الحاقدة إلى المسلمين تحثّهم على ذلك الكنيسة بروحها الصّليبية، فتنادوا للّقاء، وتداعوا للوحدة استجابة أو مسايرة للرأي العام المسلم.

رابعاً: دور العلماء في الدّعوة إلى الوحدة في الأندلس:

للعلماء المسلمين دور كبير في جميع عهود التاريخ الإسلامي، في الدّعوة إلى لمّ الشمل والوحدة، وإلى الجهاد. فمنذ سقوط الدولة العامرية في الأندلس وتفرّقها إلى طوائف، ارتفعت أصوات العلماء بالدّعوة إلى الوحدة، إدراكاً منهم للخطر الذي يتهدّد المسلمين من النّصارى، ومن العلماء الذين قاموا بجهود في هذا المجال:

ابن عبد البر: (أبو عمر يوسف بن عبدالله النّمري) علّامة الأندلس والمغرب الكبير (ت عام ٤٦٣هـ) عن عمر ناهز الخامسة والتسعين، فقد جلا عن وطنه قرطبة وتجوّل في

---

(١) انظر: الحجي - التاريخ الأندلسي ص ٣٣٤ - ٣١٥.
(٢) المؤنس ص ١٠١.
(٣) وتروى الأبيات بأشكال مختلفة بالمعنى نفسه. انظر: نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٢.

أنحاء الأندلس فسكن دانية، وبلنسية، وشاطبة وبها توفي. وولي قضاء الأشبونة، وشنترين في مدّة المظفّر بن الأفطس، وكان خلال تنقّله وتدريسه يدعو إلى نبذ التفرّق ولمّ الشّمل[1].

وابن حيان: (أبو مروان حيان بن خلف الأموي مولاهم)[2]، الذي علّق على أحداث الأندلس، وبشكل خاص نكبة بربشتر عام **٤٥٦هـ**، وعلّل أسبابها، وأنحى باللاّئمة على النّاس والحكّام بما ارتكبوا في جنب الله من ذنوب اهمالهم، بتقصيرهم في الأخذ بالشريعة، وتهاونهم في تنفيذ أوامرها، مما جرّهم إلى حالة الفرقة وأذهبت قوّتهم فقد «أركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغيّ بأقوياء، نشء من النّاس هامل، يعلّلون نفوسهم، من أوّل الدّلائل على فرط جهلهم بشأنهم واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصيّة رسوله نبيّهم عليه الصلاة والسلام، وهووهم عن النّظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سدّ ثغرهم، حتى لظلّ عدوّهم السّاعي لإطفاء نورهم، يتبجّح عراض ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفاً منهم وسرامة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهات عن لبهمّ، ما أن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا، ومحفل من محافلنا، مذكّر بهم أو داع لهم، فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأن ليسوا منّا، وكأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدّعاء بخلنا بالفناء، عجائب مغربة فاتت التّقدير، وعرضت للتّغيير، ولله عاقبة الأمور وإليه المصير».

وقد اوقع ابن حيّان نصيباً كبيراً لهذه الأحوال على أمراء السوء في دول الطّوائف، الذين انحرفوا عن نهج الإسلام، ملوّماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء.

وأبو الوليد الباجي: (سليمان بن خلف التجيبي القرطبي «٤٠٣-٤٧٤هـ») الذي جاب أقطار المشرق الإسلامي، فجاور بمكة ثلاثة أعوام، ورحل إلى بغداد ودمشق والموصل، واستغرقت رحلته ثلاثة عشر عاماً، عاد بعدها إلى وطنه فولي القضاء لأماكن متعدّدة، وصنّف التّصانيف الكثيرة[3]، ودعا إلى الوحدة من تلقاء نفسه أوّلاً، ثم نشط أكثر بعد حادثة بربشتر عام **٤٥٦هـ** تلك التي نبهت غيارى المسلمين إلى الخطر الكامن وراء هذه الأحداث المؤلمة، ثم دعمه المتوكّل بن الأفطس، وشدّ من عضده، بل كلّفه أو وجّهه إلى الجهاد، فأخذت دعوته طريقها الرسمي بذلك.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان جـ ٧ ص ٦٧ / سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ١٥٣ - ١٦٣.
(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٥٥ / نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ / الحجي ص ٣٦٥.
(٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ٥٣٥ - ٥٤٥ / العبر جـ ٢ ص ٣٣٢ / البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٢٢.

وابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) الوزير الظاهري[1]، الذي تجوّل في الأندلس، داعياً إلى الوحدة، ووجّه النّقد اللاّذع لملوك الطوائف وبيّن استهتارهم، وما أورثوا الأمة من الوهن والانحدار، ودعا إلى الجهاد، ومن جيد شعره في ذلك:

مناي من الدنيا علوم أبثّها ... وأنشرها في كلّ بادٍ وحاضر
دعاء إلى القرآن والسّنن التي ... تناسى رجال ذكرها في المحاضر
والزم أطراف الثّغور مجاهداً ... إذا هَيْعة ثارت فأوّل نافر
لألقى حمامي مقبلاً غير مدبر ... بسمر العوالي والرّقاق البواتر
كفاحاً مع الكفّار في حومة الوغى ... وأكرم موت للفتى قتل كافر
فياربّ لا تجعل حمامي بغيرها ... ولا تجعلنيّ من قطين المقابر

وهناك كثير من العلماء قاموا بدورهم في هذا المجال مثل: حاتم بن محمد الطرابلسي القرطبي المحدّث (ت عام ٤٦٩هـ)[2]. وأبو العباس المعذري أحمد بن عمر بن أنس بن دلهات الأندلسي المدلائي[3]. وأبو عبدالله الحميدي محمد بن أبي نصر الميورقي[4]. وأبو المعالي إدريس بن يحيى الأشبيلي[5]. والفقيه أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة[6]، وعبدالله بن غالب المالكي مفتى أهل سبتة[7]. وأبو القاسم المهلب بن أحمد الأسدي الأندلسي قاضي المرية[8]. ومكي بن أبي طالب القيسي[9]. ومحمد بن عبدالله المعافري محدّث قرطبة[10]. وعثمان بن سعيد القرطبي الصير في[11]. وعبدالله بن الوليد الأنصاري الأندلسي[12]. وابن العربي أبو محمد عبدالله الاشبيلي والد القاضي أبي بكر[13].

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ١٨٤ - ٢١٢ / العبر جـ ٢ ص ٣٠٦ / دول الطوائف ص ٤٢٠ - ٤٢٣.
(٢) سير جـ ١٨ ص ٣٣٦ / العبر جـ ٢ ص ٣٢٦ / شذرات الذهب جـ ٣ ص ٣٣٣.
(٣) العبر جـ ٢ ص ٣٣٨ / سير جـ ١٨ ص ٧ - ٨.
(٤) العبر جـ ٢ ص ٣٥٩ / شذرات جـ ٣ ص ٣٩٢ / سير جـ ١٩ ص ١٢ - ١٢٧ / الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٧٨ / البداية جـ ١٢ ص ١٥٢.
(٥) الحجي ص ٣٤٨.
(٦) الحجي ص ٣٥٠.
(٧) العبر جـ ٢ ص ٢٦٩ / شذرات جـ ٣ ص ٢٥٤.
(٨) العبر جـ ٢ ص ٢٧٢ / شذرات جـ ٣ ص ٢٥٥.
(٩) العبر جـ ٢ ص ٢٧٣ / النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤١.
(١٠) العبر جـ ٢ ص ٢٧٥ / شذرات جـ ٣ ص ٢٦٣.
(١١) العبر جـ ٢ ص ٢٨٦ / شذرات جـ ٢ ص ٢٧٢ / النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥٤.
(١٢) العبر جـ ٢ ص ٢٩٢.
(١٣) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ١٣٠ - ١٣١.

والطلاعي أبو عبد الأحد بن الفرج القرطبي المالكي مفتي الأندلسي ومحدّثها[1]. وحكم بن محمد أبو العاص الجذامي القرطبي مسند الأندلس[2]. والقاسم بن محمد بن هشام الرعيني السبتي المالكي[3]. وأحمد بن سليمان الباجي[4]. وأبو بكر محمد بن أحمد من أهل قرطبة الذي تطوّع محاولاً إزالة الخلافات بين ملوك الطّوائف، وسعى بجمع كلمتهم، وكان من بيت وزارة وجلالة[5]. كما اشترك في ذلك أبو الفتح نصر بن الحسن الترني الشاشي التنكتي من علماء المشرق (وتنكت من أعمال الشاش) وقد جاب البلاد محدّثاً وتاجراً، وسمع في مصر والشام والأندلس وتوفي سنة ٤٨٦هـ[6].

وقد أسفرت جهود العلماء عن تكوين رأي عام لدى المسلمين في الأندلس، يطلب الوحدة، ويلحّ عليها، فاستجاب ملوك وأمراء الطوائف لهذا الإلحاح وعلى رأسهم المعتمد ابن عباد الذي كان يملك أكثر البلاد الإسلامية الأندلسية، والذي كان يؤدي الضريبة للفونسو السادس، وكان قد أرسلها كعادته، فردّها عليه الفونسو وأرسل إليه يتهدده ويتوعّده السير إلى مدينة قرطبة وامتلاكها إلاّ أن يسلّم إليه جميع الحصون التي في الجبل ويبقى السهل للمسلمين[7]. فأسقط في يد المعتمد كما أسقط بيد أمراء الطوائف، فاجتمعوا وتشاوروا، ولكنّهم أدركوا أن الأندلس الإسلامية بأوضاعها المنحلّة، واغراق أهلها في النّعيم، ليست لديها القدرة على التصدّي للهجمة الصّليبية القويّة، فبرزت فكرة الاستغاثة بالمرابطين لدى المعتمد الذي قال لابنه: «إن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس، ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرة، ولا حيلة، إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدوّ ثقيل، وهو اللّعين الأذفونش، وها هو قد رفع رأسه إلينا، وان نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنّا حتى يأخذ اشبيلية[8].

استنجاد الأندلس الإسلامية بالمرابطين:

كانت الظّروف الأندلسية التي بيّناها الحافز لطلب النجدة من مسلمي المغرب. فالفكرة كانت عامة على النّطاق الشّعبي، قبل أن يتبنّاها أمراء الطوائف رسميّاً، فقد كان

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ١٩٩ - ٢٠١.
(٢) نفسه جـ ١٧ ص ٦٥٩.
(٣) نفسه جـ ١٨ ص ٦ - ٧.
(٤) نفسه جـ ١٨ ص ٥٤٥ - ٥٤٦.
(٥) الحجي - تاريخ الأندلس ص ٣٤٩.
(٦) سير أعلام النبلاء جـ ١٩ ص ٩٠ - ٩١.
(٧) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٣٨ / سير الأعلام جـ ١٩ ص ٥٨.
(٨) الحلل الموشية ص ٥٢ / تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٠.

يوسف بن تاشفين قد أتمّ وحدة المغرب عام ٤٧٤هـ تقريباً، ووفد صريخ أهل الأندلس على بلاط مراكش في العام نفسه، ووفد إليه جماعة، وشكوا إليه ما حلّ بهم من عدوان النصارى، وطلبوا إليه النّجدة، والعون، فوعدهم بتحقيق أمنيتهم[١]، كما كانت سفارة أبي الوليد الباجي إليه قبل هذا التاريخ لأن الباجي توفي عام ٤٧٤هـ كما ذدرنا. وكاتبه المتوكل على الله بن الأفطس حاكم بطليوس[٢]وأمام استمرار الصريخ استعدّ بقواته ليجوز الأندلس، فافتتح سبتة عام ٤٧٧هـ، وأخذ يعدّ العدّة وينشيء المراكب والسفن ليعبر فيها[٣]. وينتظر الفرصة السّانحة.

وفي سبتة توالت الرسل إليه أكثر من ذي قبل، وازدادت أكثر بعد سقوط طليطلة، فكثرت رسل الأندلس، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، للحثّ على انقاذهم مما هم فيه، وما يقتضيه واجبه الإسلامي نحو إخوانه. فكان يصغي لقولهم ويستمع إليهم، وترقّ نفسه لهم[٤].

ثم تحوّل الأمر بعد استئساد النّصارى على المسلمين وزلزلة طليطلة، فأصبحت الدّعوة للعبور رسميّة، فاتّفقت الأندلس كلّها على ذلك أمراؤ ها وفقهاؤ ها وعامّتها[٥]. وكان ملوك الطوائف يكرهون إلمام يوسف بجزيرتهم[٦] ولكنّهم أمام ضغط النّصارى وتنكّر الفونسو لهم، وخضوعاً للرّأي العامّ الإسلاميّ، استغاثوا بأمير المسلمين، فَعُقِد اجتماع في قرطبة حضره الزعماء والفقهاء وكثير من النّاس، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، اتّخذ فيه قرار الموافقة على استدعاء المرابطين للنّصرة، ثم دعا المعتمد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر، واجتمعوا بالفعل لاتّخاذ ترتيبات عبور وفد إلى العدوة ودعوة الأمير يوسف، وكتبت رسالة بهذا الشأن وقّعها أمراء الأندلس، وأرسلت من الأندلس مع سفارة خاصّة وتحت اشراف ابن عبّاد، وحملت السفارة التّحف الثّمينة والوعود المغرية للاستغاثة[٧] مع الرّسالة. وقد ضمّ الوفد: عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة، وكان أعقل أهل زمانه، ووزير المعتمد أبا بكر بن زيدون، وقاضي المتوكل على الله عمر بن الأفطس أمير بطليوس، وقاضي عبدالله

(١) انظر: عنان ـ دول الطوائف ص ٣١٢ ـ ٣١٥.
(٢) الحجي ص ٣٩٧ / عنان ص ٩٢.
(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤ عن الروض المعطار.
(٤) نفسه جـ ٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٥) دول الطوائف ص ٣١٧.
(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤.
(٧) التواتي ـ مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس ص ٢٨٧.

ابن حبوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة[1]. والتقى الوفد بأمير المسلمين في سبتة، فلبىّ النّداء وقال: «أنا أوّل منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلّا بنفسي»[2].

وكانت هناك دعوة للاستنجاد بعرب افريقيا (بني هلال)[3]، واستُبْعِد هذا الرّأي، كما ارتفعت بعض الأصوات تعارض الرّأي العامّ في الاستنجاد بالمرابطين تزعّمها عبدالله بن سكوت والي مالقة، الذي حذّر أمراء الأندلس من المغاربة خوفاً من استئثارهم بالأندلس أرض الخيرات، وقد اشتهر ابن سكوت بمواقفه المشبوهة، ولعلّه هو المدبّر للحركة المضادّة لدخول المرابطين، التّي اتخذت اتّجاهاً خطيراً فيما بعد، وجعلت أمير المسلمين يتشكّك في نوايا أمراء الأندلس[4]. وحذّر أبو الحسن عبيد الله (ولي عهد المعتمد) والده مغبّة الاستنجاد بالمرابطين، وقال له: «يا أبت تُدخِل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدّد شملنا»[5]. ولكن المعتمد المدرك أبعاد القضية أجابه: «أي بني والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنّصارى، فتقوم عليّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري». وقال قولته التي سارت مثلاً: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير» أي أن كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصّحراء، خير من كونه ممزّقاً لابن فردلند أسيراً يرعى خنازيره في قشتاله[6].

ولما فشا في الأندلس عزيمة الاستنجاد بيوسف والاستظهار به، استبشر النّاس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الأمل[7]، وعمّ المسلمين الفرح.

الشّورى:

جمع يوسف بن تاشفين مجلس شوراه من الفقهاء والأعيان والقادة، واستشارهم في نجدة الأندلس، فأشار عليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبط من أهل المريّة، وأوضح له أن معظم أراضي الجزيرة في يد النّصارى، والجزيرة ذاتها وعرة البسائط، تعترضها جبال صعبة

---

(١) الروض المعطار ص ٨٦ / انظر: الحجي - تاريخ الأندلس ص ٣٢١.
(٢) المعجب للمراكشي ص ١٣٠ - ١٣٢.
(٣) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٤١ - ١٤٢.
(٤) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٥.
(٥) ابن الخطيب - أعمال الأعلام ص ٢٤٥.
(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٩ / البيان المغرب جـ ٤ ص ١١ / وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١١٥.
(٧) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٩.

المسالك، وهي شبيهة بسجن، يندر على الداخلين إليه الخروج منه.. وقال: «فإذا انتصر عليك الأعداء، فقد يقطع عليك طريق العودة بأيسر أمر». وأضاف: «فنصيحتي أن تُخْطِرَ أمير اشبيلية بأنك لا تستطيع العبور قبل إخلاء حصن الجزيرة، وبذلك تملك موقعاً أميناً، تشغله حامية مخلصة، وتبقى في كلّ وقت على اتّصال دائم بافريقية»[١]. وهذا دليل على الشكّ في نيّة أمراء الطّوائف، فقد عرف عنهم الغدر وعدم التقيّد بالعهود، فاشترط الأمير يوسف تسليم ثغر الجزيرة لضمان سلامة طريقه في الذّهاب وحماية ظهره في الإياب، فوافق المعتمد على ذلك.

الإعـــداد للجهـــاد:

كان ابن تاشفين على استعداد للعبور إلى الأندلس قبل استنجاد ملوك الطّوائف، فجاءت الفرصة السّانحة، فاستنفر قواته للجهاد، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس، في عدد كثير من الرّجل[٢]، وأقبل من بقي من جنده في مدينة مراكش حتى تكامل العدد، وكان قد أعدّ أسطولاً يتألف من مائة سفينة وعدداً من المراكب ليعبر فيها[٣].

وبلغ الأذفونش (الفونسو السادس) استعدادات ابن تاشفين واعتزامه المجاز للأندلس، فأراد أن يجسّ النّبض، فكتب إليه يستحثّه على سرعة القدوم، وأغار على البلاد في تظاهرة عسكرية جرّارة حتى وصل ساحل البحر عند الجزيرة، وكتب من هناك كتاباً، كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول، ويصف ما معه من القوة والعَدَد والعُدَد وبالغ في ذلك. فلما وصل الكتاب وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه، وكان كاتباً مفلقاً، فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين. قال: «هذا كتاب طويل، احضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره: «الذي سيكون ستراه»[٤]، والسلام على من اتبع الهدى، وأردف الكاتب بيت أبي الطيب (المتنبي):

ولا كتب إلّا المشرفية والقنا ... ولا رسل إلّا الخميس العرمرم

فلما وقف الأذفونش على الكتاب، ارتاع له وعلم أنه بلي برجل لا طاقة له به[٥].

(١) الحلل الموشية ص ٥٠ / التواتي ص ٢٨٩.
(٢) الحجي ص ٤٠٣ / المعجب ص ١٩١.
(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٥٤.
(٤) نفسه جـ ٤ ص ٣٦١.
(٥) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦١ / أعمال الأعلام ق ٣ ص ٢٤٠.

عبـور المجاهـدين :

عبرت الجيوش الإسلامية المجاز (مضيق جبل طارق) بقصد الجهاد سنة ٤٧٩هـ(١)، من سبتة إلى الجزيرة الخضراء تباعاً : فكان أوّلها قوةّ من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، يوم الخميس منتصف ربيع الأول عام ٤٧٩هـ / ٣٠ حزيران ١٠٨٦م(٢).

ويُذكر انّه خلال العبور هبّت ريح عاصف أثارت أمواجاً عالية، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السّماء يدعو الله عزّ وجل :

«اللهم إن كنت تعلم أنّ في جوازنا هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتى لا أجوزه». واستجاب الله دعاءه، «فسهّل له المركب، وقرّب المطلب»(٣). وما كاد يطأ بقدميه أرض الأندلس حتى سجد لله شكراً. وتلقّاه المعتمد بن عبّاد في وجوه من دولته، وقدّم إليه الهدايا والتّحف، وتسلّم الأمير قلعة الجزيرة الخضراء باحتفال حضره القضاة والفرسان والمعتمد، كما تسلّم عدّة قلاع وحصون أخرى، قام بإصلاحها، وأعاد تحصينها، أتمّ تحصين، ونظّمها حسب رأيه واستراتيجيته الخاصة، ورتب لها حامية مختارة من جنده لتسهر عليها، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات، والذخائر، والمؤن، لكي تغدو ملاذاً أميناً، يلتجيء إليه، إذا منيت الحملة بالفشل(٤).

وفشا خبر عبور الأندلس فقوبل بالترحيب وانتعاش الآمال من قِبَل جميع المسلمين في الأندلس، وتحرّكت في نفوسهم روح الجهاد فتوافد إليه المتطوّعة من كلّ مكان، كما جاءته الوفود مرحّبة.

خط سير القوات الإسلامية إلى الزلاقة :

تحرّك يوسف بالجيش الإسلامي من الجزيرة الخضراء باتّجاه الشّمال الشّرقي إلى اشبيلية، ولما وصلها نزل بظاهرها، وطلب إليه المعتمد أن يدخل حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعثاء السفر، ومشقّة الطريق، قبل أن يلتقي بعدوه. فأبى يوسف الدّخول وقال :

---

(١) المؤنس ص ١٠٨.

(٢) عنان ـ دول الطوائف ص ٣١٩.

(٣) دول الطوائف ص ٣١٩، ٤٤٧ / الحجي ص ٤٠٣ / التواتي ص ٢٩١.

(٤) دول الطوائف ص ٣٢٠ / التواتي ص ٢٩١.

«إنّما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما كان العدوّ توجّهت، هلّم (إلى ما جئنا له من الجهاد)»[1].

وأقام بظاهر أشبيلية ثمانية أيام، نظم فيها أموره، فتمّ التخلّص من كلّ ما لا حاجة إليه في ساحة المعركة، وتمّت دراسة الجوّ، والأوضاع والنفوس، وتمّ التئام جيوش المسلمين وأمراء الأندلس التي تقرّر أن تشارك في المعركة المنتَظَرة، وكانت قد سَرَت في مسلمي الأندلس قبل ذلك وخلاله روح جديدة، ذكرّتهم بأيام النّصر التّي سمعوا عنها الكثير، فشارك أمراء الطّوائف بقواتهم، وأعدّوا ما يمكن للمشاركة في البذل والتّضحية. «ولم يبقَ من ملوك الطوائف إلاّ من بادر أو أعان أو خرج، أو أخرج»[2]. فانضمّ المعتمد بقواته، وبعض قوات بعثها ابن صمادح صاحب المريّة الذي اعتذر عن عدم استطاعته الشّخوص بنفسه بسبب العدوّ الملاصق له بحصن لييط، من عمل لورقه، واعتذر بكبر السن مع الضعف. وساهم عبدالله بن بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، وابن ذي النون، وانضمّ المتوكل بن الأفطس وكان أشدّهم حماساً، وقصدته المتطوّعة من سائر بلاد الأندلس[3]. وكان يوسف خلال هذه الأيام صائم النّهار، وقائم اللّيل، في تهجّد، وتلاوة لآيات كتاب الله الكريم، وقد أكثر من الصّدقات، وأعمال البر، فتملّك نفوس أهل الأندلس، وكسب قلوب جنده بالنّصفة، وإيثار الحقّ، وإنشاء العدل. ووصله أثناء ذلك خبر موت ابنه أبي بكر، «فحيرّه حتى لهمّ بالانصراف عن وجهه. ثم آثر الجهاد، وانفذ مزدَلي (أحد قادته المشاهير) إلى مرّاكش»[4] للقيام بتنظيم الأمور هناك.

وقام يوسف بتنظيم الجيش للتّحرّك من ظاهر أشبيلية، فجعل القوات الأندلسية لوحدها في المقدمة بقيادة المعتمد بن عباد، لمعرفتها التّامّة بأرض الأندلس، في حين جعل الجيوش المرابطيّة في المؤخرّة، ثمّ أمر بالتّحرّك إلى بطليوس، فتلقّاهم المتوكلّ عمر بن محمد الأفطس بما يجب من الضّيافات والأقوات وبذل المجهود[5]. فأقام الجيش هناك ثلاثة أيام للراحة في طرطوشة بالقرب من بطليوس[6].

---

(١) حسن ابراهيم ـ تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ١٢١ / المعجب للمراكشي ص ١٣٢.

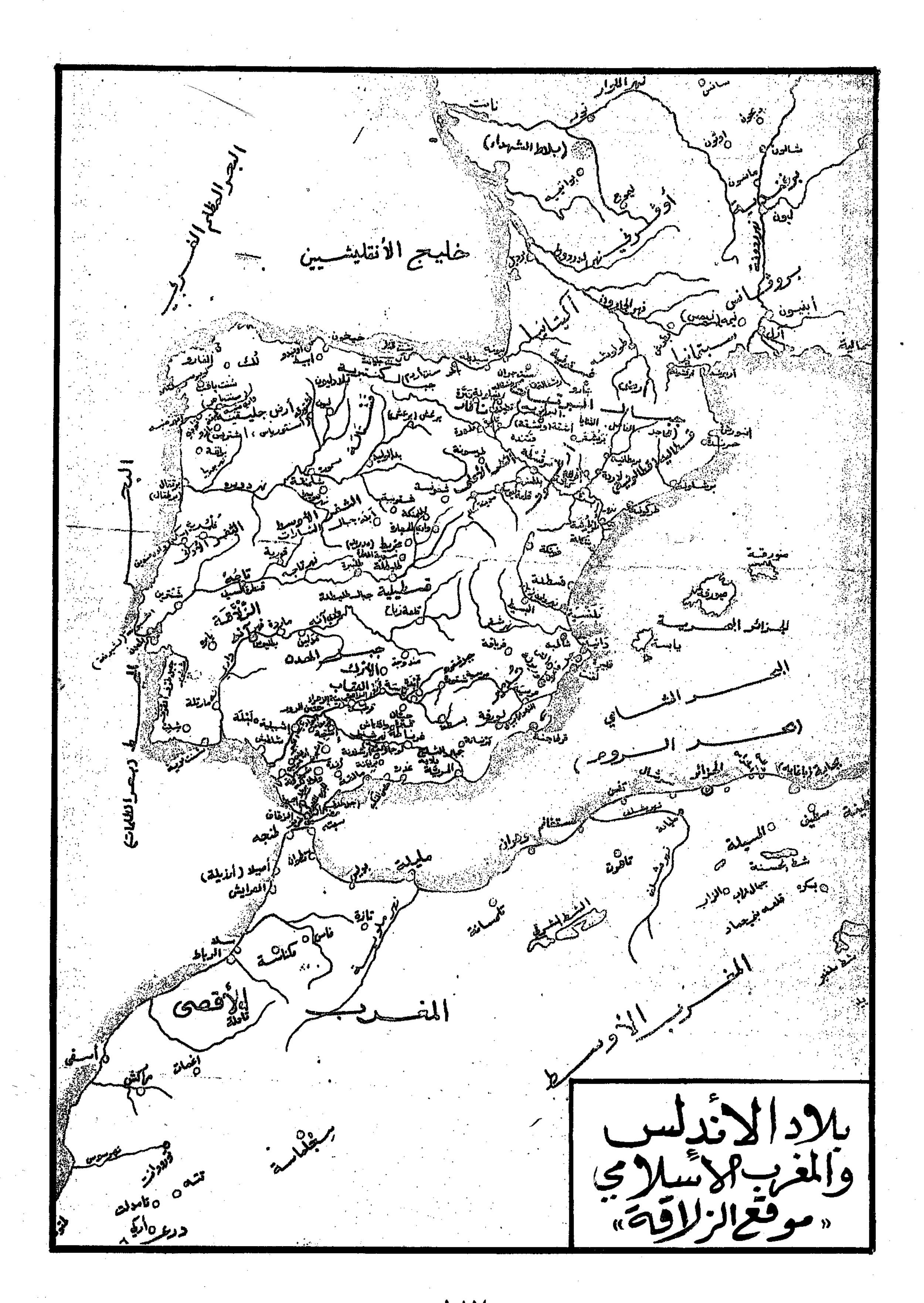
(٢) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٢.

(٣) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٤٢ / اشباخ ـ تاريخ الأندلس ص ٨٠ / وانظر ما كتبه عبد الله بن بلقين في كتابه التبيان ـ الحجي ص ٤٠٤.

(٤) انظر: الحجي ص ٤٠٤، عن الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٠٠ / راجع دول الطوائف ص ٣١٩و٤٤٧.

(٥) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٤.

(٦) انظر عن طرطوشة ياقوت جـ ٤ ص ٣٠ وعن بطليوس: ياقوت جـ ١ ص ٤٤٧ / التواتي ص ٢٩٤.


بلاد الأندلس
والمغرب الإسلامي
«موقع الزلاقة»
خليج الأنقليشيين
البحر المظلم الغربي
البحر الشامي
(بحر الروم)
الجزائر البحرية
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
طنجة
سبتة
مليلة
تلمسان
تاهرت
المسيلة
فاس
مكناسة
الرباط
أسفي
سجلماسة
الزلاقة
ميورقة
منورقة
يابسة
قرطاجنة
دانية
بلنسية
طرطوشة
برشلونة
طركونة
بطليوس
بيزو
آسفي



علم أمير المسلمين بتقدّم الجيوش الصّليبية، فأمر الجيش الإسلامي بالتّحرّك، إلى مكان مناسب، اختاره مع القادة ليكون موقع المعركة الفاصلة، وهذا المكان موضع سهليّ من عمل بطليوس وأحوازها على مسافة ١٢ كم شمالها الشرقي، في العدوة الشمالية للوادي اليانع، وبينه وبين نهر تاجه، تتخلله الأحراش، ويقع على حدود البرتغال الحاليّة[١]، ويسميه المسلمون «**الزلاقة**»[٢]، ويسميه الأوروبيون «ساكر الياس»[٣].

وفي هذا المكان وضع أمير المسلمين ترتيباً جديداً للجيش الإسلامي استعداداً للمعركة الفاصلة، فجعل الفرسان المرابطين وعددهم عشرة آلاف في طليعة الجيش، بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة أشهر قادته الكبار، وذلك ليتلقّوا الصدمة الصليبية الأولى.

وجعل قوات الأندلس تليهم، وكانت تؤلف وحدها جيشاً خاصّاً، منفصلاً عن جيوش المرابطين، يقودها المعتمد بن عباد أمير أشبيلية أشهر ملوك الطّوائف.

كما جعل جيشه في المؤخرة، وعلى مسافة كبيرة من جيش الأندلس، وراء أكمة ليوهم العدو أنّ الجيش الذي يواجهه هو الأوّل والثّاني فقط.

وهكذا تحكّم المسلمون في اختيار موقع المعركة، ووضعوا خططهم على أساس ذلك، ونظّم يوسف الاتّصالات السّريعة بينه كقائد أعلى للجيش وقواد الجيشين بحيث تأتي الأخبار سريعة. وجعل ابن تاشفين المعتمد بن عباد في قلب مقدّمة جيش الأندلس، والمتوكل بن الأفطس في الميمنة، وأهل مشرق الأندلس في الميسرة، وباقي الأندلسيين في السّاقة.

وجعل من جيشه المرابطي كمائن لتفاجيء العدو بعد اصطدامه بفرسان المرابطين وبجيش الأندلس، ولمنع الأندلسيين من التّراجع أو الفرار، وضرب معسكره وراء ربوته العالية منفصلاً عن مكان القوات الأندلسيّة.

استعداد النّصارى وتحرّكهم باتجاه المسلمين :

كان الفونسو السادس قد طمع في الأندلس الإسلاميّة، وعتا وتجبرّ، وقطع عهوده مع

---

(١) عنان ـ دول الطوائف ص ٣٢١.

(٢) وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١١٦ / المؤنس ص ١٠٨ / أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٤٦ / ياقوت جـ ٣ ص ١٤٦. والزلاقة الموضع الذي لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلقه ـ لسان العرب جـ ١٠ ص ١٤٤.

(٣) التواتي ص ٢٩٥ وانظر الحجي ـ التاريخ الأندلسي ص ٤٠٥.

أمـرائهـا وملوكهـا، وجاءته بركات البابا، وتدفقت عليه جموع النّصارى الفرسان من مختلف أجـزاء أوربـا، فعـاث في الأنـدلس الإسـلاميـة فساداً حتى وصل الجزيرة كما ذكرنا، وأعلن تحديـه لأمـير المسلمـين يوسف بن تاشفين، ثم توجّه بقواته لمحاربة أمير سرقسطة ابن هود، وحـاصـرها، وألحّ عليها، وقاومت ببسالة. وعندما تأكّدت لديه أنباء عبور المجاهدين، رفع الحصار تاركاً أمر تصفية حسابه مع سرقسطة إلى ما بعد إيقاف هذا الزّحف، وحشد القوات النّصرانيّة من جيليقية، وليون، وبسكونية، واشتوريش، وقشتالة[1]، وكاتب ملك اراغون شانجـه بن ردمـير صاحب بنبلونـة وكـان مشغـولاً بمحاصرة طرطوشة، فانضمّ إليه بقواته، وكـاتب الكـونت برنجـار ريمـونـد الذي كان يتأهب لغزو بلنسية فانضم إليه بقواته. وطلب النجـدات من أمـراء ما وراء الـبرت فلحق به سيـل من الفرسان والمتطوّعين الفرنجة والألمان والأنكليـز والايطـاليـين، فأصبح جيشه كبيراً متفوّقاً في العُدَة والعَدَد والامكانيّات، واتّخذت المعركة شكل الحروب الصّليبيّة، فقد رفع القسّيسون والرّهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم[2] أمام القوات النّصرانيّة، وباركها البابوات وحثّوا عليها، ووجّهوها، بل تبايع رهبانهم على الموت.

وسار الفونسو بجيشه اللّجب مزهوّاً بتفوّقه في العَدَد والعُدَة، وبلغ به الزّهو بجيشه أن قال: «بهؤلاء أقـاتـل الجنّ والإنس، ومـلائكـة السـماء»[3]. وبلغ به الأمر أن قال: «بهذا الجيش القى إله محمد»[4] (ﷺ).

تحرك الفـونسـو باتّجاه المسلمين ليفرض المعركة عليهم في أرضهم بدلاً من انتظارهم، وكـان الجيش الإسـلامي قد اختار مكان اللّقاء، ولما أصبح على مسافة ١٨ ميلاً من القوات الإسلامية نزل هناك. عندئذ أمر أمير المسلمين المعتمد بن عباد التّقدّم إلى سفح جبل أمام الأذفـونش بحيث يتراؤون، فظن الأذفـونش أنّ عسـاكـر المسلمـين ليس إلّا الذي يراه[5]، فنجحت خطة أمير المسلمين الأوّليّة.

وقـام الفـونسـو بترتيب جيشه، فقسمه إلى قسمين: الأوّل بقيادة الكونت جارسيان والكـونت رودريـك، وخُصّص لمهـاجمـة المعتمـد بن عبـاد. والثاني: جناحا الفونسو بقيادة

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٨٠ / انظر الحجي ص ٤٠٥.
(٢) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٣ / الروض المعطار ص ٨٧.
(٣) نفســـه.
(٤) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٤٢.
(٥) نفســـه.

سانشو (شانجة) راميريز ملك اراغون والكونت ريموند، وقاد الفونسو القلب. وهكذا كانت احتياطات وخطط الفونسو لا تقلّ في أهمّيتها عن خطط أمير المسلمين، وانتظم الجيشان وتصافّا لا يفصل أحدهما عن الآخر إلّا فرع صغير من الوادي اليانع هو وادي يبرا «ابرة»(١).

القوى الإسلامية والنصرانية المتواجهة :

بلغ عدد الجيش الإسلامي أكثر من عشرين ألفاً، عدا المتطوّعة الذين جاءوا من سائر بلاد الأندلس(٢). وعددهم كبير.

وأما الجيش النصراني فالمقلل يقول : «المختارون أربعون ألف دارع، ولكل واحد أتباع، والنصارى يعجبون ممّن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله»(٣). والمكثر يقول : «انه كان في ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل»(٤).

والواقع أن عدد الجيشين الإسلامي والنصراني كبير. وتتفق جميع المصادر أن عدد جيش المسلمين كان أقل من جيش النصارى بكثير، وقد يصل إلى النصف(٥).

المراسلات :

كانت المراسلات وتبادل الكتب بين أمير المسلمين وملك النّصارى قد بدأت قبل دخوله الأندلس، وجميع المراسلات تحمل صيغة التّحدّي، وقبل بدء المعركة أرسل أمير المسلمين كتاباً للفونسو امتثالاً لأحكام السنة المطهرة، يعرض عليه فيه الدّخول في الإسلام أو الجزية، أو المناجزة، ومما جاء فيه(٦) : «بلغنا يا اذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنّيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه السّاحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك : ﴿**وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال**﴾ [سورة غافر الآية ٥٠].

واختلفت الرّسل بين الفريقين في تحديد يوم القتال، ووعظ الأمير يوسف وابن عبّاد أصحابهما، وقام الفقهاء والعبّاد يعظون الناس، ويحضّونهم على الصّبر، ويحذّرونهم الفرار.

---

(١) التواتي ص ٢٩٦.
(٢) حسن ابراهيم ـ تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ١٢١.
(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٣.
(٤) المؤنس ص ١٠٨.
(٥) الحجي ص ٤٠٥.
(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٢ / ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٥ / وانظر الحجي ص ٤٠٦.

وجاءهم الطلائع بخبر أن العدّو مشرف عليهم صبيحة يومهم (الأربعاء ١٠ رجب عام ٤٧٩هـ) ولكن عاد الفونسو إلى أعمال الخديعة، وعاد النّاس إلى محلاّتهم وباتوا ليلتهم[١].
وهذه مناورة من الفونسو لمعرفة الجيش الإسلامي.

يقظة قادة الجيش الإسلامي:

أذكى المعتمد بن عبّاد عيونه في محلاّت المرابطين خوفاً عليهم من مكائد الفونسو وكان قد خبره، وهم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل المعتمد يتولّى ذلك بنفسه حتى قيل: «انّ الرّجل من الصّحراويينّ لا يخرج على طرف المحلّة لقضاء أمر أو حاجة، إلاّ ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلّة»[٢]. واندسّت عيون المسلمين بين جيوش الفونسو، تتعرّف على مخطّطات النّصارى، فتعرّفوا على مخطّطات الفونسو في نيّة الغدر بالمسلمين ومباغتتهم، فقد كتب للمسلمين (يوم الخميس ١١ رجب) يقول: «الجمعة لكم، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا، وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان ما نريده من الزحف»[٣]، أي حدّد أن تكون المعركة يوم الاثنين ينوي بذلك الغدر[٤]، فجاءت العيون إلى يوسف وابن عبّاد وأكّدوا استعداد معسكر النّصارى. وقالوا: «استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن عبّاد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصّحراويّون وإن كانوا أهل حفاظ، وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنّما قادهم ابن عبّاد، فاقصدوه، واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم غيره»، فاستحثّ ابن عبّاد يوسف لنصرته، وبات المسلمون ليلتهم على أهبة احتراس وبقوا شاكي السلاح بجميع محلاّتهم، خائفين من كيد العدو[٥].

البشــــرى:

وبعد مضيّ جزء من اللّيل انتبه الفقيه أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي (وكان في محلّة ابن عباد) فرحاً مسروراً يقول: «انّه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يبشّره بالفتح والشّهادة له في صبيحة غد، وتأهبّ ودعا، ودهن رأسه، وتطّيب، وانتهى ذلك إلى ابن

---

(١) انظر: نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ / الروض المعطار ص ٩٠ / الحجي ص ٤٠٦.
(٢) بسام العسلي ـ الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص ٥٤.
(٣) حسن ابراهيم جـ ٤ ص ١٢١ عن المعجب ص ١٣٥ / نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٥ / الروض ص ٩٠.
(٤) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٤٢.
(٥) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٥ / الروض ص ٩٢.

عباد، فبعث إلى يوسف فخبرّه تحقيقاً لما توقّعا من غدر ابن فردلند[1]. وشاع ذلك في عسكر المسلمـين كلّه، فشّـع في قلوبهم الأمـل الكبـير بالنّصر، وأعطتهم البشرى معنويات عالية، وتأكّدوا أن المعركة ستكون يوم الجمعة، فاستعدّوا لذلك، فكانت تعبئة نفسية جيّدة.

المعركــة الفاصــلة :

وصـحّ ما توقعـه المسلمـون ففي السحـر من يوم الجمعـة **١٢** رجب عام **٤٧٩**هـ[2]، هاجم الفونسو القوات الإسلامية بجميع قوّته الرّهيبة، هجوماً عامّاً، ظناً منه أن الّذي أمامه هي جميـع القـوات الإسـلاميّـة، فتصـدّى له الفرسان العشرة آلاف من المرابطين بقيادة أبي سليـمان داود بن عائشـة، وعلى الـرغـم من عدم قدرتهم على الصمـود أمـام سيـل الفرسان النّصـارى، فقـد استطاعوا تحطيم حدة وعنف هجمة النصارى، وتكسير موجتهم، بعد أن خسـروا كثـيراً من الشهـداء، وتمّ الـتّراجع إلى معسكر قوات الأندلس. واستمرّت صدمة النصارى رغم تكسّر حدّتها شديدة، فتراجعت القوات الأندلسية، ودارت عليهم الدائرة، وثبت ابن عبّاد وأبلى برغم ذلك بلاء حسناً، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف يستحثّه.

ولم يكن يوسف غافلاً، فقد كان يرقب المعركة، من على ربوته، ولمّا تأكّد أن الفونسو اقتحم معسكـر الأنـدلسيـين بجميـع قواته، أخذ يدفع بعض قواته إلى قلب المعركة أرْسالاً لمسـاعـدة ابن عبّـاد، ليسـاعـده على الثّبـات، ثم حمل بنفسـه بقـوّتـه الاحتياطية إلى محلة الأذفونش من خلف جيش النّصارى، فاقتحمها المسلمون، ودخلوها، وفتكوا فيها، وقتلوا.

ثم أمر أمير المسلمين بضرب الطّبول، وزعقت البوقات، فاهتزّت الأرض، وتجاوبت الجبـال والآفـاق[3]. ودوّت: «الله أكـبر» وأشعـل النـار في المعسكـر القشتـالي، فطـار لبّ الفـونسـو، واضطّـربت قلوب النّصـارى، وعادوا إلى محلّتهم بغضب، فصدموا جيش أمير المسلمين، فأفرج لهم عن محلتهم، ثم كرّ عليهم، فأخرجهم منها، ثم كرّوا عليه فخرج لهم عنهـا، ولم تزل الكـرّات تتـوالى في خطة محكمة لأمير المسلمين لإضعاف فرسان النّصارى،

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٥ / الروض المعطار ص ٩١.

(٢) الـروض المعطـار ص ٨٣ / دول الطـوائف ص ٣٢٣ / أو في منتصف رجب: أعـمال الأعـلام جـ ٣ ص ٢٤٢ / وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٢٩ / في حين وصفها آخرون في رمضان. العبر جـ ٣ ص ٢٩٣ / وفيان الأعيان ج ٥ ص ٢٩.

(٣) انظر: نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ عن ابن خلكان جـ ٦ ص ١١٦ وهوينقل بدوره عن كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل للبياسي.

وإنهاك رجّالتهم، تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً، وفي أثناء ذلك جمع جيش الأندلس شتاته وعادت إليه معنوياته فتحوّل مع الأرْسال المرابطيّة وفرسانهم إلى الهجوم المضادّ، فوقع الجيش الصّليبي بين مطرقة المرابطين وسندان ابن عباد.

وقدّم ابن تاشفين الجمال حيث كان لها نفع عظيم، إذ كانت خيول فرسان النصارى تجفل منها، وتلوي أعناقها عندما تسمع رغاءها، لعدم تعوّدها على رؤيتها. كما كان لقرع الطّبول أثر في تخلخل أفئدة النّصارى. فتوالى استنزاف قوّة النّصارى. ويوسف يحمل بنفسه وهو على فرسه يرغّب في الصبر والاستشهاد ويقول بأعلى صوته:

«يا معشر المسلمين، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشّهادة فله الجنّة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة». وتمتّع المسلمون بمعنويّات عالية فقاتلوا قتال من يطلب الشهادة ويتمنّى الموت(١)، وكانت كلمات يوسف مع بسالته تعمل عملها في إذكاء حماس المسلمين، وقيل إن لصموده وقوته وسرعة حركته، قتلت تحته في هذه المعركة ثلاث أفراس(٢).

وأما ابن عباد فقد بذل جهداً مشكوراً، وأثبت كفاءة عالية في هذا اليوم، وصبر فعندما اشتدت صدمة النّصارى وانكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبدالله، ضُرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجُرحت يُمنى يديه، وطُعنَ في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكّر في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مُغرماً به تركه في أشبيلية عليلاً، وكنيته أبو هاشم فقال(٣):

أبا هاشم هشّمتني الشّفار ... فلله صبري لذاك الأوار
ذكرت شُخَيْصَك تحت العجاج ... فلم يثنني ذكره للفرار

وهكذا اتّبع يوسف في قتاله للنّصارى أسلوب الكرّ والفرّ بالصّفوف المتراصّة المتماسكة وهو نظام أربك النّصارى لأنهمّ لم يعهدوه من قبل. وبعد عديد من الكرّات أدرك الأمير تضعضع النّصارى، فعندئذ ضرب ضربته الأخيرة، إذ أمر حشمه السّودان، فترجّل منهم زهاء أربعة آلاف، ودخلوا المعترك بدرق اللمّط، وسيوف الهند، ومزاريق الران، فطعنوا

(١) روض القرطاس ص ٩٥.
(٢) التواتي ص ٢٩٧.
(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٦.

الخيـل، فرمحت بفرسـانهـا[1]، وتـرجّـل معهم عدد آخر من الأجناد: «فأمّن الله المسلمين وقذف الرّعب في قلوب المشركين[2]. وطُحِنوا بين العسكرَيْن المُسْلِمَيْنْ. ودارت الدّائرة على قوات الفـونسـو، وجـرح جرحـاً بالغاً، إذ لصق به عبد أسود طعنهُ في فخذه بخنجر، فتسلّل ومعه حوالي خمسمائة فارس مثخنين جراحاً وانسحب من المعركة، وفرّ جيشه، وطورد الفارّون في كلّ مكان، حتى دخل الظّلام فأمر ابن تاشفين بالكفّ عن المطاردة، وتسلّل الفونسو مع جماعتـه في جنـح الظـلام فارّاً إلى طليطلة، حيث توفّي أكثـرهم في الطّـريق، ولم يدخل معه طليطلة إلّا حوالي مائة فارس[3].

لقـد استمـرّت المعـركـة يومـاً واحـداً لا غير، حطّم الله شوكـة العـدوّ الكافر، ونصر المسلمـين، وأجـزل لديهم نعمـه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه[4]. وكلّ الدلائل (التي بيّنـاهـا) تشـير أن خطّـة أمـير المسلمـين كانت حسم المعـركة بسرعة حتّى وإن كَثُرَت الخسائر، وذلك لاستغلال حماس المسلمين وقبل أن تفتر همة أمراء الطّوائف. وتحقّقت خطّته بأمر الله.

واستشهد عدد كبير من المسلمين بينهم عدد من العلماء الفضلاء وأعيان النّاس. ومن العلماء: ابن رميلة صاحب البشرى، وقد ترجم له ابن بشكوال في الصّلة[5] فوصفه بأنه: «كـان كثـير الصّـدقـة وفعـل المعـروف، واستشهـد بالزلّاقة مُقبلاً غير مدبر عام ٤٧٩ هـ». واستشهد العالم أبو مروان عبد الملك المصمودي قاضي مرّاكش[6]. والفقيه أبو رافع الفضل ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب أبي محمد بن حزم، قضى في معركة الزلاقة شهيداً[7].

وهكذا كان العلماء على المقدّمة في كافّة الميادين، حصون الأمة وقادتها، ومثالها، قدوة للمسلمـين، مثـالاً صافيـاً نقيّـاً دائـماً، لا ينزوون عن الأحداث، ويبرزون في صفاء الجود والنّعمـة، لا سيّـما علماء القـرآن الكـريم والسنّـة المطهـرّة، وعلماء الشّـريعـة، والتّـاريـخ،

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٨ / ابن خلكان جـ ٦ ص ١١٦.
(٢) الحلل الموشية ص ٤٣ / تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٥.
(٣) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣.
(٤) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٧ / أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٢٤٤.
(٥) ٦٨ رقم ١٤٤ /وانظر نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣.
(٦) الروض المعطار ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٧) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٢٩ / وقد حدّث عن والده: سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ص ١٨٦.

والقضاء، لأن العلم إيمان وعمل، وصدارة العلم لها مسئوليتها وتكاليفها، فرحمهم الله وأجزل لهم المثوبة.

استولى المسلمون على ما كان مع الجيش النصراني الكبير من مال وسلاح، ودواب، وغيرها. وقد عفّ عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس، وعرّفهم أنّ مقصده الجهاد، والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثّواب المقيم[1]. [وهذا درس عملي ألقاه عليهم، ولكنهم لم ينظروا إلى أبعاده ومراميه]. فأحبّوه، واجتمعوا، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً، فسلّموا عليه «بأمير المسلمين»، وكان يدعى «الأمير». وأرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله ببغداد، فأتته الخلع، والأعلام، ولقّبه **بأمير المسلمين، وناصر الدين**[2].

وضرب السّكّة من يومئذ وجدّدها، ونقش ديناره: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين». وعلى الوجه الآخر: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** [الآية ٨٥ من سورة آل عمران] وتحت ذلك: «الأمير عبد الله أمير المؤمنين العبّاسي». وفي الدائرة: تاريخ ضرب الدينار وموضع سكّه[3].

نتائج الزلاّقة :

طُيّرت أنباء النّصر الحاسم إلى سائر القواعد الأندلسية، وشاعت أنباؤه في سائر الجنبات، فاستبشر المسلمون بما آتاهم الله من عزيز نصره، وكتب أمير المسلمين رسالة عن الموقعة وتفاصيلها وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب افريقية، وتجاوبت أصداء النّصر في سائر مدن المغرب وافريقية، وعمّ الفرح والبشر سائر الناس، فأخرجوا الصدقات، وأعتقوا الرّقاب[4]. فكانت الزّلاّقة يوماً مشهوداً من أيّام الإسلام، محت العار الذي لحق ملوك الأندلس من مذلّة الفونسو السادس لهم. وفيه يقول بعضهم من قصيدة[5]:

لم تعلم الروم إذ جاءت مصممة … يوم العَروُبة أنّ اليوم للعرب

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣.

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٤٣.

(٣) المؤنس ص ١٠٩ / وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١١٥ / أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٢٥١.

(٤) انظر عنان ـ دول الطوائف ص ٣٢٨.

(٥) المؤنس ص ١٠٨.

والعرب تسمي الجمعة «العَرُوبة». ويعبّر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله[1]: «وكان يوماً لم يُسمع بمثله من اليرموك والقادسية، فياله من فتح، ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس، واعتزّ بها رؤوس الأندلس..» فانتعشت النفوس وقوّت الآمال، فأعادت للوجود الإسلامي اعتباراته، وكان يوشك على الأفول، وأظهرته من جديد في ثوب قشيب رائع، ليواصل حياته الجهادية مدى قرون أخرى.

وحرّرت الزّلاّقة سرقسطة وحمتها من الوقوع بأيدي القوى الصّليبيّة التى كانت تحاصرها عند نزول قوات المرابطين بالأندلس.

ورفعت من شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين أمام الرّأي العام الإسلامي، بجهادهم وذبّهم عن ثغور الإسلام، واتجهت أنظار المسلمين إليهم للتخلّص من أمراء الطّوائف، فاتخذ يوسف صورة المنقذ للمسلمين في الأندلس، فمهّد ذلك لاسقاط ملوك الطوائف، وضمّ الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب لحمايتها من هجمات النّصارى.

والغريب أن أمير المسلمين لم يستغلّ انتصار المسلمين الحاسم في الزلاقة، فلم يطاردوا عدوّهم، بل لم يحاولوا السّير إلى طليطلة (إلاّ بعد مدة طويلة) لاستردادها وهي كانت معقد المحنة التي دفعت أمراء الطّوائف للخضوع إلى طلب النّصرة، وقد تفرّق الجيش الإسلامي، فارتدّ أمراء الأندلس كلٌّ إلى بلاده، في حين رحل المعتمد بن عباد إلى أشبيلية ومعه أمير المسلمين، الذي أقام بظاهر أشبيلية ثلاثة أيام، ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم، فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع.. فسيّر معه ولده عبدالله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب[2]. وقد علّق اشباخ على موقعة الزلاقة فقال[3]: «إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغل نتائج انتصاره في معركة الزلاقة، لكانت أوربا الآن تدين بالإسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس». ولسنا نحن بصدد لو فإن لو تفتح عمل الشيطان. ولكننا نتساءل: لماذا لم يستغل المسلمون انتصارهم ؟!. ولنحاول أن نتلمّس الجواب من بين الأحداث السابقة واللاحقة.

---

(١) ص ٤٧، عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ص ٧٢٨.
(٢) نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٧٠ / الروض المعطار ص ٩٣.
(٣) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧.

إنّ الّذي يتعمّق في تاريخ الأندلس يجد أنّ بذور التّفكّك والانحلال قد أصابت البنية الإسلامية هناك، ولم يعد المسلمون قادرين على الاندفاع في وثبات هادفة مركّزة، فقد أصبح همّهم الدّفاع، وفقدوا روح الهجوم والمبادرة والمفاجأة، كما اتّخذ الجهاد صورة غير الصّورة التي كان عليها أيام الفتح الإسلامي الأوّل، فقد اتّصف بكثير من صور اليأس والانتحار، **وهكذا فقد الجهاد معناه من إزالة الحواجز في طريق الدعوة، وتبليغها ونشرها**. وأصبح همّهم الحفاظ على ما هم عليه من رفاهية العيش ومن الانغماس في الملذّات، فإذا اشتدّ الخطر نهضوا بحماس آنيّ ثم يعودون للفتور السّريع مستسلمين مستخذين، وقد أدرك أمير المسلمين ذلك تماماً، ولذا خطّط لإنهاء المعركة وحسمها في يوم واحد قبل أن تفتر همّة أهل الأندلس، وقبل أن تظهر بين ملوكهم عواطف الأثرة والحسد، لتتغلّب على عوامل الاتّحاد والقوّة، فتكون كارثة على المسلمين. وقد رأينا موقف ابن سكوت وابن المعتمد قبل عبور المجاهدين!. وظهر بعد الزّلّاقة إذ تحالف بعضهم سرّاً مع الفونسو السادس أملاً في طرد المرابطين، كما فعل عبدالله بن بلكين بن باديس أمير غرناطة[1]. **فوجود ملوك الطوائف كان العامل الأول الذي حال دون استغلال المعركة لصالح الإسلام في أوربا.**

ثم إن يوسف أدرك أنّ القوّة التي يقابلها في الأندلس ليست قوى أسبانيا النّصرانية بل **قوى أوربا بأكملها تحركهم كنيسة روما في حملات صليبيّة لا تهدأ**، فوضع استراتيجيته في عدم التّقدم إلّا بعد تأمين خط الرّجعة تماماً. وهذا ما طبّقه منذ دخوله الأندلس.

ثم كان ورود خبر وفاة ولده أبي بكر بن عمر وكان قد استخلفه في مراكش وتركه مريضاً بسبتة، فخشي الفوضى في المغرب فقرّر العودة فوراً إلى المغرب ويؤكّد لنا صاحب القرطاس أنّه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السّرعة[2].

عاد يوسف إلى المغرب ليبدأ خططاً جديدة، وترك قوات مرابطية للجهاد تقدّر بثلاثة آلاف، رهن تصرف المعتمد بن عباد بقيادة قائده الشجاع سير بن بكر. بعد أن قدم النصح بحرارة لملوك الطوائف بنبذ الفرقة والعمل للوحدة[3].

---

(١) التبيان لعبد الله الزيري ص ١٠٨.

(٢) عنان ـ الطوائف ص ٣٢٩، عن روض القرطاس ص ٩٨.

(٣) التبيان ـ لعبد الله الزيري ص ١٠٦، اتهم المستشرقون يوسف بن تاشفين بسوء النية، والطمع في خيرات الأندلس، والقضاء على ملوك الطوائف، من عبارات التقطوها من عبد الواحد المراكشي في المعجب في الصفحات ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧ وما بعدها. ومن المعروف أن عبد الواحد املى كتابه من ذاكرته. وفيما بيّناه خلال هذا البحث ما يدلّ على هدف يوسف: الجهاد وحماية الإسلام. انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية جـ ٢ ص ٢٩٢ وما بعد.

أمّا النّصارى فقد بدأوا بتغيير مخطّطاتهم التي رسمها لهم الفونسو السّادس لقتال المسلمين في الحرب التي دعوها حرب الاسترداد[1]. وأخذت الكنيسة هي التي تضع الخطط وتتابع تنفيذها، واستسلمت أسبانيا النصرانية لأحضان الكنيسة الرّومانيّة المتعصبّة، وخضعت لسياستها الحربيّة، بإقصائها جميع الرهبان الذين قد يترددون في السّير مع ما تحدّده الكنيسة دون قيد أو شرط. ودفعت الآباء البندكتيين بزعامة الراهب الفرنسي برنار لمحاربة المسلمين، واعتبرت حرب المسلمين مقدّسة يعادل أجر المشارك فيها أجر الّذين دفعتهم إلى قلب العالم الإسلامي في المشرق بعد ذلك. بل ان البابا اسكندر الثاني أصدر مرسوماً حرّم فيه على رجال الدّين الأسبان المشاركة في الحروب الصليبية في الشّرق، وأكّد أن محاربة المسلمين في أسبانيا تفوق أهمية وقدراً محاربتهم في الشّرق.

وهكذا تمكّنت الكنيسة من الزّجّ بكثير من نصارى أوربا في صفوف مقاتلة ملوك أسبانيا، بحيث أصبح معينُهم لا ينضب من الرّجال والمال والسّلاح. فاستطاع الفونسو بسرعة مدهشة أن يحشد جيشاً جديداً جاءت إمداداته من فرنسا ونورمندية والمانية، والفلاندر بروح صليبيّة، ولم يمضِ عام واحد على هزيمته حتى تمكّن من استعادة قواه، وأخذ المبادرة وبدأ بعمليّات الهجوم، ونقل ميدان نشاطه إلى شرق الأندلس، وتحالف مع الكامبيدو، وأنشأ حصن اليدو (لييط) بين مرسية ولورقة، وافر المناعة ضخماً، شحنه بالسلاح والمال والرّجال، وبلغت حاميته ثلاثة عشر ألفاً منهم ألف فارس، بالإضافة إلى انه ضم جماعات نصرانية التجأوا إليه، واتّخذه النّصارى قاعدة للإغارة على أراضي مرسية والمرية، وبثّوا الرعب والفزع في قلوب المسلمين في تلك الأنحاء، وعجزت القوات الأندلسية عن ردّ عدوانهم، فضجّ أهل تلك الأنحاء وعادت الوفود من أهل الأندلس تترى على أمير المسلمين وخاصة من بلنسية ولورقة ومرسية، فكثر الصريخ، وكثرت رسل الإنجاد والغوث[2]. وتلقّى الكتب من فقهاء الأندلس وأعيانها، يلحفون في رجاء الإنجاد والغوث.

(١) درج كثير من المؤرخين المسلمين على تسمية الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس: «حرب الاسترداد» كما فعل مؤرخو النصارى، وهذا تعبير خاطيء لأن المسلمين عندما فتحوا الأندلس لم يسلبوا السكان النصارى أراضيهم ولم يخرجوهم من ديارهم، بل نشروا عقيدة الإسلام فأسلم الناس طوعاً وتسلموا راية الإسلام مع العرب والبربر المسلمين. والنصارى الذين قاموا بالهجوم على مسلمي الأندلس في أكثريتهم من نصارى أوربا، فهم في الحقيقة الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم أو اجبروهم على التنصر أو أبادوهم!!.

(٢) عنان ـ الطوائف ص ٣٣٢ / الحلل الموشية ص ٤٧ و٤٨.

لقمع بغي النّصارى والاستيلاء على اليدومركز بغيهم، وعبر ابن عبّاد بنفسه مع بعض خاصّته والتمس منه العون[1].

جاز أمير المسلمين البحر للمرة الثّانية بقواته في ربيع الأول عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م وتُلقّاه ابن عباد في الجزيرة الخضراء، وبعث بكتبه إلى ملوك الطّوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد، فوافوه عند حصن لييط، حيث ألقى عليه الحصار، وسلّط عليه المسلمون آلات الحصار الضّخمة، لمدة أربعة أشهر، إلى أن استولى عليه الأمير وخرّبه[2].

وفي مدّة الحصار الطّويل هذا أحسّ أمير المسلمين بالاستياء لما شهده من أحوال أمراء الطّوائف المشاركين في الحصار، فقد كان الخلاف والتنافر والوقيعة بين أولئك الأمراء الطّامعين، كما وصله خبر تفاهم ابن رشيق أمير مرسية مع ملك قشتالة سراً، وانه قد دفع إليه جباية مرسية، وانه يعاون حامية الحصن في الخفاء. وأخذ أمراء الطوائف يتراشقون التّهم أمام يوسف ويحكّمونه في منازعاتهم، حتّى ضاق ذرعاً بذلك[3].

عاد أمير المسلمين إلى المغرب وهو على يقين أنّ وجود ملوك الطوائف معناه ضياع الإسلام في هذه البلاد، وكان قد ترك جيشاً مجاهداً من المرابطين من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود بن عائشة ليعمل في منطقة مرسية وبلنسية، وأخذ يعدّ خططه لاستئصال شأفة ملوك الطوائف. وأثناء ذلك بلغه توافقهم لقطع المؤن والمدد عن عساكره ومحلاّته التى تركها بالأندلس، فساءه ذلك كثيراً، وبلغه أن بعضهم عاد إلى مصادقة الفونسو ومالأه كعبد الله ابن بلكين، والمعتمد بن عباد نفسه، فشاور الزعماء والفقهاء وأعيان النّاس، وتلقّى فتاوى من فقهاء المغرب والأندلس ومن أكابر فقهاء المشرق بوجوب خلع ملوك الطوائف[4].

جاز أمير المسلمين إلى الأندلس للمرة الثالثة في أوائل عام ٤٨٣هـ، واتّسمت حملته بطابع الجهاد، ليتأكد من مواقف ملوك الطوائف، فسار توّاً إلى طليطلة واجتاح في طريقه أراضي قشتالة، ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف، لمعاونته أو السير معه، وعاث المرابطون في أحواز طليطلة، وخربوا ضياعها، وانتسفوا زروعها، ثم ضربوا حولها الحصار، وبداخلها

---

(١) المغرب الكبير ص ٧٣٠.

(٢) تاريخ افريقيا الشمالية جـ ٢ ص ١١٤ في حين تذكر المصادر الأخرى أن أمله خاب في الاستيلاء عليه فآثر الانسحاب، وان الفونسو خربه بعد ذلك حين قرر اخلاءه بعد فقدان حاميته حيث لم يجد فيه سوى مائة فارس وألفي راجل عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م / انظر: عنان ـ الطوائف ص ٣٣٨.

(٣) انظر: المغرب الكبير جـ ٢ ص ٧٣٠.

(٤) انظر: مذكرات الأمير عبد الله الزيري / وانظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية جـ ٢ ص ٢٩٣.

الفونس وحليفه سانشو، ثم تراجع أمير المسلمين عنها لصعوبة فتحها، وليصفي حسابه مع ملوك الطّوائف، لتوحيد كلمة الأندلس، وتكوين جبهة أندلسية مغربية لمواجهة الأخطار الصليبية.

عاد يوسف إلى المغرب في شهر رمضان عام ٤٨٣هـ، وفوّض إلى قائده الكبير سير اللمتوني شئون الأندلس، وتصفية الحساب مع ملوك الطّوائف، حيث أمده عام ٤٨٤هـ بأربعة جيوش مرابطيّة لمنازلة الطّوائف. وقام بالمهمة ولم يستثن منهم سوى المستعين بالله أحمد ابن هود صاحب سرقسطة لقيامه بحقّ الجهاد[١]. وكان آخر من استسلم: أشبيلية يوم ٢١ رجب عام ٤٨٤هـ، وسيق ابن عبّاد أسيراً ليقضي بقيّة حياته في اغمات[٢]. واستراحت الأندلس الإسلامية من ملوكها الضّعاف، وعاشت في ظلّ المرابطين سعيدة في رفاهية، وعلى أحسن حال ودخلت مرحلة جديدة من القوة، وكُتِب على المرابطين أن يحملوا راية الجهاد أمام هجمات الصليبية الحاقدة، دون كلل أو ملل؛ في الوقت الذي اشتدّ فيه ساعد النّصارى بما تدفّق عليهم من فرسان الصليبية، واتسع نطاق الحروب الصليبية، فاستولى النورمان على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ[٣].

وهاجم الفونسوجيّان في الأندلس في جموع صليبية عظيمة عام ٤٨٥هـ فالتقاه المسلمون فانهزموا، ثم تراجع الناس وثبتوا، ونزل النّصر وكان ملحمة كبيرة قتل فيها خلق كثير من النّصارى[٤].

وهاجم النّصارى بلنسية عام ٤٨٨هـ، واستسلمت بعد حصار دام ٢٠ شهراً[٥] وأحلّ النصارى بأهلها أنواع المحن وامتحُنوا بأفانين البلاء، وقام الكامبيدو بعمليات الحرق والتهجير، فحركت مشاعر المسلمين كما حدث يوم سقوط طليطلة، وقد صور الشعر الأندلسي هذه المأساة، يقول الشاعر البلنسي المعاصر أبو اسحق بن خفاجة (٤٥٠-٥٣٣هـ)[٦]:

---

(١) الحلل الموشية ص ٧٣.

(٢) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٥٣ / الاحاطة في أخبار غرناطة جـ ٢ ص ٨٢ / العبر جـ ٢ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ / الكامل جـ ٨ ص ١٧٧ / المؤنس ص ١٠٩ / عنان - الطوائف ص ٣٥٤.

(٣) العبر جـ ٢ ص ٣٤٧ / الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ١٥٧.

(٤) العبر جـ ٢ ص ٣٤٩ / الكامل جـ ٨ ص ١٦٠.

(٥) البيان المغرب جـ ٧ ص ٣٥٦ / نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٥٥ / أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٠٤.

(٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٤٥٥.

عاشت بساحتك الظّبا يا دار ... ومحا محاسنك البلا والنار
فإذا تردّد في جنابك ناظر ... طال اعتبار منك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضّت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الدّيار ديار

وقد سيرّ يوسف جيشاً بقيادة أخيه محمد بن تاشفين لاستعادتها، فانهزم المسلمون أولاً، ثم تمكّنوا من استعادتها عام ٤٩٥هـ/١١٠٢م بقيادة الأمير المرابطي أبي محمد مزدلي (استشهد بالأندلس عام ٥٠٨هـ)[١].

وفي هذه الفترة تبلغ الحرب الصّليبيّة ذروتها شرقاً وغرباً، فسقطت بيت المقدس (مسرى رسول الله ﷺ وأولى القبلتين) عام ٤٩٢هـ في أيدي الصليبين، ودقّت الأجراس في كلّ أنحاء أوربا فرحاً بذلك[٢]، واستخفّ الطرّب بالبابا باسكال الثاني فكان مرسومه بإعلان الحروب الصليبية في أسبانيا ضد المسلمين[٣].

وعلى ذلك فإن أثر الزّلاّقة في إثارة الحروب الصليبية لا يقلّ عن أثر ملاذكرد. وإثارة الحروب الصليبية هذه دعا النّصارى المعاهدين والذين كانوا يعيشون في ظلّ الحكم الإسلامي بأمن ورفاهية، يقومون بالأعمال التخريبية داخل المجتمعات الإسلامية، فاتصلوا بطرقهم الخاصة بالفونسو يعلنون استعدادهم ليكونوا أدلاء على عورات المسلمين، وأن يقدموا له حوالي ١٢ ألفا من المقاتلين، وشجّعوه على غزو المسلمين[٤] وكانوا عوناً له.

وتوفي أمير المسلمين عام ٥٠٠هـ عن عمر ناهز المئة[٥]، ولم يمنعه السن الكبير من الجهاد والعناية بشئون دولته، والسهر على رعيته، فكان رحمه الله من أهل الخير والاقتداء، وورثه ابنه علي بن يوسف الذي استمر في سيرة أبيه من القيام بالعدل وتولي الجهاد[٦]. في الأندلس.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة.

---

(١) البيان المغرب جـ ٤ ص ٤١، ٤٢، ٦٠.
(٢) اشباخ ـ تاريخ الأندلس ص ١١١.
(٣) انظر التواتي ص ٤٢٢ ـ ٤٢٤.
(٤) اشباخ ص ١٤٧ / التواتي ص ٦٠٤.
(٥) العبر جـ ٢ ص ٣٨١ / ابن خلكان جـ ٧ ص ١١٥ وقيل ابن بضع وثمانون سنة / سير الأعلام جـ ١٩ ص ٢٥٤.
(٦) المؤنس ص ١٠٩.

المصادر والمراجع

١ ـ ابن الأثير ـ محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ـ الكامل في التاريخ ـ دار الكتاب العربي بيروت ط ٤/١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢ ـ اندري جوليان ـ تاريخ افريقيا الشمالية ـ تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة ـ تونس.

٣ ـ البكري ـ أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز ـ المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ نشره دي سلان، الجزائر ١٩١١م.

٤ ـ التواتي ـ عبد الكريم ـ مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس.

٥ ـ الحجي ـ د. عبد الرحمن علي ـ التاريخ الأندلسي ـ دار الإصلاح ط ١، القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٦ ـ حسن ابراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ـ ج ٤، القاهرة ط ١ ـ ١٩٦٧م.

٧ ـ ابن الخطيب ـ لسان الدين محمد ـ الاحاطة في أخبار غرناطة وكتاب أعمال الأعلام جزءان ـ نشر ليفي بروفنسال، بيروت ١٩٥٦م. والقسم الثالث تحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤م.

٨ ـ ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد ـ كتاب العبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨م.

٩ ـ ابن خلكان ـ أبو العباس أحمد بن ابراهيم ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨م.

١٠ ـ ابن أبي دينار ـ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ـ المؤنس في أخبار افريقيا وتونس ـ تحقيق محمد تمام، تونس ط ٢ / ١٣٨٧هـ.

ـ الذهبي ـ شمس الدين محمد بن أحمد :ـ

١١ ـ سير أعلام النبلاء ـ ج ١٨ وج ١٩، مؤسسة الرسالة ط ١/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١٢ ـ العبر في خبر من غبر ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٣ ـ السلاوي ـ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ـ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ـ الدار البيضاء ١٩٥٠م.

١٤ ـ السيد عبد العزيز سالم ـ د ـ تاريخ المغرب الكبير ـ العصر الإسلامي ـ دار النهضة ـ بيروت ١٩٨١م.

١٥ ــ ابن عذارى ـ أبـو عبـد الله محمـد المـراكشي ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ أقسام مختلفة وأماكن نشر مختلفة.

١٦ ــ عنـان ـ محمـد بن عبـد الله ـ دول الطـوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ـ القاهرة، ط ٢/ ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٧ ــ مجهـول ـ كتـاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ الدار البيضاء، ط ١ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. تحقيق د. سهيل زكار.

١٨ ــ المراكشي ـ محيي الدين عبد الواحد بن علي ـ كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ـ تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ القاهرة ١٩٤٩م.

١٩ ــ المقـري ـ الشيـخ أحمـد بن محمـد المقـري التلمسـاني ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٢٠ ــ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ـ جزءان ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢١ ــ ياقـوت ـ شهـاب الـدين أبـو عبـد الله ياقـوت الحموي ـ معجم البلدان ـ دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٢ ــ يوسف اشباخ ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ـ ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨م.

مطابع الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة



Journal of

THE ISLAMIC UNIVERSITY

OF MADINAH MONAWWARAH